
دار المدينة المنورة
تقدم لك
النور المبين
لعلوم اليقين
ونيل السعادتين
للإمام المجدد
السيد محمد ماضي أبو العزائم
أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الخرطوم
طبع بإذن من
شيخ الطريقة العزمية
السيد عز الدين ماضي أبو العزائم
المحامي بالنقض

دار المدينة المنورة

تقدم لك

النور المبين

لعلوم اليقين ونيل السعادتين

للإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الخرطوم

طبع بإذن من

شيخ الطريقة العزمية

السيد عز الدين ماضي أبو العزائم

المحامي بالنقض

الطبعة الأولى

١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م

الطبعة الثانية

يوم الخميس ٨ رجب ١٤٠٣هـ — ٢١ أبريل ١٩٨٣

رقم الإيداع ٢٧٥٩ - ١٩٨٣

فاتحة الكتاب

الحمد لله دل على ذاته بذاته ، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته ، القريب من خطرات الظنون ، والبعيد عن لحظات العيون ، العالم بما كان قبل أن يكون ، والصلاة والسلام على سماء الرفعة القريب فى علوه ، ونور القدس المتدلى فى سموه ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله أهل بيت النبوة ، الدعاة إلى الله ، والأدلاء على مرضاة الله ، وعلى صحابته الصالحين الراشدين . ورضى الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ، ونضر الله وجه خليفته الأول الإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبى العزائم .... آمين .

وبعـــد

فتقدم دار المدينة المنورة . وهى إحدى الهيئات التابعة لمشيخة السادة العزمية . الطبعة الثانية من كتاب (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) بعد أن صدرت طبعته الأولى عام ١٣٣٢ هـ الموافق عام ١٩١٤ م ثم أعاد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية طبعه عام ١٣٩٢ هـ الموافق عام ١٩٧٢ م بعد أن قُدم له من غير أهله ، الذين دائما ما يعبثون فى مؤلفات الإمام المجدد ، بالتعديل والتغيير والحذف والإضافة ، فجاء بعد الطبع محرفا ، أبسط ما يقال عنه أنه تشويه لآثار الإمام المجدد العلمية ، ومنع لوصول مفاهيم معينة أرادها رضى الله عنه أن تصل إلى الناس .

لذلك قامت دار المدينة المنورة بإعادة طبعه للمرة الثانية ، متوخية فى ذلك الأمانة العلمية ، والدقة فى النقل عنه ، لأن الخيانة فى العلم أكثر إثما من الخيانة فى المال ، ولذلك كشف صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله « تناصحوا فى العلم فإن خيانة فى العلم أشد من خيانة المال » .

لذلك فإننا دائما نحذر ـــ القارىء المسلم على وجه العموم ، وإخواننا آل العزائم على وجه الخصوص ـــ من قبول أى كتاب من آثار الإمام المجدد ، إلا إذا كان صادرا من دار

المدينة المنورة ، باعتبارها الدار المسئولة عن طبع ونشر وتوزيع كتب الإمام المجدد رضى الله عنه .

وهذا الكتاب يضم بين دفتيه تمهيد وأربعة أبواب ، يشمل كل باب من أبوابه العديد من المباحث .

فأما التمهيد : فيحدثنا الإمام المجدد فيه عن عودة مجد الإسلام ، الذى لا يعود إلا بالعمل بأحكام القرآن والسنة ، ولا أدل على ذلك من حال سلفنا الصالح ، حينما تمسكوا بشرائع الإسلام على الوجه الأكمل ، فمكن الله لهم فى الأرض ، لابعدد ولا بعُدد ، ولكن كان عددهم اليقين ، ، وعُددهم الأخلاق الطاهرة ، والحرص على الخير لبنى الإنسان . أما واقع المسلمين الآن بعد أن تركنا العمل بالكتاب والسنة ، فقد وكلنا الله إلى أنفسنا ، فحل الطمع محل القناعة ، والأمل محل الخشية ، والغرور محل الخوف من الله ، والانتقام محل الرحمة ، والحرص على الدنيا محل العمل فيها للآخرة ، والمزاحمة فيما يفنى محل المنافسة فيما يبقى . عند ذلك التفت الله بوجهه الجميل عنا فتفرقت الكلمة ، وذهب السلطان .

وأما الباب الأول : فيتناول الإمام المجدد فيه الإسلام باعتباره دين الكمال الإنسانى ، والسعادة الأبدية . وهذا الباب ثلاثة مباحث : المبحث الأول ــ أن بالإسلام نيل السعادتين فى الدنيا والآخرة . والمبحث الثانى ــ فى تأثير الإسلام على المجتمع الإسلامى ، حتى تحول المسلم الحقيقى إلى أمة عظيمة . والمبحث الثالث ــ فى اليقظة من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، التى أصابت الأمة الإسلامية ، وبيان مراتب اليقظة .

أما الباب الثانى : فبين الإمام المجدد فيه واجبات المسلم . وهذا الباب يضم مبحثين : المبحث الأول ــ فى الواجب لله سبحانه وتعالى ، الذى يقوم على دعامتى المعرفة والشكر . والمبحث الثانى ــ فى الواجب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى يشمل التصديق به وطاعته واتباعه ومحبته ، وتعلم آدابه ووجوب الصلاة عليه ، وتعظيم عترته ومودتهم .

وفى الباب الثالث : شرح لنا الإمام المجدد موضوع الإمامة بإعتبارها النظام السياسى فى الإسلام ، والتى يقوم على أساسها سائر التنظيمات الأخرى ، الإجتماعية ، والمالية والإقتصادية والعسكرية . فجميع أشكال النُظم تعتمد أولا على الحكم ، فإذا وضح شكل الحكومة وأهدافها وغاياتها ، سهل علينا التعرف على الأنظمة الأخرى . وهذا الباب يضم ثلاثة مباحث : المبحث الأول ــ فى وجوب تنصيب الأمام وصفته وطريقة إختياره . والمبحث الثانى ــ فى الواجب على الإمام لكل فرد من أفراد المسلمين ، والواجب للإمام على

كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم ، حتى يتضح للشباب المسلم ــ سواءاً من كان فى حقل الدعوة منهم ، أو فى التنظيمات السرية التى أشاعت الرعب فى البلاد ، أو فى الجماعات الإسلامية ــ أنه وقع ضحية فكر الخوارج ، ذلك الفكر المتطرف الذى يحمل بذوره إلى شبابنا دعاة لهم قوة تعبير وحرارة تأثير، أحبوا الدنيا والغرور بزينتها للشهرة والإستعلاء على الناس لذلك : كان سبيلهم الخلاف مع غيرهم ، وانتصارهم لمذهبهم بتكفير وتشريك وتحقير غيرهم . فلو كانوا هؤلاء غيورين على الإسلام لكانوا هداة للحق لا بغاة على الخلق،لأن الهداة يدعون كل الناس إلى الله ، من كان ضالا فليهتد ، ومن كان عاصيا فليتُب ، ومن كان جاهلا فليتعلم ، ومن كان كافراً فليسلم . والهداة لا يعملون على عقوبة المخطىء بل يعملون على هدايته ، ولا يتعقبون المرتد ليقتلوه ، بل يتتبعونه ليردوه إلى حظيرة الإسلام . ولكن هؤلاء أئمة أهل التكفير والتشريك والتحقير أعماهم التعصب والغلو والتطرف فشحنوا عقول شبابنا بهذه العقيدة المضطربة ، عقيدة الخوارج . فصدرت من شبابنا حركات ، وردود فعل ، تتسم بالسطحية والعشوائية فى القول والفعل ، ليجنى هؤلاء الدعاة الثمرة من هذا الشباب الغير ناضح ، عن طريق الثورة المسلحة لإقامة الحكم الإسلامى ، وهو الأسلوب الذى ترفضه تعاليم الإمام المجدد أبى العزائم ، والذى رفضته من قبل على مر العصور والدهور مذاهب أهل السنة والجماعة ، ولم يُعتنق إلا من أصحاب الإمتداد التاريخى لفكر الخوراج

والمبحث الثالث ــ فى الواجبات العامة ، كواجب العلماء والتجار والصناع والمزارعين نحو المجتمع الإسلامى ، وواجب الأ بناء نحو الوالدين ، والواجب على المسلم لإخوانه ولعموم الخلق ولمعلم الخير.

وفى الباب الرابع : يحدثنا الإمام عن الجهاد ، وأنه ليس المراد به القتال فقط لأن قصر الجهاد على القتال قصور فى فهم الفكر الإسلامى ، فالجهاد له معنى أوسع من معنى الحرب ، ولذلك يقسم الإمام أبو العزائم رضى الله عنه أنواع الأعداء الذين يتعين علينا جهادهم ، بأنهم :ــ

أولا : عدو ملازم وهى النفس ــ جنودها جوارحها المنفذة لأعراضها اللسان والعينان والأذنان واليدان والذكر والرجلان والبطن ــ.

ثانيا : العدو المفارق وهو الزوجة والأ ولاد .

ثالثا : العدو الخارجى وهو الظاهر العلنى والمداهن السياسى .

كل هذه ميادين لألوان وأنواع من الجهاد ، لا كما يقول أصحاب الإمتداد التاريخى لفكر الخوارج : إن الجهاد مقصور على القتال والصراع المسلح .

وانى إذ أقدم كتاب (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) للشباب المسلم المعاصر، الذى ظهر فى الآونة الأخيرة ، والذى لاعلم له بالشريعة الإسلامية بإعتبارها دستوراً للسالكين على طريق رب العالمين ، لقلة بضاعتهم من فقه الإسلام وأصوله ، وعدم تعمقهم فى العلوم الاسلامية واللغوية ، الأمر الذى جعلهم يأخذون ببعض النصوص دون بعض ، أو يأخذون بالمتشابهات ، و ينسون المحكمات ، أو يأخذون بالجزئيات و يغفلون القواعد الكلية ، أو يفهمون بعض النصوص فهما سطحيا سريعا ، وما وصلوا إلى هذه الجرأة الشديدة على الكتاب والسنة إلا بعد أن شُحنوا بتعاليم أهل التكفير والتشريك والتحقير وظنوها دينا مقدسا يدافعون عنه بحماسة بلغت حد التهور، ولهذا كان من وصايا الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم رضى الله عنه « عمل بلا علم باطل وعلم بلا عمل عاطل » . وقد قال الحسن البصرى رضى الله عنه « العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ، ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة ، وأطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوه » .

ولم أخرج هذا الكتاب فى هذه الآونة ، إلا لأنى على رجاء كبير، وأمل أكيد ، بشبابنا المسلم المعاصر، الذى سيشد الله أزره ليجتاز البلبلة الفكرية والعقائدية ، المنبعثة من فكر الخوارج والتى وسوس بها دعاة ـــ سمعوا كتاب الله فحرفوا ، وقالوا فى سنة رسوله فزيفوا ، واحتجوا بباطل عقيدتهم فزخرفوا ، وقضوا بحكم فكرهم فخرفوا ، عقولهم حائرة ، وأحكامهم جائرة ، لأن ديدنهم المكر ، وشرعتهم الغدر ، وعقيدتهم الكفر ، وأخلاقهم الهُجر ، وطبعهم عقوق ، وعبادتهم مروق ـ .

فاللهم أعذ شبابنا من فتنة أئمة خوارج هذا الزمان ، حتى يظهر لشبابنا النور المبين ، فيستقيموا على طريق رب العالمين ، لينا لوا سعادة الدارين .

إن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله .

شيخ الطريقة العزمية

السيد عز الدين ماضى أبو العزائم

المحامى بالنقض

التماس الطبعة الأولى
١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان علمه البيان ، سبحانه وتعالى ، لا أحصى ثناء عليه كما أثنى على نفسه . أرسل رسوله سيدنا ومولانا محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . ختم به عقد الرسل الكرام فأنزل عليه القرآن تبيانا لكل شىء ، حتى أغنى الله خلقه بما نزل عليه ﷺ عن الاحتياج إلى رسول يأتى من بعده،فكان ﷺ خاتم الرسل ورسولا للخلق كافة . بيّن الله لنا به صراطه المستقيم ، وسبل نيل الكمالات النفسانية ، والتخلق بالأخلاق الربانية،والتشبُّه بعوالم الملكوت الأعلى،والمجاهدة فى نيل السعادتين فشرح لنا ﷺ بعمله وقوله وحاله ما يجب أن نكون عليه من الاعتقاد والعلم والعمل والحال ، و بيّن لنا ﷺ ما يجب علينا لأنفسنا **ولربِّنا ــ سبحانه ــ** وما يجب علينا لكل حيٍّ ،وصلى الله عليه وعلى آله وسلَّم .

و بعد فأقول ــ وأنا العبد المسكين أحمد ماضى **أبو العزائم** ــ : إنّى بعد أملى علىّ سيِّدى ومولاى والدى الإمام السيد محمد ماضى أبوالعزائم كتابَ(معارج المقرَّبين)و بيّن لنا فيه جُملا من علوم النفس ، والفَرْق بين العلم والإيمان ، وغير ذلك من العلوم العالية،ظهر احتياجى أنا وإخوانى إلى كتاب يفصِّل لنا فيه الواجب علينا لأنفسنا،ولله ولرسوله ﷺ وللوالدين ولأولى الأمر منا وغيرهم ممن له علينا حقوق ، تفصيلا لايحتاج بعده المُطالع إلى معلِّم يُبيِّن له ، ولا إلى كتاب يرجع إليه،بحيث تكون عباراته مفهومة للعامَّة ليكون النفع به أكمل والعمل به أسهل ، وأن يكون مشتملا على الواجب مطلقا : سواء كان واجباً وجوب الفرائض أو السنن أو الرغائب . فعرضت هذا الأمر على الإمام ، والتمست منهُ ــ نفعنا الله بعلومه ــ أن يملى علىَّ جملا يبين فيها مالابد منه مما يتعلق بالمعاملات الحسنة الشرعية ، والأخلاق المحمدية بالتفصيل . فانشرح لذلك صدره ــ أعزه الله وأكرمه ــ وافتتح يملى علىَّ رضى الله عنه ، ونفعه ونفعنا به آمين .

مقـــــــــــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله الـذى علـم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على فاتح أبواب هذا الخير العظيم ، شمس الهداية المشرقة الممدة بأنوارها الربّانيّة جميع الأرواح والعقول وآله وسلم .

(وبعـد) فـإن الـعلوم إنما تُتَلَقَّى للعمل بها . وليس العالِمُ مَن عَلِم . إنما العالم من علم فعَمِل . والـعمـل بـلا عـلـم لايرفع . والعلم بلا عمل لاينفع . وإنى أكرر التنبيه لإخوانى المؤمنين ــ ودَّنى الله وإياهم ــ أن يوجهوا هممهم إلى تحصيل العلوم للعمل بها ، وإن الأخ فى الله تـعـالى إذا طالع مسألة من العلم فلم يفتح له مغلقها ولم يظهرله المراد منها ربماأنكر العلم أو أنكـر عـلى العالم ، أو سئم العلم وملّه . وكل هذه قواطع عن إدراك العلوم ، وحُجُبٌ تُبعد الإنـسـان عـن مُكـاشـفة أسرار الفهوم . وأنبه إخوانى ــ أمدّنى الله وإياهم بروح منه ــ أن الأخ إذا قـرأ جملـة مـن جمل العلم وصعبَ عليه فهمها ، أو خفى عليه مدلولها ، أن يتوب إلى الله بـإخلاص وصدق ، و يسأله سبحانه وتعالى أن يعلمه مالم يكن يعلم ، فإن ورد على قلبه وارد الـفـهـم ، وإلا قام فتوضأ وصلى ، واستمد من روحانية رسول الله ﷺ أن يمن الله عليه بفتح هذا المغلق وفهم هذا السر .

وأنـبـه إخـوانـى أيضا ــ علمنى الله وإياهم البيان ــ أن يضن كل أخ بما فتح الله له من غوامض الـعـلـوم إلا لمؤهل ، أو لمن كاشفه الله تعالى بما كاشف به أخاه ، أو مسلم راغب تأمن عليه أيها الأخ من أن ينقدح الشك فى قلبه ، أو يشوب إيمانه ما ينقص به .

وأنبـه إخوانى أيضا إلى دوام دراسة العلم فى أوقات الفراغ ، وأن الأخ إذا فهم مسألة مـن الـعـلـم يجب علـيـه أن يـسارع بالعمل بها ، وأن يبين لأخيه فى الله تعالى بالعمل قبل القول ، حتى يكون إماما يقتدى به فى العمل .

وأنبه إخواني أيضا أن ما وضعته في كتبي هذه تحرّيت أن يكون مطابقا للحق بكل اجتهادي ، ولكنني لاأبرئ نفسي ، فمن وجد في كتابي مالا يوافق الحق ، مما وضعته بما فيَّ من العجلة والتسرع والغفلة والنسيان ، فالواجب على الأخ — أيده الله بنور منه — أن يضرب بقولي عرض الحائط ، وأن يعمل بالحق الذي وضح له ، ولكنني أرجوه أن يسأل الله لي المغفرة والعفو، فإنما أنا بشر ، وحسن ظني في الله يطمعني في العفو، لأني والحمد لله أكره الباطل وأحب الحق .

وأنبه إخواني أن يجتهدوا في العمل بتلك العلوم ، وأن يتباعدوا من أن يتكلموا بها إلا إذا كانوا على بيِّنة من فهم أسرارها ، وإمكان التعبير عنها ، بما لايخل بمعانيها ، وأجلُّ ما أحبه من إخواني أن يجعلوا غيرهم هو الذي يثني عليهم وعلى علومهم بأخلاقهم الحسنة ، و ببيان تلك العلوم لكل طبقة على قدر عقولهم ، و بالتواضع لله ورسوله ، و بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، و بدوام ذكر الله وتذكير عباده به ، و بالتباعد عن أماكن التُّهم ومواضع الريب ليسلموا و يسلم من شرِّهم عباد الله .

والله تعالى أسأل أن يمنحنا جميعا العمل بالكتاب والسنة ، والحب في الله ، والبغض في الله ، إنه مجيب الدعاء . وصلى الله وسلم على الفاتح لأبواب الفضل العظيم وآله وصحبه وسلم .

تــــــمهيد

معلوم أن النفوس سريعة الانفعال بما توره عليها الحواس ، ودليل ذلك ما تراه يحصل للمسرور إذا رأى ما يحزنه ، فإنه ينسى بسرعة بواعث السرور و ينفعل بما يراه ، وكذلك المحزون إذا شهد ما يسره فإنه ينسى ما كان فيه و ينفعل بدواعى السرور. وربما انفعل المتألم بمرض شديد ببُشرى أو بصوت حسن أو بمعنى بديع فعمه السرور، فينسى ألمه حتى لايكاد يحس به ، وذلك مشهود محسوس . وكثيرا مانسى الإنسان ألم الجوع والعطش بمجرد سماع خبر أو رؤية عدوٍّ أو حبيب . وقد يكون الرجل محصورا فيشتغل بشىء فينسى ذلك . وليس ذلك الأمر قاصرا على النفوس الفاضلة بل هو عام لجميع النفوس حتى النفوس الحيوانية ، كما يحصل لكلب الصيد إذا اصطاد مع شدة جوعه وعطشه ، فإنه ينسيه سرورُه بالصيد جوعه وعطشه ، و يرجع مسرعا بصيده إلى سيده يبصبص حوله به ، وكما يحصل للاعب الشطرنج من نسيان ألم الجوع والعطش ونسيان الهموم . كل تلك المثل المحسوسة برهان حق على أن النفوس جبلت على التسلى عما دواعيه مؤثرة عليها ، فتتأثر النفوس بما تشهده تأثيرا يجعلها تألفه وتأنس به ، ولو كان باطلا أو بدعة مُضِلَّة .

وقد ظهر هذا الأمر جليًّا وأصبح المسلم ــ إلا القليل ممن عصم الله ــ آنسا بما يشهده من رذائل الأخلاق التى حظر عليها الشرع ، آلفا لقبيح الأعمال التى نهى عنها الشرع ، مستبدلا جمالات الذين بقبائح البدع ، ناسيا مراقى الخير ومعارج السعادة ، فرحا بمدارج الشر ومهاوى الشقاء ، ينقاد للرذائل كالسيل فى البطحاء ، و يقلد فى السفاسف والدنايا كتقليد القردة يذم ما مدحه الله تعالى ورسوله ﷺ وما كان عليه أئمة الهدى ، ويمدح ما يلائم حظه وهواه ، حتى هوى فى حضيض الذلة وانحط إلى درك الخزى ، وصار عالة على الناس بعد أن كان هو الناس . كل ذلك أشهده بعينى رأسى ، وأعلم حق العلم أن ذلك كله من عدم الذكرى ، وإهمال أهل العلم فى تأدية الواجب عليهم لجماعة المسلمين خوفا على أنفسهم من أذية الناس ، أو نسيانا للواجب عليهم ، وإن خالفنى فى هذا من لم يطلع على روح الشريعة المطهرة ولم يقع به العلم على حق اليقين ، ممن يرى أن الدين الإسلامى كالأديان الأخرى لايرتقى أهله إلا بتركه ، لأن هؤلاء نظروا بعين رؤوسهم ، وجهلوا أسرار

دينهم ، لأن القرآن الشريف أنزله الله تعالى ضامنا لمن تمسك به العزة والسلطان فى الدنيا ، والسعادة الأبدية فى الأخرى . يعلم ذلك حق العلم أعداء الدين العقلاء ، الذين أسسوا سعادتهم فى الدنيا على الأساس الذى أسسه رسول الله ﷺ من الجِدّ والعمل ، وإعداد العُدَّة والعَدد ، وانتشار العلوم ، ومانهج عليه أئمة الهدى : من إحياء الصناعات والزراعات والفنون ، وتقوية الأمة وتربية نفوسهم ، حتى نالوا ما نالوا من سعادة الدنيا ؛ ولايزال أعداء الإسلام عاملين بالإسلام وأهله تاركين له !!

وأنت تعلم أيها القارئ أن رسول الله ﷺ بُعِثَ بين هذا الحىّ من الْعَرَب وكانوا أذل الناس ذلا ، وأشقاهم عيشا ، وأجوعهم بطنا ، وأعراهم جلودا ، وأثبتهم ضلالا . من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار . يؤكلون ولا يأكلون . واللهِ ما نعلم قبيلا من أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منهم منزلا ، حتى جاء الله بالإسلام فَمَكَّنَ به فى البلاد ، وَوَسَّعَ به فى الرزق . وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس ؛ فبالإسلام أعطى الله مارأيتم ، فاشكروا الله على نعمته ، فإن ربكم مُنْعِمٌ يحب الشكر . وأهل الشكر فى مزيد من الله تبارك وتعالى . والشكر حقيقة هو العمل بشرائع الإسلام كما قال الله تعالى : (ٱعْمَلُوٓاْ آلَ دَاوُدَ شُكْراً)(١)فأثبت أن الشكر عمل .

عودة المجد بالعمل بأحكام القرآن والسنة :

ومتى عمل المسلمون بأحكام القرآن و بالسنة المحمدية،عاد لهم هذا المجد ودام لهم ما داموا عاملين بالكتاب والسنة . وإليك برهانا يقينيا ، وهو أن سلفنا الصالح تمسكوا بشرائع الإسلام على الوجه الأكمل فكَّن الله لهم فى البلاد ، ومحا بهم الظلم والضلال من كل أقطار العالم ، وفتح لهم كنوز الصناعات والفنون ، وعلمهم مالم يكونوا يعلمون من خواص الكائنات . وكان المجتمع الإنسانى فى كل بقاع الأرض بالنسبة لهم أتباعا وهم الرعاة والسادة والقادة ، لا لكثرة عددهم بل لعملهم بشرائع الإسلام ، فلما حدثت البدع ٱلْمُضِلَّةُ التى أنتجتها المطامع والأهواء والحظوظ ، وأوَّلوا أحكام الإسلام على الوجه الذى يناسب

---

(١) سورة سبأ آية ١٣

حظوظهم وأهواءهم ، وقعت العداوة والبغضاء بينهم ، وقام أهل الأديان الأخرى فرفضوا الدين وراء ظهورهم ، لأنه ليس دين الرقيّ ، ونهجوا على الأساس الذى أسسه أئمة الهدى المأخوذ من القرآن والسنة ، فتقهقر الذين يدَّعون أنهم مسلمون لتركهم العمل بالدين الإسلامى ، وتقدم الأمم غيرهم لتركهم العمل بدينهم المؤسس على خراب العمران والرهبانية ، والنفور من غير أهل الدين ، كما ترى ذلك فى صريح ما بأيديهم من الكتب السماوية . فنحن تركنا العمل بديننا فتقهقرنا وذللنا وخذلنا ، وهم تركوا العمل بدينهم واقتدوا بسلفنا الصالح فسلطهم الله علينا وآتاهم الله زينة وأموالا فى الحياة الدنيا بما تمسكوابه من شرائع الإسلام . وذلك لأن القرآن الشريف أمرنا بالعمل للآخرة،وجعل نيل السعادة فى الآخرة متوقفا على العمل للدنيا،لأن كل ركن من أركان الإسلام لاقوام له إلا بالمال .

مكنون العلوم التى أظهرتها أركان الإسلام :

انظر إلى الصلاة فإنه اشترط فى الجمعة المسجد ، والمسجد محتاج إلى بنّاء ونجّار وحدّاد وعامل ، ولا يمكن أن يكون إلا بوجود الصنّاع والأموال . واشترط للصلاة ستر العورة ولا تكون إلا بالثياب ، والثياب تحتاج الى مُزارع وغزّال ونساج ونجار. وتلك الصناعات تحتاج إلى صُنّاع كثيرين وأموال كثيرة . واشترط استقبال القبلة لكل مصلٍّ ، ولايتسنى ذلك إلا بعلم الجهات الأصلية والفرعية ، وعلم تخطيط الأرض ومعرفة جهات الكواكب الثابتة ، حتى يهتدى المصلى إلى جهة الكعبة . واشترط للصلاة دخول الوقت ، وهو متوقف على علم خطوط الطول والعرض لكل نقطة من نقاط الأرض ، ومعرفة سير الشمس وتنقلاتها ، حتى أنتجت تلك الشروط اختراع الساعات والمزاول والبوصلة وعلم المواقيت وعلم الفلك . واشترط الطهارة وهذا الشرط أنتج علم العناية بالأبدان وحفظها من الأوساخ ، وعلم أمراض الجلد خصوصا مسح الأسنان بالأراك ، فإنه قد ظهر أن أكثر أمراض الجسم الباطنة ناتجة من الأوساخ المتراكمة بين الأسنان وحواليها . فكانت الصلاة سببا فى إظهار مكنون علوم كثيرة لولاها لم يشتغل أهل العلم بتدوين تلك العلوم .

والصيام متوقف على وجود ما يُقْتات به عند الإفطار وعند السحور، ولايكون ذلك إلا بزاد متوفر، إذ كل مسلم لايجد طعاماً عند المغرب وطعاما قبل الفجر ساقط عنه الصيام ، وهذا لايكون إلا بكثرة الأموال .

والحج عبادة مالية أكثر من كونها بدنية ، لأن شرطه الزاد والراحلة بعد ترك ما يقوم به أهله حتى يرجع إليهم ، ولا يكون إلا بوفرة المال .

والزكاة هى عبادة مالية صرفة . فإذا كانت العبادات المفروضة قوامها المال فهو دين عمل وكسب للمال ابتغاء رضاء الله ، قال تعالى:(ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا۟ ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ)(١) هذه الآية الشريفة تدلنا دلالة صريحة على أن المسلمين إذا تمسكوا بشرائع دينهم مكّنهم الله فى الأرض . وملكهم على من سواهم ، فإن مكنهم فى الأرض وتركوا شعائر الدين سلّط عليهم أعداءهم فجاسوا خلال الديار . نعوذ بالله تعالى من مخالفة شرائع الإسلام المؤدية إلى الخذلان فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . وقال الله سبحانه وتعالى:(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ)(٢) هذه الآية الشريفة برهان جلىّ على أن المسلمين إذا أحسنوا فى هذه الحياة الدنيا باتباع شرائع الإسلام فتح الله لهم كنوز السموات والأرض ، وأذل لهم غيرهم من الأمم حتى ينقادوا لهم ، وفى هذا الوقت تظهر بشاشة الإيمان وحلاوة الإسلام للعالم جميعه بمحافظة المسلمين على شرائع الدين ، فيعتنق أكثر أهل الأرض الدين الإسلامىّ لأنه مطلوب النفوس إذا تجردت من العصبية والحظ والهوى .

والمسلمون إذا أحسنوا فى هذه الدنيا طهّروا نفوس الأمم المجاورة لهم من تلك الأمراض ، فصفت النفوس ورغبت فى الحق وبحثت عنه فوجدته هو الدين الإسلامى .

نظرة إلى حال السلف الصالح وحال المسلمين الآن :

لو قرأت صحيفة من تاريخ السلف الصالح الذين أحسنوا فى هذه الحياة الدنيا ، لعلمت كيف أقبل العالم على الدين الإسلامى بسرور ، واعتنقوه مطمئنين فرحين ، لأن أصحاب رسول الله ﷺ جملهم الله تعالى بجمال الإسلام حتى ظهرت حقائق الدين الإسلامى جلية لكل من شهدهم أو جاورهم .

---

(١) سورة الحج آية ٤١

(٢) سورة النحل آية ٣٠

نشأ الإسلام بمكة فلم تمض سنون تعد على الأصابع إلا وقد سرت روحه على سواحل المحيط الأطلانطيقى ، وعلى الضفاف الشمالية للبحر الأبيض المتوسط ، وانتشرت بسرعة حتى أشرقت أنوارها على سواحل المحيط الهندى والمحيط الهادى ، ولم تقف تلك الروح حتى سرت فى آسيا وأفريقيا وأوربا والجزر ، واعتنق دين الإسلام أهل العقول والعلم ، ودان لسلطان المسلمين بقيتهم ، فكان المجتمع الإنسانى إما يدين للإسلام أو يدين للمسلمين بالانقياد . لم يكن ذلك بعدد ولابقوم كان لهم ملك فقاموا ليجددوه ، ولكن كان عددهم اليقين الحق ، وعددهم الأخلاق الطاهرة والحرص على الخير لبنى الإنسان . ثم انتقل العالم الإنسانى من ظلمات الجهالة والضلالة إلى أنوار الفضائل والرقى فأحيوا الأفكار بالنظر فى الآثار ، و بحثوا عن خواص الكائنات حتى استنتجوا منافع كل كائن ومضاره ، فاستعملوا المنافع و بينوا الوقاية من المضار ، كل ذلك كان باتباع شرائع الإسلام و بالعمل بالقرآن .

ولما ترك المسلمون العمل بشرائع الإسلام،وحلَّ الطمع محل القناعة ، والأمل محل الخشية ، والغرور محل الخوف من الله ، والانتقام محل الرحمة ، والحرص على الدنيا محل العمل فيها للآخرة ، والمزاحمة فيما يفنى محل المنافسة فيما يبقى ، ومالوا إلى زينة الدنيا وبهجتها ونسوا يوم الحساب ، ووثقوا بكثرة الأموال وقوة الملك . عند ذلك التفت الله تعالى بوجهه الجميل عنهم،ووكَلَهم إلى أنفسهم ، وحرمهم من معيته سبحانه وتعالى الخاصة بهم لعدم اتباع شرائع الإسلام ، وعاملهم بسر قوله تعالى : (فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)(١)

وحقًّا صارت الأموال سبب الفتن والخصومات بين الوالد وولده ، وصار الملك سبب الذل والتفرقة ، حتى صرفت الأموال فى المصائب والخصومات ، وقتلت النفوس البريئة طمعا فى الدنيا ، وتفرقت الكلمة ، وتَبَلْبَلَت الألسن ، وذهب السلطان لضعف الإيمان وترك شرائع الإسلام .

---

(١) سورة التوبة آية ٥٥

الغرض من الكتاب :

كل تلك الحوادث دعتني أن أُلَبِّيَ إخواني الذين التمسوا مني أن أكتب لإخواني المسلمين مختصرا أبين فيه الواجب للمسلم وعليه ، عسى أن تلك القلوب ـ النائمة نومة الغفلة ، الراقدة رقدة الجهالة ـ تستيقظ . وتلك النفوس ـ المسجونة فى ظلمة الحظ والهوى والنسيان ـ تتجرد وتبحث عن طريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، وتنهج على الطريقة المستقيمة التى تنال بها الحسنة من الله تعالى فى الدنيا والآخرة . إذا تقرر ذلك فالغرض من الكتاب تحصيلُ العلم النافع تحصيلا يكسبنا الخشية من الله تعالى والعمل بشرائع الإسلام ، حتى تلين الأبدان والنفوس وتنجذب إلى السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة . هذا هو الغرض الباعث لجمع تلك المذكرات . على أنى أبرأ إلى الله تعالى مما خفى علىّ فى نفسى من الحظوظ الخفيّة والنزوع الخفىِّ ، مما لاحول لى ولا قوة على دفعه إلا بالله تعالى فإن ذلك من فطر النفوس البشرية .

وأنبه إخوتى المؤمنين إلى أن مختصرى هذا إنما وضع ليفتح بابا من أبواب الخير تنبيها لأهل الفضل أن يوجهوا هممهم إلى الحث على العمل بشرائع الإسلام . وأكرر الذكرى لأنى لست معصوماً فقد أخطىء وقد أصيب ، ولكنى ما كتبت فى كتبى إلا ما اعتقدته صوابا ، فمن ظهر له الخطأ فيها فالواجب عليه أن يسأل الله لى المغفرة ، وأن ينبه على ذلك بعد البحث والتدقيق ، لا ليوقع المسلمين فى الاختلاف بل رحمة بإخوته المؤمنين . وأنبه القارىء أن يقرأ تلك الكتب لابقصد الاعتراض والانتقاد أو التحسس والتجسس ، بل يقرأها ليذاكر إن كان عالما ، وليزداد إن كان طالبا ، وليتعلم إن كان مبتدئا . والله سبحانه أسأل أن يحيى قلوبنا ، ويمكّن لنا فى الأرض بالحق ، ويمنحنا السعادة الأبدية بالاستجابة لله ورسوله إنه مجيب الدعاء آمين .

الباب الأول

الإسلام دين الكمال الإنساني والسعادة الأبدية

الفصل الأول

بالإسلام نيل السعادتين

كل بنى الإنسان لو تجردوا عن الحظوظ الحاجبة للعقول عن إدراك الحق ، والأهواء التى تعمى عين البصيرة ؛ لتحققوا أن الإسلام هو الدين الحق الذى به سعادة الدنيا والآخرة حِسًّا وعيانا . وذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان نوعا وسطا بين عوالم الملائكة والحيوانات ، ووهب له العقل الذى يعقل عنه سبحانه ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه تقدست ذاته . خلق سبحانه آدم على صورته سميعا بصيرا متكلما مؤهلا لتلقى العلم مريدا ، وجعله خليفة فى الأرض ، ومنحه سبحانه عيونا فى قلبه يبصر بها أسرار الغيب من الآيات المنبلجة فى الآثار ، وفطره على الدين ، فلا ترى فردا من أفراد بنى الإنسان إلا وهو يخنع لقوة يسميها (الله) ، اهتدى إلى الطريق الموصل للحق فيها من هداهم الله ، وأخطأ طريق معرفته من حجبهم الله ، قال تعالى : (مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا)(١) خلق الله الإنسان ليُشهده غرائب قدرته فى مكوناته بما جعل له من النور فى قلبه ، ويكاشفه بعجائب حكمته فى آياته بما منحه من نور الفكرة ، وجعل له قوة يحكم بها ، وأعده لنيل الكمالات الروحانية أو ارتكاب النقائص الشيطانية ، قال تعالى : (وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ)(٢) وقال تعالى : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُورًا)(٣) وقال ﷺ : « ٱعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقُ له »(٤) .

---

(١) سورة الكهف آية ١٧

(٢) سورة البلد آية ١٠

(٣) سورة الإنسان آية ٣

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب القدر ٤ ، ومسلم قدر ٦ ، ٧ ، ٨ والترمذى قدر ٣ ، وأحمد بن حنبل ٤ / ٦٧ ، وعند أحمد من رواية أخرى : « فاعمل يا ابن الخطاب فإن كلا ميسر » ومسند الإمام أحمد ٢ / ٧٧ .

سر الحكمة العالية لعمل الإنسان :

فطره سبحانه مضطرا مفتقرا محتاجا إلى المعاونة ، وأحاطه سبحانه بكنوز من الخيرات والبركات،وجعل سبحانه مفاتيحها العمل والفكر، لا لحاجة منه سبحانه إلى عمل الإنسان وهو الغَنِيُّ ، ولكنها حكمة عالية . سِرُّها قيام الإنسان بحقيقة الخلافة عن الرب تعالت ذاته ، وإظهار الأسرار المنطوية فى تلك الآثار لقلبه ، ليذوق من ذلك حلاوة الإيمان بكمال التوحيد ، و يشاهد من تلك الأسرار معانى تنزلات الأسماء والصفات ، و يترقى حتى يتحقق بالعجز المطلق عن إدراك كمالات الذات ، ولايكون فتح تلك الكنوز المحيطة بالانسان إلا بالعناء والعمل ، قال الله تعالى : (يَٰأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا)(١) فهذه الآية الشريفة تدل دلالة صريحة علَى أن عناء الإنسان وتعبه وكده وجده لحكمة التقرب من الله تعالى ، ولا يكون ذلك إلا بالفكر الناتج عن الذكر: ذكر الذكرى وتلقى الحكمة كما قال تعالى : (يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ)(٢) ففطرة الإنسان على الاضطرار والحاجة ، سرها فتح كنوز الخيرات والبركات له حسا ومعنى .

أنتجت الضرورة علم خواص الكائنات، وإظهار غوامض الآيات واليقين الحق لِعَلِىّ قدرة القادر وعَلِيِّ حكمة الحكيم . أنتجت تلك الضرورة الاحتياج إلى التعاون للتبادل ، الأمر المفضى بخراب العمران إذا لم يكن هناك شرع حافظ للقلوب من تقلبها فى الرذائل والجهالات بما به تزكية النفوس وخشية القلوب ، وحافظ للأبدان من تحركها للظلم والمفاسد ، ولايكون هذا الشرع بوضع مخلوق ، لأن كل ما وضعه المخلوق إنما يحكم على الأبدان ، لأن المخلوق بنفسه يجهل طرق تزكية النفس ، وعلم مبدئه ومعاده ، ولايعرف قدر الخير الذى يناله من أخيه ، ولكن همه فى جلب الخير لنفسه ودفع الشر عنها .

---

(١) سورة الانشقاق آية ٦ ــ ١٢

(٢) سورة آل عمران آية ١٩١

الأحكام الشرعية على قدر ضروريات الإنسان :

لما كان الإنسان فى أول نشأته منذ أبينا آدم عليه السلام قليل الضرورات،أوحى الله تعالى إليه بعد علم التوحيد مالا بُدَّ له منه ، ثم أخذ الإنسان تكثر ضروراته فأرسل الله الرسل بأحكام شرعية على قدر ضروريات الإنسان فى كل زمان ومكان . ومن قرأ القرآن الشريف وقرأ أسفار الأنبياء فى التوراة يظهر له حقيقة ما قلت .

أرسل الله شيثاً عليه السلام بما يناسب زمانه . ثم أرسل سيدنا نوحا بتوحيد الله وعبادته لما كانوا عليه من عبادة الأوثان . ثم أرسل سيدنا لوطا عليه السلام لينذرهم عاقبة فعل الفاحشة . ثم أرسل سيدنا صالحا عليه الصلاة والسلام ليعلمهم العدل والمساواة ، وجعل الله الناقة له آية بعد أن أرسل سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليطهرهم من رجس الشرك و يوجههم إلى الله تعالى .

فلما أن أخذ الإنسان تكثر ضروراته وتشتاق نفسه إلى الكماليات،بعث الله سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو فرعون أوّلا إلى العدل والرحمة ومساواة جميع بنى الإنسان ببعضهم ، و يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته ، وأنزل الله عليه التوراة . ومن قرأ سفر التالوت فى التوراة تحقق قدر الأحكام الشرعية التى كان يحتاج إليها الإنسان فى هذا الزمان . ولما كان بنو إسرائيل يهتمون بأعمال الأبدان حتى فى زمان سيدنا موسى — ودليل ذلك أنهم اتخذوا العجل ليروه بأعينهم ، وزاد على ذلك أنهم جعلوا الدين وراء ظهورهم وأبدلوه بأهوائهم وحظوظهم — بعث الله سيدنا عيسى عليه السلام ليمحى تلك البدع التى ابتدعوها فى التوراة ، و ينبههم إلى عمل القلوب ، ويخفف عنهم أثقال الأعمال البدنية ، بما جاءهم به عليه السلام من الحكمة والبيان .

فكان كل رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام بعثه الله تعالى بخُلق من الأخلاق التى يحبها الله تعالى ، أو عمل من الأعمال التى يرضاها الله تعالى ، كما أرسل الله سيدنا شعيبا عليه السلام بخلق العدالة فى وفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم . فكان كل رسول ينتظر رسولا بعده ، حتى أراد الله تعالى أن يختم الرسالة بسيدنا ومولانا محمد ﷺ فأنزل عليه القرآن تبيانا لكل شيء من ضروريات الإنسان وكمالياته فى الدنيا ، وفضائله النفسانية وكمالاته الروحانية لنيل سعادة الأبد .

القرآن جامع لخير بنى الإنسان :

أنزل الله تعالى القرآن على حبيبه ومصطفاه ﷺ هدى ونورا مبينا جامعا لكل خير فى الدنيا والآخرة . نظر إليه العقل السليم من الحظوظ والأهواء نظرة إكبار وإعظام وتجلة وإكرام ، فتلقاه خاشعا خانعا فرحا مسرورا،موقنا أنه السعادة الحقيقية للإنسان والخير الحقيقى له .

أنزل الله تعالى القرآن بالعقائد الإلهية ، فلما تليت على العقل كشفت عنه ستائر الأوهام،وأزالت عنه سحب الجهالات ، و بثت فيه نور التوحيد الذى كان حائرا مترددا فيه لايهتدى إلى طريقة الوصول إليه ولا محجة القرب منه . أنزله سبحانه وتعالى بالأخلاق الطاهرة الفاضلة التى بالتجمل بها يسعد المجتمع الإنسانى فى الدنيا والآخرة من الرحمة بالْخَلْق ، والعاطفة عليهم ، وحسن رعايتهم والسعى فى نفعهم ، وجلب الخيرات لهم ودفع المضرات عنهم ، والبر والصلة والوفاء ، وإكرام الجار والضيف ، والرحمة بالحيوانات ، وغير ذلك من التخلق بأخلاق الله ، والتشبه بأخلاق الروحانيين سكان ملكوت الله ، حتى صار الإنسان إنسانا بصورته ومطعمه وضروراته ، وملكا كريما مقربا بعقيدته وأخلاقه .

العبادات والمعاملات لسعادة المجتمع الإنسانى :

أنزل القرآنَ سبحانه بالعبادات المحبوبة للأرواح من صلاة وصيام وزكاة وحج وذكر وفكر وجهاد للنفس وللعدو مما به تزكية النفوس من لَقَسِهَا ، وتطهيرها من نزوعها ، وتذكيرها بنعم الله و بعظمته وكبريائه وجلاله ، وشكراً لجناب المعطى الوهاب القادر الحكيم . أنزل الله تعالى القرآن بمعاملات ــ وماترك سبحانه صغيرة ولا كبيرة مما لابد للإنسان أن يعامل أخاه الإنسان فيها إلا أحصاها ــ ضمنت سعادة المجتمع الإنسانى فى الدنيا ، وراحته ووسعة البركات عليه ، وراحة قلبه من العناء وجسمه من البلاء . ضمنت التحابب والتآلف لكل بنى الإنسان لو تمسكوا بها ، وما من مجمل فى القرآن الشريف إلا

وفضّله لنا رسول الله ﷺ ، ولامبهم إلا و بيّنه صلوات الله وسلامه عليه . أنزل الله تعالى القرآن بأقاصيص الأولين وأخبار الماضين عبرة لأولى الألباب وذكرى لكل قلب منيب . أنزل الله تعالى القرآن منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب قَبِلَها العقل ، وقام عاملا بها ، وأُخر متشابهات ليعلم العقل أنه مخلوق عاجز عن درك الأسرار الإلٓهية إلا بالالتجاء إلى المعطى الوهاب ، والاعتراف بالعجز عن إدراك كمالات الخالق البارىء المصور، فكانت تلك الآيات المتشابهات نورا للعقول الكاملة ، وتزكية للنفوس الفاضلة ، بها كمل التوحيد بسر العجز عن إدراك معانى الآيات ، فكيف يمكن أن يدرك كمال منزل الآيات ؟ فدلنا القرآن و بيان رسول الله ﷺ أن القرآن خاتم الكتب ، وأن سيدنا ومولانا محمدا ﷺ خاتم الرسل ، لأن الله تعالى أنزل القرآن جامعاً لخير بنى الإنسان إلى قيام الساعة ، وأن سيدنا ومولانا محمدا ﷺ أرسله الله سبحانه وتعالى فبيّن للناس كل ما يحتاجون إليه من الأمور المتعلقة بكل فرد فى نفسه منفردا من الأحوال الشخصية ، ومع غيره من الأحوال الاجتماعية ، مما به كمال الإنسان الحقيقى ، والسعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

ولم يكن قبل القرآن قانون جامع لبعض ضرور يات الإنسان فضلا عن كمالياته إلا ما وجد فى سفر التالوت من التوراة مما يحتاج إليه أهل زمانه . وربما اعترض علىّ معترض فقال : إن للرومان قانونا من قبل عصر المسيح عليه السلام ، فأرد عليه قائلا : إن المواد المدونة فى الكتاب الذى تدعى أنه القانون الرومانى مأخوذ من مذهب مالك من بلاد الأندلس ، ولكن الذين ترجموه خدعوا الأمة بالتدليس وادعوا أنه قانون رومانى قديم . ومن قرأ صفحة من تار يخ الرومانيين يعلم أنهم كانوا أهل مدن فاسقة لأن العدل كان عندهم أن يذل القوى الضعيف لينتفع منه و ينفعه ، فكانت مدنهم مدنا ضالة لاشر يعة لهم إلا القوة ، ولو تأملت فى فتح المسلمين بلادهم وتحققت أن الأمم المحتلة بهم كانت تعين المسلمين على الرومانيين،لعلمت كيف كانت أحكامهم الجاهلية . فأين كان هذا القانون الذى ظهر عند ضعف الأندلس ؟ .

جاء عيسى عليه السلام فأمر الأغنياء بترك أموالهم ولم يلتفت إلى الدنيا بعين ، وفصل الدين عن الدنيا بكلمته التى قالها : « أعط لقيصر ما لقيصر وأعط لله ما لله » . لم يُعر

الأرحام نظرة صلة لأنه عليه الصلاة والسلام عندما جاءته أمه وأخوه يستأذنان عليه قال : أنا لا أمّ لى ولا أخ لى ، ثم نظر إلى تلاميذه وقال : أنتم أمى وأخى . ترك ما به بقاء العمران بحفظ النسل وهو الزواج . اهتم بالقلوب وترك الأبدان . قال : ما جئت لأهدم الناموس . ولكنه غض بصره عن كل الأحكام المتعلقة بالأبدان.وصدق، لأنه لم يهدم الناموس كله . فلو اقتدى به عليه الصلاة والسلام كل أهل الأرض اقتداء حقيقيا لأصبحت المدن صحارى قاحلة،وانمحت الصناعات والفنون والعلوم .

حتى بعث الله خاتم الرسل ﷺ فأعطى الجسم حقه والنفس حقها ، و بنى المساكن لنفسه ولأهله والمساجد لعبادة الله ، وتزوج ، وادخر الأموال لأهله ، وقضى بين الناس فى الحقوق والخصومات ، وزرع بيده ﷺ وحث على الزراعة ، و باع واشترى بنفسه وحث على التجارة . وكان يصنع لنفسه مالابد منه ، وحث على الصناعات . وكان ﷺ يتجمل للوفود بأجمل الحلل ، ويحب الطيب من المأكل والمشرب إذا يسره الله له من حلال طيب . وكان نظيفا يحب النظافة والجميل من كل شيء ، مع كمال تواضعه ﷺ ورضاه بالقليل من كل شيء . كل ذلك لأنه شمس مضيئة لجميع العالم ، ولأنه خاتم رسل الله ، بعثه الله بكل خير وفضيلة وهدى ورشاد . فلو تجردت العقول عما يعقلها عن الحق من عصبية للآباء وغرور بالسيادة والرياسة وطمع فيما يزول ، وطهرت من الجهالة لا نقادت لشرائع الإسلام ، ولما وسعها إلا أن تمحق من يمنعها عنه ولو كان أبا أو أما ، وما يمنعها عنه من ملك ومال . ولو أن بشاشة الإسلام باشرت القلوب لا تسعت وانشرحت الصدور ولم يبق من بنى الإنسان إنسان إلا وهو يدين بدين الإسلام . والله تعالى أسأل أن يمن على جماعة المسلمين بعناية تجمعهم ، ومعونة تؤلفهم ، ونور يزكى نفوسهم ، وقيادة يحبهم ويحبونه ، وأسأله سبحانه أن يظهر أنوار الإسلام بقوة المسلمين ، وأن يزيل البدع المُضِلَّةَ بنور اليقين ، وأن يحيى السنة ، و يعلى الكلمة ، إنه على كل شيء قدير ، و بالإجابة جدير .

النجاة بالمصطفى ﷺ فى الدنيا والآخرة :

إذا تقرر هذا ، وقد تقرر بالبرهان الساطع والحجة البينة ؛ ومعلوم أن الإنسان يهتم بنجاة نفسه وجلب السعادات لها ، و يعلم و يعتقد أنه لانجاة إلا بعمل قلبىّ و بدنىّ تنال به السعادة . وتقرر أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا مقصودين لذاتهم بل يقصدون لنيل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وأنفعهم لبنى الإنسان الرسول الكريم الحريص على خير الناس ، الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، الذى بعثه الله للناس عامة ، مبينا سبل النجاة ومناهج الخيرات ومحجة السعادة ، ظهرت أنوار وصاياه وأشرقت شمس الحقّ به ﷺ لجميع العالم . جاء بالعقيدة التى جعلت العقل يعقلها بأجلى برهان ، والقلب يطمئن بها ، والنفس تسكن إليها . محا الشرك ﷺ بحق اليقين بالواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . أنزل الله تعالى عليه القرآن مخاطبا له : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ)(١). (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ)(٢). وجعل أساس العقيدة أنه عبد صِرْفٌ لذات الله (سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ)(٣). (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ)(٤). وأنه لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله كما قال تعالى : (قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ)(٥). بشر به المسيح عليه السلام وثبت اسمه فى إنجيل يوحنا عندما سألوا يوحنا (يحيى عليه السلام) : أإيليا أنت ؟ قال : لا . المسيح أنت ؟ قال : لا . ألرسول أنت ؟ قال : لا . فثبت بنص الإنجيل أنه يأتى إيليا والمسيح والرسول ، وقال المسيح فى إنجيل برنابا : الرسول الذى يأتى من بعدى المسمى محمد هو الذى يدخل على الرب ، أتمنى أن أحمل حذاءه . والبشائر به ﷺ فى أسفار الأنبياء لاتحصى موضّحة اسمه ومحل مولده ومحل هجرته ﷺ ، وأنه من بنى عم إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق ، و بنو عمه أبناء سيدنا إسماعيل عليه السلام لأن إسماعيل عليه السلام عم يعقوب . ولست فى مقام إثبات البشائر به ﷺ ولكنى فى مقام إثبات النجاة به ﷺ فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٥
(٢) سورة المائدة آية ٤١
(٣) سورة الإسراء آية ١
(٤) سورة النجم آية ١٠
(٥) سورة الأعراف آية ١٨٨

أَسَّسَ الـدين على التوحيد الخالص من كل شائبة من شوائب الشرك ، مُنَزِّها ذات الله عن الـشبيه والنظير والضد والند والولد والوالد والوالدة ، وأنه ﷺ عبدالله ورسول الله ﷺ سر قوله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)(١) وهى حقيقة النجاة وسر مساواة بنى الإنسان . ولو نظرنا إلى الأديان الأخرى لوجدنا هذا الأساس الحقيقى وهذا النور المبين الذى هو العقيدة فى الأديان الأخرى ينفر منه العقل السليم وتأباه النفس الزكية . وكيف لا وقد جعل بعضهم الشمس إلـهاً أو النجم إلـها أو جعل للإلـه ولدا أو شريكا تنزه وتعالى . ومنهم من جعله ثالث ثلاثة،أو جعله مركبا من ثلاثة حكما على الغائب بالمشهود ، تعالى الله علوا كبيراً .

فانظر أيها العاقل بعين تنجو بها من هاوية الجهل بربك ، ومن أليم عذاب الشرك به سبحانه ، ومن جحيم الجحود به تنزه وتعالى ، واعتقد أن هذا الرسول النبى الأمى رءوف رحيم بك حريص على خيراتك . دعاك للنجاة بعاطفة أبوة ورحمة وحنانة. جاءك بما يقبله عقلك و يطمئن به قلبك و ينشرح به صدرك . لم يجعل نفسه إلـها ولا من الإلـه ولا حل فيه الإلـه ، بل قال أنا عبد (لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ)(٢). كثيرا ما بكى رحمة ببنى الإنسان . وكم تحمل الأذية شفقة على بنى الإنسان . لم يَدْعُ على قومه كما دعا السابقون على أممهم فأغرقهم الله فى اليمّ أو فى الطوفان ، أو خسف بهم الأرض ، أو مزقهم شيعا ، أو أهلكهم بالطاعون كما حصل من الرسل السابقين قبله ، ولكنه رحمة حقيقية ورأفة وحنان ، حريص على نجاة العالم أجمع .

وما عليك أيها المعاند لو أنك جردت نفسك لحظة من العصبية ، ومن الحظ الذى يعمى البصيرة ، ومن الهوى الذى يطمس معالم السر ، وبحثت عن نجاتك الحقيقية لتستدل عليها عقلا وفكرا ؟ وما عليك أيها الإنسان إلا أن تنظر إلى الأساس الأول وهو العقيدة ، وإلى الأساس الثانى وهو تزكية النفوس وتطهيرها بالإخلاص فى العبادة والفكر والصدق فى المعاملة والرحمة ببنى نوعك، وإنى على يقين أيها الإنسان العاقل أنك إذا أعرت هذا الأمر

---

(١) سورة الإخلاص

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨

نظرة عقلية لعلمت أن هذا السيد الرءوف الرحيم ﷺ يجب الاقتداء به والعمل بوصاياه والتصديق بما جاء به،ولا تظن أنى أقول لك هذا عصبية لديني.لاومن فلق الحب والنوى . إنما ذلك بعد نظر واستدلال و بيان و برهان . حتى انبلج الحق جليا . وظهر النور مضيا . فلا تجعل نصيحتى عداوة و بغضا ، وإرشادى لك أيها الإنسان خصومة وغيا . أرشدنى الله وإياك لما به النجاة الحقيقية ، وهدانى وإياك الهداية الحقيقية .

الوصايا الإسلامية

أنبه فكرك — أيها الناظر بنور قلبك ، المسترشد بنور فكرك ، الناظر بعيون عقلك — إلى نذر يسير من الوصايا القرآنية والإرشادات النبوية لتذوق طهور العلم ، وتتجمل بالكمالات الإنسانية التى تفوز بها بالسعادة الأبدية والفوز فى الدنيا والآخرة . وإليك ما ورد من الآيات الدالة على الحث على مكارم الأخلاق والجد والعمل للدنيا والآخرة،والأحاديث النبوية الدالة على ذلك .

الإخلاص لله والإحسان بالوالدين والقربى :

قال تعالى : (وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)(١) وقال تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ

(١) سورة النساء آية ٣٦

شَيْئاً وبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)(١). وقال جلت قدرته : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)(٢) وقال سبحانه : (وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَى حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)(٣). وقال تعالى : (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)(٤). هذه وصايا الله سبحانه وتعالى فى الإخلاص فى عبادته سبحانه ، وبر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى الجيران والرحمة بالخلق أجمعين ، تلوح منها أنوار الشفقة الإلهية وأسرار العواطف الربانية وسوابغ المنن ، إذا تحقق العبد أن ربه سبحانه وتعالى بَرٌّ يحب البار، وهّاب يحب الواصل لرحمه ، عطوف رءوف ودود محسن يحب من تخلق بأخلاقه سبحانه ، وتحقق العبد أن ذلك موجب لمزيد فضله وواسع نعماه فى الدنيا ونيل الفوز والسعادة الأبدية من ربه سبحانه فى الآخرة ، اشتاق إلى تلك المعانى وجاهد نفسه حتى يتجمل بتلك الصفات رغبة فيما عند الله ، وعملا بما أمر الله ، وحبا فى الفضيلة وحسن الأحدوثة فى الدنيا .

وقال رسول الله ﷺ :(إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ ٱلْأُمَّهَاتِ ، وَوَأْدَ ٱلْبَنَاتِ ، وَمَنَعَ وَهَاتِ ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ ٱلسُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ ٱلْمَالِ)(٥) وقال ﷺ : (الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ : مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ ٱللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ ٱللَّهُ)(٦) وقال ﷺ :

---

(١) سورة الأنعام ١٥١

(٢) سورة الإسراء آية ٢٣ ــ ٢٤

(٣) سورة الإسراء آية ٢٦

(٤) سورة لقمان آية ١٤ ــ ١٥

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الرق : ٢٢ ، والاعتصام : ٣ ؛ وعند أحمد بن حنبل : « لعن الله من عق والديه » المسند ١ / ٣١٧ .

(٦) أخرجه مسلم فى كتاب البر: ١٧ ، وأحمد ٦ / ١٩٠ ــ ١٩٣ ــ ٢٠٩ .

(لَيْسَ الواصِلُ بالمُكَافِئِ ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِى إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا) (١) وقال ﷺ : (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) (٢) وقال ﷺ : (لاَيَرُدُّ الْقَدَرَ إلا الدُّعَاءُ ، وَلاَيَزِيدُ فِى الْعُمُرِ إِلاَّ الْبِرُّ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ) (٣) .

تناول أيها الإنسان العاقل من هذا الشراب ، وتحقق أن تلك الوصايا النبوية هى معارجُ للسعادة ومنازلُ للفوز ، واشكر الله على نعمته العظمى علينا بسيدنا ومولانا محمد ﷺ ، وسارع إلى نجاة نفسك بالعمل بوصاياه ﷺ .

الحث على طلب الكسب الحلال :

قال الله تعالى : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) (٤) وقال سبحانه وتعالى : (فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ) (٥) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (٦) وقال ﷺ : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَن يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدَيْه وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ) (٧) وقال ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب : ١٥ ، وأبو داود فى كتاب الزكاة ٤٥ ، والترمذى فى البر ١٠٠ ، وأحمد بن حنبل ٢/ ١٦٣ ، ١٩٣ ، ١٠٠ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب البر: ٥٥ ، وأبوداود فى الرق : ٤٧ ، وأحمد بن حنبل ١٥٣/٥ ، ١٥٨ ، ١٧٧ وعند أبى داود : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب القدر: ٦ ، وابن ماجه فى المقدمة ، والفتن : ٢٢ ، وأحمد بن حنبل ٢٧٧/٥.

(٤) سورة الجمعة آية ١٠

(٥) سورة الملك آية ١٥

(٦) سورة البقرة آية ١٧٢

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع : ١٥ ، وعند ابن ماجه بلفظ : « ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده » ، ابن ماجه تجارات ١/ ٣٥.

طَيِّباً)(١) وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : (يَاأَيُّهاَ الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)(٢) وقال سبحانه : (يَاأَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُوا كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ)(٣) ثم ذكر الرجل يطيل السفر (أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَارَبُّ يَارَبُّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّىَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) وقال ﷺ : (يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زمانٌ لاَيُبَالِى الْمَرْءِ مَاأخذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ)(٤) وقال عليه الصلاة والسلام : (الْحَلاَلُ بَيِّنٌ والْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَ بَيْنَهُمَا أُمُورٌمُشْتَبَهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌمِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِه وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِى الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِى الْحَرَامِ كَالرَّاعِى يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، أَلاَ وَ إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ وَ إِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ) (٥) وقال صلوات الله وسلامه عليه : (إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُم مِنْ كَسْبِكُمْ ، وَإِنَّ أَوْلاَدَكُم مِنْ كَسْبِكُمْ) (٦) وفى رواية : (إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ و إِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ) عن عطية السعدى رضى الله عنه أنه قال : قال النبى ﷺ : (لاَيَبْلُغُ الْعَبْدُ أن يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَالاَ بَأسَ بِهِ حَذراً مِمَّا بِهِ بَأْسٌ) (٧)

وصايا الأخلاق :

قال الله تعالى : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَنِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ولاَ تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ولاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(٨) وقال تعالى : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة : ٦٤ ، ٦٥ . والترمذى فى كتاب التفسير سورة ٢/٣٦ وأدب ٤١٠ ، والدارمى فى كتاب الرق : ٩ ، وأحمد ٢/٣٢٨ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٥١

(٣) سورة البقرة آية ١٧٢

(٤) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ٧٣ ، ٧٩ .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع ، الإيمان ، ومسلم فى المساقاة ، وأبوداود فى البيوع .

(٦) أخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات ، وأحمد ٦/١٦٢ ، وعند النسائى بلفظ « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » النسائى بيوع .

(٧) عند البخارى بلفظ : « لايبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لابأس به حذرا مما به بأس » .

(٨) سورة الحجرات آية ١١ .

بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يزكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَلاَيَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنكُم وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(١) وقال تعالى : (قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِين لاَيَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)(٢) وقال تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)(٣) وقال تعالى : (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)(٤) وقال جل شأنه : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)(٥) وقال سبحانه وتعالى : (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)(٦) وقال جلت قدرته : (وَجَزَاؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)(٧) وقال تعالى : (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)(٨) وقال سبحانه وتعالى : (وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(٩) وقال جل جلاله : (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ)(١٠) وقال تعالى : (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا)(١١). وقال ﷺ : (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى)(١٢). وقال ﷺ : إِنَّ رَجُلاً كَانَ فِيمَن قَبْلَكُمْ أَتَاهُ الْمَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ فَقِيلَ لَهُ : هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ : مَا أَعْلَمُ ، قِيلَ لَهُ : انْظُرْ ، قَالَ : مَا أَعْلَمُ شَيْئاً غَيْرَ أَنِّي كُنتُ

---

(١) سورة النور آية ٢١ ــ ٢٢
(٢) سورة الجاثية آية ١٤
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩
(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩
(٥) سورة آل عمران آية ١٣٣ ــ ١٣٤
(٦) سورة المائدة آية ٢
(٧) سورة الشورى آية ٤٠
(٨) سورة فصلت آية ٣٤
(٩) سورة القصص آية ٧٧
(١٠) سورة الحج آية ٤١
(١١) سورة آل عمران آية ١٠٣

(١٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ، وأبو داود في الوتر ، والترمذي في القيامة ، وابن ماجه في الإقامة ، والتجارات ، وأحمد ٤٦٣/١ ، ٤٣٦/٢ .

أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وأجَازِيهِمْ فَأُنظِرُ الْمُوسِرَ وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ، فأدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ)(١) عن جرير بن عبدالله رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَن لَا يَرْحَمُ النَّاسَ)(٢) وقال ﷺ: (السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ والْمِسْكِينِ كَالسَّاعِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وأَحْسَبُهُ قال: كَالقَائِمِ لَا يَفْتُرُ وَكَالصَّائِمِ لا يُفْطِرُ) (٣).

وقال ﷺ: (أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ لَهُ وَلِغَيْرِهِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا،وأشار بالسَّبَّابَة وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئاً)(٤) . وقال عليه الصلاة والسلام: (الْمُؤمِنُ لِلْمُؤمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً،ثم شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابعِهِ)(٥) . وقال ﷺ: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً،فَقَالَ رَجُل: يَارَسُولَ الله أَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ: تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ)(٦) وَقَالَ ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُه ، التَّقْوَى هَاهُنَا « وَ يُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّات » بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)(٧) . وقال ﷺ: (مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)(٨). عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَ يُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مالَا يُعْطِي عَلَى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ، وعند أحمد بلفظ « أتاه الملك ليقبض نفسه » مسند أحمد ٣٩٥/٥ .

(٢) وعند الطبرانى عن ابن مسعود « من لم يرحم الناس لايرحمه الله » مجمع الزوائد ١٨٧/٨ .

(٣) وعند الترمذى بلفظ « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو كالذى يصوم النهار و يقوم الليل » صحيح الترمذى ٨ / ١٤٦ وفى مجمع الزوائد ٨ / ١٦٠ عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم كهاتين ، وجمع بين السبابة والوسطى ، والساعى على اليتيم والأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله والصائم القائم لا يفتر » رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الطلاق ، والأدب ، ومسلم فى الزهد ، وأبوداود فى الأدب ، والترمذى فى البر ، الموطأ شعر ، وأحمد ٣٧٥/٢ ، ٣٣٣/٥ .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ، والمظالم ، ومسلم فى البر ، والترمذى فى البر ، والنسائى فى الزكاة ، وأحمد ٤٠٥/٤ ، ٤٠٩ .

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب المظالم ، والإكراه ، والترمذى فى الفتن ، والدارمى فى الرق ، وأحمد بن حنبل ٩٩/٣ ، ٢٠١ فى كتاب الإكراه ، ومسلم فى البر ، والترمذى فى البر .

(٧) أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند ٦٨/٢ ، ٣٧٧ ، ٩١/٣ والبخارى .

(٨) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، ومسلم فى البر ، وأبوداود فى الأدب ، وابن ماجه فى الأدب ، وأحمد ٨٥/٢ ، ٣٢/٥ .

العُنف، وَمَا لا يُعطِي عَلَى مَاسِواهُ) (١). وقال: (مَن يُحْرَم الرِّفْقَ يُحْرَم الْخَيْرَ) (٢). وقال: (إنَّ الْحيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ) (٣). وقال: (الْحَيَاءُ لاَ يَأتي إلاَّ بِخَيْرٍ) (٤). عن نُوَاسَ بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم فقال: (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، والإثْمُ مَا حَاكَ في صَدْرِكَ وَكَرِهتَ أن يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)(٥). وقال ﷺ: إنَّ مِنْ أحَبِّكُمْ إلَيَّ أحْسَنُكُمْ أَخْلاقاً)(٦) وقال ﷺ: (مَنْ أُعطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرَى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِن الرِّفْقِ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرَى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)(٧) عن أسامة بن شريك قال: قالوا: يَارَسُولَ اللَّهِ مَا خَيْرُمَا أُعْطِيَ الإنْسَانُ؟ قال: (الْخُلُقُ الْحَسَنُ). وقال ﷺ: (إنَّ أَثْقَلَ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُلُقٌ حَسَنٌ، وإنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الفَاحِشَ الْبَذِيَّ)(٨) وقال ﷺ: (ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَن يَحْرُمُ عَلَى النَّار وَبِمَن تَحْرَمُ النَّارُ عَلَيْهِ، عَلَى كُلِّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قريب سَهْلٍ)(٩) وقال ﷺ: (الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجَمَلِ الأنِف، إنْ قِيدَ انقَادَ وَإنْ أُنِيخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ)(١٠) وقال ﷺ: (مَن كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَن يُنفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ في أيِّ الْحُورِ شَاءَ)(١١).

---

(١) عند البخارى فى كتاب الاستتابة، والاستئذان، والدعوات، ومسلم فى البر، والترمذى فى الاستئذان، وابن ماجه فى الأدب، والدارمى فى الرق، والموطأ لمالك بلفظ: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»، وعند أبى داود فى كتاب الأدب بلفظ: «يحب الرفق و يعطى عليه مالا يعطى على العنف».

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر، وأبوداود فى الأدب، والترمذى فى البر، وابن ماجه فى الأدب، وأحمد ٣٦٢/٤، ٣٦٦.

(٣) أخرجه البخارى فى كتابى الإيمان والأدب، ومسلم فى الإيمان، وأبو داود فى السنن، والترمذى فى البر والإيمان، والنسائى فى الإيمان، وابن ماجه فى المقدمة، والزهد، ومالك فى الموطأ فى حسن الخلق، وأحمد ٥٦/٢، ١٤٧.

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب، ومسلم فى الإيمان.

(٥) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد. ومسلم فى البر، والدارمى فى الرق، وأحمد ٢٨٢/٤.

(٦) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة، والمناقب، والترمذى فى البر، وأحمد فى المسند ١٩٣/٤، ١٩٤. وعند أحمد من رواية أخرى: «إن أحبكم إلى محاسنكم أخلاقا».

(٧) عند الترمذى وأحمد: «من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير»، سنن الترمذى فى كتاب البر، ومسند أحمد ١٥٩/٦، ٤٥١.

(٨) أخرجه الترمذى فى كتاب البر، وأحمد ١٦٢/٢، ١٩٩.

(٩) عند الترمذى فى باب القيامة: «تحرم النار على كل قريب هين سهل» وعند أحمد «حرم على النار كل هين»، ومسند أحمد ٤١٥/١.

(١٠) عند ابن ماجه فى المقدمة، وأحمد فى المسند ١٤٦/٤ بلفظ «إنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد اقتيد أو انقاد». وفى رواية مسلم «...فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده».

(١١) أخرجه أبوداود فى الأدب، والترمذى فى البر، والقيامة، وابن ماجه فى الزهد، وأحمد فى المسند ٤٣٨/٣، ٤٨٠.

أَيَـارِفْـقَـتِـي يَـاخِلَّـتِي يَـاأَحِبَّتِـي　　عَلَى الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى فَسِيرُوا وَارْتَقُوا

أَلَا فَـاجْتِمَاعًا بِالْقُلُوبِ وَأُلْفَةً　　وَعَوْنًا عَلَى عَمَلِ الْمَكَارِمِ تُلْحَقُوا

وَإِيَّاكُمُو أَخْلَاقَ إِبْلِيسَ إِنَّهَا　　لَقَدْ أَبْعَدَتْهُ وَهْوَ طَاوُوسٌ رَامِقُ

دَعُوا الْكِبْرَ وَالْحَسَدَ الْقَبِيحَيْنِ سَادَتِي　　دَعُوا طَمَعًا فِيمَا يَزُولُ ، وَسَابِقُوا

وَسَتْرًا لِعَوْرَاتِ الْأَحِبَّةِ كُلِّهِمْ　　وَعَفْوًا عَنِ الزَّلَّاتِ ، فَالْعَفْوُ أَرْفَقُ

وَغُضُّوا عَنِ الْمَكْرُوهِ أَعْيُنَ عِفَّةٍ　　وَجُودُوا بِبِشْرٍ ، فَالسَّمَاحَةُ رَوْنَقُ

وَإِيَّاكُمُو وَعَدُوَّكُمْ سُوءَ خُلْقِكُمْ　　وَطَمَعًا ، وَحُبَّ الْجَاهِ فَهْوَ يُفَرِّقُ

تَوَادُّوا بِرُوحِ اللَّهِ بِاللَّهِ وَابْذُلُوا　　لِإِخْوَانِكُمْ عِنْدَ اللُّزُومِ وَخَالِقُوا

وَكُفُّوا عَنِ التَّنْفِيرِ وَاسْعَوْا لِجَمْعِكُمْ　　عَلَى اللَّهِ فَالدُّنْيَا مَتَاعٌ مُفَارِقُ

أَلَا مَنْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ بَعْضُ ذَرَّةٍ　　مِنَ الْكِبْرِ وَالْأَحْقَادِ مَاهُوَ ذَائِقُ

أَلَا طَهِّرِ الْأَخْلَاقَ وَالنَّفْسَ زَكِّهَا　　وَإِلَّا فَسَهْمُ الْبُعْدِ يَرْمِي فَيَفْتِقُ

أَلَا يَاأَخِي بِالذُّلِّ تَرْقَى وَتُرْفَعَنْ　　وَبِالزُّهْدِ تُعْطَى مَالَهُ تَتَشَوَّقُ

تَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِ الْإِلَٰهِ وَحَافِظَنْ　　عَلَى مَنْهَجِ الْمُختار في العقْدِ تُنْسَقُ

وَدَعْ عَنْكَ مَيْلًا لِلْحَضِيضِ وَزِينَةً　　بِهَا اشْتَغَلَ اللَّاهُونَ عَنْهُ وَفَارَقُوا

وَقُمْ دَاعِيًا لِلَّهِ بِالحكمةِ الَّتِي　　بِهَا قَدْ حَبَاكَ اللَّهُ وَهْوَ الْمُوَفِّقُ

وَلَا تَسْعَ لِلتَّفْرِيقِ وَاجْمَعْ لَهُ بِهِ　　عَلَيْهِ أُولِي التَّسْلِيمِ إِذْ أَنْتَ وَاثِقُ

أَلَا سَارِعُوا أَحْيُوا لِسُنَّةِ أَحْمَدٍ　　فَفِتْنَةُ هَذَا الْعَصْرِ كَالنَّارِ تَحْرِقُ

أَلَا أَطْفِئُوهَا بِالْيَقِينِ تَجَرَّدُوا　　عَنِ الْحَظِّ وَالْأَهْوَاءِ فَالْحَظُّ مُفَرِّقُ

وَجِدُّوا وَجُودُوا بِالنُّفُوسِ تَحَفُّظًا　　عَلَى السُّنَّةِ الْغَرَّاءِ فَاللَّهُ خَالِقُ

أَلَا بِعْتُمُو لِلَّهِ مَالًا وَأَنْفُسًا　　بِمَفْهُومِ (إِنَّ اللَّهَ)(١) وَالذِّكْرُ يَنْطِقُ

وَعِلْمًا بِأَنَّ الدِّينَ حُسْنُ عَقِيدَةٍ　　وَخُلْقٍ وَأَعْمَالٍ بِهَا الذِّكْرُ نَاطِقُ

أَلَا خَلِّصُوا الْأَرْوَاحَ مِنْ سِجْنِ نَأْيِهَا　　وَجِدُّوا لِتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَسَابِقُوا

أَلَا جَاهِدُوا تِلْكَ النُّفُوسَ بِهِمَّةٍ　　تَفُوزُوا بِرِضْوَانٍ مِنَ النَّارِ تُعْتَقُوا

عَلَى سُنَّةِ الْمُخْتَارِ سِيرُوا بِهِمَّةٍ　　عَسَى اللَّهُ يُحْيِينَا بِهِ وَيُوَفِّقُ

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...) الآية ...(سورة التوبة آية ١١١) .

وَ يَمْحُو بِنَا الْبِدَعَ الَّتِي عَمَّ نَشْرُهَا لِيُشْرِقَ شَمْسَ الدِّينِ والشَّرْقُ مَشْرِقُ
أَلا فابغضُوا مَنْ أكَّد اللهُ بُغْضَهُ أحِبُّوا بِحُبِّ اللهِ والحظَّ فَارِقُوا
أَلا فاحفَظُوا الأرْكَانَ أرْكَانَ دِينِنَا صَلاةً صِيَامًا ثُمَّ حَجًّا تَصَدَّقُوا
أدِيمُوا لِذِكْرِ اللَّهِ فَالذِّكْرُ نُورُهُ لِأَهْلِ الْهُدَى ، وَالْغَيَّ لاَشَكَّ فَارِقُوا
أَلا عَظِّمُوا لِشَعَائِرِ اللَّهِ تَعْظُمُوا بِهَا وَتَسُودُوا فِي الْقِيَامَةِ تَسْبِقُوا

الوصايا بالوفاء وغيره من الفضائل الشرعية:

قال تعالى: (رَبُّكُم أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّٰبِينَ غَفُورًا وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَ ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيراً وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَٰناً فَلاَ يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً وَلاَ تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً)(١) وقال تعالى: (يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لاَيُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ)(٢) وقال سبحانه وتعالى: (يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ)(٣) وقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٥ — ٣٨

(٢) سورة لقمان آية ١٧ — ١٩

(٣) أول سورة المائدة

وَٱلَّذِينَ هُمْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ)(١) وقال جل جلاله : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)(٢) وقال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)(٣) وقال تعالى : (وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)(٤) وقال ﷺ : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصاً ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إذا أُؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)(٥) عن صفوان بن عسّال رضى الله عنه قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى ، فقال له صاحبه : لا تقل نبى إنه لو سمعك كان له أربع

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٧ — ٦١

(٢) سورة النساء آية ٥٨

(٣) سورة النحل آية ٩٠ — ٩١

(٤) سورة الفرقان آية ٦٣ — ٧٦

(٥) أخرجه البخارى فى الإيمان والشهادات والوصايا والمظالم والجزية والأدب ، وأبوداود فى كتاب السنة ، والترمذى فى الإيمان ، والنسائى فى الإيمان ، وأحمد فى المسند ٢/ ١٨٩ ، ١٩٨ .

أعين ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات فقال لهما رسول الله ﷺ : (لاَ تُشْركُوا بِاللَّهِ شَيْئاً ، وَلاَ تَسْرِقُوا ، وَلاَ تَزْنُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ تَمْشُوا بِبَرِئٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ ، وَلاَ تَسْحِرُوا ، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا ، وَلاَ تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً ، وَلاَ تُوَلُوا الْفِرَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ . وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً الْيَهُودَ أَن لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ). قَالَ : فَقَبَّلاَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَقَالاَ : نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ ، قَالَ : (فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَن تَتَّبِعُونِي ؟) قَالاَ : إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَن لاَيَزَالُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ وإِنَّا نَخَافُ إِن اتَّبَعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ) وَقَالَ ﷺ : (ثَلاَثٌ مِنْ أَصْلِ الإِيمَانِ : الْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ لاَ نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ وَلاَ نُخْرِجُهُ مِنَ الإِسْلاَمِ بِعَمَلٍ ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لاَيُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ وَلاَ عَدْلُ عَادِلٍ ، وَالإِيمَانُ بِالأَقْدَارِ)(١).

هذه نماذج من وصايا الله سبحانه وتعالى ووصايا رسول الله ﷺ ، وهى قطرة من المحيط الأعظم جعلتها نوراً لقلبك و برهانا لعقلك ، وهداية لنفسك ، لتعلم حقّ يقين أن الدِّين الإسلامى هو دين الله حقّا الذى خلق الخلق بقدرته ، وجعل الإنسان وسطا بحكمته ، وأهّلَهُ لأن يكون فى أعلى عِلِّيِّين باتباع وصاياه . أو فى أسفل سافلين بمخالفة أمره ومعصية رسله صلوات الله وسلامه عليهم . كتبت لك هذه القطرة من البحر اللُّجِّيِّ لتعلم حق العلم أن تلك الوصايا والحكم دالة على الخير الحقيقى موصلة إلى السعادة الأبدية ، بها سعادة المجتمع الإنسانى، و باتباعها الفوز بالرضوان الأكبر من الله تعالى . وأن تلك الوصايا والحكم جامعة لخير الإنسان منفردا ومجتمعا فى كل أنواع المجتمعات . وهى كُلِّيَّات تضمَّنت كل جزئيات العادات الحسنة ، والأخلاق الفاضلة ، والمعاملة العادلة ، وَشِيَم النفوس الكريمة ، وأعمال القلوب الخالصة لله تعالى من عقائد ونوايا وَقُرَب وخشية وصدق وإخلاص و يقين وطمأنينة وَرَوِيَّة .

فلعلك أيها الأخ أن تجذبك يد العناية بما شَهِدْتَ من تلك الآيات البينات والأحكام المحكمات ، فتتجمَّل بهذا الجمال الإسلامى وتتحصن بحصون الأمن المنيعة ، حتى تُحْفَظَ من عذاب ضميرك برذائل النفس ، وأليم العذاب يوم الحساب من اعتقاد العقائد الباطلة ،

---

(١) أخرجه أبوداود فى كتاب الجهاد .

والسقوط فى هاوية الجحيم بالأعمال المهلكة ، وإنما ذلك رغبة فى سعادتك وحبا فى خيرك . وكيف لا ، والدين يأمرنى أن أرحم كل ذى كبد رطبة ، فشفقتى على الإنسان واجبة علىّ كشفقتى على نفسى ، والله سبحانه وتعالى يجعل لى قسطا من الخير ، ويمنحنى الإخلاص فى إرادة الخير والرحمة لجميع الناس ، ويمنح قارئ هذا المختصر نور هداية وقبول ، إنه على كل شىء قدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصـــل الثـــانى
تأثير الإسلام على الإنسان

من هو الإنسان الذى أريده ؟

قبل شرح هذا الموضوع أقدم مقدمة أبين فيها من هو الإنسان الذى أريده : لا أريد بالإنسان الهيكل المعتدل القامة العريض الأظفار الذى يمشى على رجلين ، لأنى سبق لى عند التكلم على درجات تكوين الإنسان الإشارة إلى سر الحكمة فى تطوره فى تلك المراتب كما قال سبحانه وتعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ)(١) وأشرنا إلى ما أودعه الله من القوى فى الإنسان ، فإنه سبحانه وتعالى قد جمع فى الإنسان قوى بسائط العالم ومركباته ، وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته ، فالإنسان من حيث أنه بوَسَاطة العالم حصل ، ومن أركانه وقواه أُوجد:هو العالَم . ومن حيث أنه صغر شكله وجميع مافيه :كالمختصر من الكتاب ، وهو الذى قُلِّلَ لفظه واستوفى معناه ، والإنسان هكذا هو إذا اعتبر بالعالم . ومن حيث أنه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو كالزبد من المخيض ، والدهن من السمسم ، فما من شيء إلا والإنسان يشبهه من وجه ، فإنه كالأركان من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وكالمعادن من حيث هو جسم . وكالنبات من حيث ما يتغذى و يتربى . وكالبهيمة من حيث ما يحس و يتوهم و يتخيل و يلتذ و يتألم وكالسبع من حيث ما يحرض و يغضب . وكالشيطان من حيث ما يغوى و يضل . وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى و يعبده و يطيعه. وكاللوح المحفوظ من حيث قد جعله الله مجمع الحِكَم التى كتبها فيه على سبيل الاختصار . فقد ذكر بعض الحكماء فى بدن الإنسان أربعة آلاف حكمة وفى نفسه قريبا من ذلك . وكالقلم من حيث ما يثبت بكلامه صور الأشياء فى قلوب الناس كما أن القلم يثبت الحكم فى اللوح المحفوظ . ولكون الإنسان من قوى مختلفة قال تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)(٢) أى مختلطة

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٢ ــ ١٤

(٢) سورة الإنسان آية ٢

من قوى أشياء مختلفة . ولكون العالم والإنسان متشابهين ، إذا اعتبرا ، قيل : الإنسان عَالَمٌ صغير، والْعَالَمُ إنسان كبيرٌ. ولذلك قال الله تعالى : (مَا خَلْقُكُم وَلاَ بَعْثُكُمْ إلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)(١) فأشار بالنفس الواحدة إلى ذات العالم .

ولما كان كل مركب من أشياء مختلفة يحصل باجتماعها معنى ليس بموجود فيها على انفرادها ، كالمركبات من الأدوية والأطعمة ، كذلك فى نفس الإنسان حصل معنى ليس فيه شيء من موجودات العالم ، وذلك المعنى هوما يختص به من خصائصه التى بها تميز عن غيره من هيئات له كانتصاب القامة وعرض الظفر،وانفعالات له كالضحك والحياء،وأفعال كتصور المعقولات وتعلم الصناعات واكتساب الأخلاق.فالإنسان المقصود فى موضوعى هذا هو الذى كملت فيه قوة التخيل والتصور والفكر والعقل،فإنه هوالإنسان القابل للكمالات النفسانية وهو المراد بشرح هذا الموضوع الجليل.وليس من كملت فيه قوة النزوع كالنبات ، أوقوة جلب الخير ودفع الضر عن نفسه كالحيوان ، فإنه ليس عندى بإنسان بمعناه الحقيقى سر قوله : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(٢) وقوله تعالى : (لَهُمْ قُلُوبٌ لاَيَفْقَهُونَ بهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ)(٣) فالإنسان هو المقصود من العالم كله ، لأن الله خلقه بعد خلق جميع الكائنات،فهو زبدة الموجودات وخلاصتها بحِكْمَةٍ عَلِيَّة تظهر لمن ذاق حلاوة قوله تعالى : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(٤) ومن تناول من طهور شراب : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)(٥) فالإنسان المقصود بالذات ، خلقه الله تعالى ليجمل به ملكوته الأعلى . خلقه على صورته . جمله بمعانى صفاته . أشهده بديع جماله . هو الإنسان المتخيل المتصور المفكر العاقل ، وماعداه فحيوان على صورة الإنسان أو أضل من ذلك لجهله بمبدئه ومعاده وغروره بعاجل حظه وهواه .

---

(١) سورة لقمان آية ٢٨

(٢) سورة الفرقان آية ٤٤

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٩

(٤) سورة البقرة آية ٣٠

(٥) سورة القمر آية ٥٤ ـ ٥٥

المـــقام الْعَــلِيُّ :

وهـنـا بـعـد أن عـلـمـت مـن أخاطب بعباراتى ، أشرح لك المقام وأكتفى بالتلويح عن التصريح و بالإجمال عن التفصيل لأنى أخاطب

ٱلْأَلْمَعِيَّ ٱلَّذِى يَظُنُّ بِكَ ٱلظَّنَّ ۞ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

معلوم أن الإنسان جمع الله فيه كما تقدم روحانيات العوالم العالية ، وخواص الأنواع الدانية من حيوانات ونباتات وقوى النفوس الإبليسية ، فهو وإن كان صغير الجسم عَالَمٌ كبير، قال تعالى : (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا)(١) فالإنسان إذا تكَمَّلَ بالكمال الحقيقى المؤهل له وقهرت نفسُه الملكيةُ (الناطقة) بقية القوى وسخرتها لجلب تلك الكمالات ، رَقِىَ على مراقى الْقُرْبِ حتى يصل إلى مقام تخدمه الملائكة المقربون ، و يواجهه رب العزة جل جلاله ، و يكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو المقام العلى الذى يتنافس فيه المتنافسون ، ويحن إليه العارفون ، وتتأله له الأرواح الكاملة والنفوس الطاهرة .

نتائج الجهل وإهمال التزكية :

فإذا أهمل تزكية نفسه انزوت تلك النفس الطاهرة الملكية ، وتسلطت بقية القوى على الإنسان ، فإن غلبت عليه النفس الإبليسية كان حسودا لجوجا جاحدا منكرا مفسدا متكبرا ، قال تعالى : (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ)(٢) أعماه الجهل والعياذ بالله عن فضل الله الذى يؤتيه من يشاء ، فظن لجهله أن عنصر النار خير من عنصر التراب وجهل الفضل الإلهى ، فكذلك الإنسان الجاهل المنقاد لقواه الإبليسية يهوى إلى حضيض الفتن والمقت كما قال الله تعالى توبيخا لمن أعماهم الجهل : (مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَ يَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ)(٣) وقال تعالى أيضا : (أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)(٤) .

---

(١) سورة النحل آية ١٢٠

(٢) سورة ص آية ٧٥ ــ ٧٨

(٣) سورة الفرقان آية ٧

(٤) سورة القمر آية ٢٤ ــ ٢٥

أعماهم الجهل عن شهود الفضل الإلّهي كما أعمى إمامهم إبليس عليه لعنة الله . فالإنسان يبلغ من الكمال النفساني الجسماني إلى أن يصير في مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمه الملائكة ، و يبلغ من النقصان وإهمال تزكية نفسه إلى أن يصير في هاو ية الجحيم مع إبليس الرجيم الذى سنّ له تلك الضلالة .

كمال الإنسان الحقيقي :

لا يكون كمال الإنسان الحقيقي إلا بقوة تؤثر عليه تأثير رغبة ورهبة ، و يكون التأثير حاصلا على جميع القوى قلبا وجوارحا و نفسا وعقلا وخيالا وتصورا وفكرا . والعاقل لو نظر بعين فكرته يتحقق جليا أن تلك المؤثرات الحقيقية لا تكون إلا من الخالق المصور القادر الحكيم . ونعم،فإن الله بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم الكتب كما قد منا بحسب كل زمان ومكان ، حتى أخذ الإنسان يشعر بكمال حقيقي وشرف ، فأرسل الله سيدنا ومولانا محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن طهورا للأرواح ، ونورا للعقول ، وجمالا للأفكار، وحياة للخيال ، فاقتبس العقل من وميض أنواره ما به سجد خانعا ، وتناولت الأرواح من طهور شرابه مابه قوى حنينها إلى عالمها ، واشتد ولهها إلى وطنها الأصلى ، فتكاد لشدة شوقها إلى عوالمها العالية أن تهدم هذا الهيكل فرارا إلى مجانسها من مفارقها ، وسبح الفكر في محيط الحياة فاغترف منه ما به فتق رتق الكائنات حتى أشرف على عوالم الملكوت الأعلى ، وصفا الخيال حتى تمثلت فيه حقيقة الآيات الدالة على خالص التوحيد فانتشل من أوحال الأوهام وشكوك الأهواء وريب الحظوظ . فكان القرآن خمرا للأرواح ، ونورا للعقول ، وروضا زاهرا للأفكار. وجمالا جليا للخيال . تألهت الأرواح بطهوره الصافى . اطمأنت القلوب ببيانه الوافى . انشرحت الصدور ببشائره اليقينية . أقبلت العقول خانعة لأنواره ، سجد الخيال إكبارا لجماله .

هذا تأثير القرآن على المؤهلين لرفيع الدرجات . عرجت به الأرواح إلى فسيح الملكوت ، ثم أشرقت على حظائر العزة ، ثم خشعت وخنعت عندما أشرقت أنوار الجبروت . أخى : إنما أتكلم على قدر ما شهدت وإنما هى قطرة فى فم عصفور من محيط أعظم من تلك الأسرار، وأستغفر الله ، بل هى قطرة صغيرة فى فم بعوضة من هذا المحيط الأعظم . اللهم

عفوك ومغفرتك . هذا قسط النفوس الطاهرة سر قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)(١) وسر قوله سبحانه وتعالى : (ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ)(٢)وسر قوله تعالى : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)(٣)وقوله سبحانه وتعالى : (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ)(٤)

وقوله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)(٥).

أنواع مدن الأرض عند نزول القرآن :

أخاطبك أيها الأخ على قدر ما يقبل عقلك ، وما يتمثله خيالك ، وما ينتقش فى لوح نفسك ، فإذا أنت قبلت كان لك حظ من تلك الأنوار وقسط وافر من تلك الأسرار، أنزل الله تعالى القرآن على أمة جاهلية ، لا أعنى العرب فقط ، ولكنى أقول إن كل مدن الأرض فى ذلك الزمان كانت بين مدن جاهلة أو مدن فاسقة أو مدن مبدّلة أو ضالة ، ولم يكن ثم فضيلة بمعناها ، إذ الأعمال الفاضلة قد تصدر عن القردة والخنازير والنسانيس والفيلة والنمل والنحل والجرذان أيضا ، ولكن لا نحكم أنها فضيلة وإنما هى أعمال إلهام فطرية ، وكذلك كانت الفضائل التى تصدر عن الإنسان إنما هى إلهامية فطرية ، لم يقصد بها تزكية للنفس ولا تصفية للخيال ولم تصدر عن روية بالفكر. وأنت أيها الأخ معى فى هذا حسا ومعنى لو جردت نفسك من حظك وهواك . ما هى المدن التى كانت قبل بعثة رسول الله ﷺ ؟

---

(١) سورة فصلت آية ٣٠ ــ ٣٢

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٥

(٤) سورة الأحزاب آية ٢٣ ــ ٢٤

(٥) سورة يونس آية ٦٢ ــ ٦٤

كانت بين مدن جاهلية عربا وعجما ، أو مدن مبدّلة نصارى ويهودا ، ولو أنك أثبت لى فضيلة بمعناها فى مدينة مّا لشخص مّا بالاستقراء لأجبتك أن تلك الفضيلة لم تصدر عن قلب مؤهل يريد الكمالات النفسانية ، عالم بقدر رتبته فى الوجود ومنزلته فى الكون ، متيقن بيوم الحساب راغب فى ملاذ الروح حقا ، عامل لخير بنى الإنسان .

نظرة إلى تلك المدن بعد شروق شمس القرآن :

ولكن انظر نظرة حكيم إلى تلك المدن بعد شروق تلك الشمس ، وتأمل كيف سرت فيها الروح الإلهية كما تسرى النار فى الخشب اليابس ، فنوعت الأفكار وطهرت النفوس وجملت الأخلاق وحسنت المعاملات وجعلت الإنسان أخا الإنسان . انظر كيف صار بلال الحبشى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وحارثة وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وأبورافع النوبى رضى الله عنهم أئمة هدى وشموس بيان وقادة المؤمنين ، وهم من تعلم نسبا وحسبا ومنزلة وقدرا . جاء الحق فمحق الباطل ، أصبحت التيجان تحت الأقدام ولابسوها عبيدا ، بم ذلك ؟ ولم ذلك ؟ أكِلُ الجواب إليك وأنبه فكرك إلى فهم قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)(١)

لم تقف أنوار الإسلام على التأثير على العقول والنفوس والخيال والبصائر، ولكنها أشرقت بمعنى أكمل ، فجعلت الزواجر والحدود حصونا مانعة للشر وأهله ، كابحة جماح أولى الطغيان ، ماحقة أهل الظلم والفساد ، اقرأ قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ)(٢) وقوله تعالى : (مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً)(٣) وقوله تعالى : (ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ)(٤) وقوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ)(٥) وقوله جلت قدرته : (ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ)(٦) وقوله

(١) سورة القصص آية ٥٩
(٢) سورة البقرة آية ١٧٩
(٣) سورة المائدة آية ٣٢
(٤) سورة المائدة آية ٤٥
(٥) سورة المائدة آية ٩٠
(٦) سورة النور آية ٢

(وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا) (١) نزل القرآن فجذب النفوس الطاهرة بما سنَّهُ لها من أنواع التزكية وما كاشفها به من النعيم المقيم الأبدى والفضل الواسع السرمدى ، وحظر على النفوس اللقسة بما جعله عقوبة لها فى الدنيا من الحدود والزواجر ، حتى كان التأثير بالقرآن على كل نفس ، فكانت روح القرآن النورانية سارية فى كل تلك الأرواح الكاملة والنفوس الطاهرة ، وسيوف القرآن الماضية مسلولة على الأعناق الطاغية والقلوب القاسية .

نزل القرآن لسعادة المجتمع ، لم يسل سيفا ليقهر الناس على اعتناقه ، وإنما ليزيل الفساد ويمحو أسباب التفرقة والعناد ، حتى أمرنا رسول الله ﷺ أن نعامل أهل الذمة بما نعامل به أنفسنا ، فكان سيف الإسلام رحمة لانقمة ، وسياطه نعمة لاشقاء ، وآلامه لذة لاعناء ، فكيف يكون حال المجتمع الإنسانى إن لم يغثه الله بتلك الرحمة الواسعة ؟ أَكِلُ الجواب إليك أيها القارئ الحكيم . لا أبعد بك . هذه سِيَرُ أئمته وأخبار علمائه وأعمال رجاله لم تمح من صحف التاريخ ، وهذه آيات القرآن شموس مشرقة لم يعتورها تبديل ولا تغيير ، ولم يذهب جماله العلى تأويل وتفسير ، فجرد نفسك من عصبيتك وحظك وهواك ، واقرأ متأملا ، وفكر متدبرا ، وتناول من هذا الطهور بقدر ما وهب الله لك من العقل أو بنسبة منزلتك من الوجود ، ثم قم شاكرا ربك على هذا التنزل الإلهى بالرحمة الواسعة والشفقة والحنانة الحقيقيتين ، ذاكرا آلاءه ، فاكرا فى آياته ، حاضرا فى معيته ، لترقى إلى أوج كمالك ، وتكون حلية للملكوت الأعلى ، وشمسا مشرقة فى عوالم العرش العظيم ، أو إنسانا مُنَعَّما فى جنات الخلد بأشهى وأجمل وأكمل الملاذ الحسية والمعنوية .

طلٌّ من وابل القرآن ورذاذ من هاطل السنة :

ووفاء للموضوع أبين لك أيها الأخ البار ـــ أيدنى الله وإياك بروح منه ـــ أمراً خفى على كثير ممن لم يذق حلاوة الإسلام والإيمان من المسلمين ، وهو أن ما تراه بعين رأسك من المخترعات والصناعات والفنون والعلوم التى يسمونها عصرية هى بعض نتائج القرآن المجيد ، وقطرة من نعمة الله علينا بهذا النبى الكريم ﷺ .

---

(١) سورة المائدة آية ٣٨

برهان ذلك أن أحكام الإسلام أوجبت السعى على الرزق ، وحصرت وجوه ذلك فيما يكتسب من تجارة أو زراعة أو صناعة أو عمل بدنى أو غنيمة أو ميراث أو هبة ، وجعل ما يكتسب بالعمل أحل الحلال وأطيب الطيبات ، وأمرنا القرآن الكريم أن نتفكر فيما فى السموات والأرض وأن نسعى بجد فى إخراج كنوز الكائنات .

وأخبرنا ﷺ أن : (ٱلْحِكْمَةَ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ يَلْتَقِطُهَا حَيْثُ وَجَدَهَا)(١) ، وكان ﷺ يعجبه الحسن من كل شىء سر قوله ﷺ : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْعَبْدَ ٱلْمُتْقِنَ عَمَلَهُ)(٢) وكان ﷺ يَحُثُّ على تعليم الصناعة والعناية بالزراعة ، ودليل ذلك أنه ﷺ جعل فدية بعض أسرى قريش تعليم بعض المهاجرين والأنصار الكتابة(٣) . وأمرنا الله سبحانه وتعالى بإعداد العدة والقوة ، ولا تكون هذه العدة والقوة إلا بالصناعات التى بها قوة المجاهدين فى سبيل الله وحماية ثغور المسلمين . فَهِمَ سِرَّ تلك الأحكام الخلفاءُ رضى الله عنهم فنهجوا على هذا السنن القويم والطريق المستقيم ، حتى تنبهت أفكار المجتمع الإسلامى ، وكان العرب إذ ذاك قليلين والذين اعتنقوا الإسلام وأهل الذمة كثيرون . فانتشرت تلك الصنائع بين من اعتنق الإسلام من الأمم الأخرى و بين المسلمين ، و بلغت درجة رقى الصناعة مبلغا حتى كان طبيب الخليفة فى زمن من الأزمنة نصرانيا ، وعمال بيت المال من أهل الذمة ، وقويت تلك الروح فى المجتمع الإسلامى حتى ارتقت الصناعة رقيا بلغ مبلغا أدهش عقول العالم بأجمعه . ومن اطّلع على آثار بغداد والأندلس ودمشق وغرناطة والعراق و باب السعادة(٤) عاصمة المسلمين الآن ، ومصر المحروسة وما فيها من إحكام الصناعات ودقائق الفنون والمخترعات وغرائب العلوم بالحكمة العملية وخفيات الفهوم فى الحكمة النظرية ، يعلم حق العلم أن ما يراه الآن بعينى رأسه فى كل المدن سواء كانت فى الشرق أو الغرب إنما هو طل من وابل للقرآن ، ورذاذ من هاطِلِ السُّنَّة المحمدية .

---

(١) ورد فى هذا المعنى عند الدارمى فى المقدمة « عليك بالحكمة فإن الخير فى الحكمة » وفى رواية أخرى عنده : « نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة » وعند البخارى : « والحكمة الإصابة فى غير النبوة » البخارى فى فضائل الصحابة .

(٢) عند ابن حبان وأبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها بلفظ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » مجمع الزوائد ٩٨/٤ .

(٣) عن أحمد بن حنبل بلفظ : « كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولادا من الأنصار الكتابة » مسند أحمد ٢٤٧/١٠ .

(٤) باب السعادة : هى مقر دار الخلافة الإسلامية أى الاستانة وقت إملاء الإمام أبى العزائم للكتاب .

أول من سعى فى تخطيط الأرض بالتحقيق خلفاء المسلمين كما تقدم ، وهاهى الكتب الإسلامية لا تزال بحارايغترف منها غير المسلمين و ينسبون لأنفسهم ، ولايزال الغرب مع مابلغ من إتقان الصناعات طفلا صغيرا يرضع من لبان العلوم الإسلامية والعلوم العربية والآثار الشرقية .

تأثير الإسلام على المجتمع الإنسانى :

نزل القرآن فسوّى بين الناس وأمر بالألفة والتحابّ ، وحث على عمارة البلاد وسعادة العباد لافرق بين المسلمين وأهل الذمة ، فاطمأنت القلوب وأمنت ، واستراحت العقول والأفكار فعملت . ولولا الإسلام لبقى المجتمع الإنسانى هاو يا فى مهاوى الجهالات والضلالات . فبالإسلام عمت الرحمة المجموعة الإنسانية . و بالإسلام فتحت كنوز الكائنات وظهرت خواصها . و بالإسلام سمت النفوس وزكت ، وجالت العقول فى ر ياض تلك الآثار واقتطفت ، وإنى على يقين تام أن المجتمع الإنسانى إذا تخطى خطوة أمامه فانكشفت له أنوار الحكمة العملية والنظر ية لانبلجت له أنوار تدعوه إلى أن يكون الإسلام هو الدين حقا ، والقرآن هو الإمام صدقا ، ولكنها حكمة بالغة وتقدير إلٓهى ، يهدى الله من يشاء و يضل من يشاء لايسأل عما يفعل .

لعلك أيها الأخ علمت حق العلم قدر تأثير الإسلام على المجتمع الإنسانى ، وكيف عم خيره من اعتنقه ومن لم يعتنقه . ذلك لأنه دين الله حقا ورحمته الحقيقية التى تفضل بها على بنى الإنسان ، ونعمته الواسعة على كل مخلوق . وقد تقدم لك فيما سبق أن الإسلام رحمة لكل موجود ذى كبد رطبة ، فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ أمرنا بالرحمة لكل مخلوق ، وأمرنا ﷺ بحسن رعايتنا لمن استرعانا الله ، وما استرعانا الله .

لعلك أيها الأخ المهتدى بنور عقلك المسترشد بضياء فكرك ، زالت عنك ستارة الوهم المسدلة على نور الفكر ، فأيقنت يقينا أن ماتراه من الزينة والصناعات والفنون والحكمة العالية لم يكن إلا بعد شروق تلك الشمس الإلٓهية ، وأخشى أن تتوهم أنى أجهل أن رجالا قبل الإسلام جالت أفكارهم فى ميادين الحكمة العملية والنظر ية . نعم ، ولكن على غير أساس متين وعلى غير هدى . ولولا أن هذا المختصر لايتحمل لأوردت لك ما بحثوا عنه وما تكلموا فيه من مباحث الحكمة ، وكشفت لك جلية الأمر ، فعلمت حق العلم

أنها أوهام انبعثت أشعة أنوارها على ماأحاط بها من الماديات ، فجالت جولة حتى إذا قربت من فِنَاءِ أسرار تلك الآثار انعكس دخان تلك النار على الخيال فَتَمَثَّلَ ظلمة وراء المادة سر قوله تعالى : (يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ)(١) وكيف ينتصرون ولم تنمح حجب الأوهام عن العقول لتنفذ أشعة أنوار العقول السليمة فتخرق سياج المادة بكمال التوحيد ونور اليقين وسلطان العلم بالله تعالى ؟ لعلك إذا قرأت ما قاله الأقدمون فى سياسة الملك ، وفى خواص بعض النباتات والحيوانات ، وفيما استنتجوه من نظريات هندسية ومبادٍ حسابية قلت : تلك العلوم الرياضية التى تزكى النفس . وَنَعَمْ ، هى تزكى النفس فى طلب المزيد من الدنيا والانغماس فى الشهوات البهيمية ، ولكن هل تمنح نفسك موهبة تفكرها فى سر الآيات فى الأرض والسموات ؟ وتعلم بها حق العلم سر الحكمة التى لأجلها وهب الله الإنسان العقل وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ؟ما خرجت الحكمة عندهم عن فكر يجول فى ضروريات لابد منها للإنسان بحياته الدنيوية،لا للفضائل والمنافع العامة لبنى الإنسان دنيا وأخرى .

قطرة من هذا المحيط اللجى :

نزل القرآن فجعل كل فرد من أفراد المسلمين طبيبا حكيما صانعا مفكرا عَلِيَّ النفس ينافس فى الفضائل ، حتى صار كل فرد من أفراد المسلمين أمة عظيمة ، فجمع الطب فى كلمة قوله تعالى : (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ)(٢)وجمع الاقتصاد المالى والسياسى فى كلمة : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ)(٣)وجمع مكارم الأخلاق كلها فى كلمة : (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ)(٤) وجمع فضائل النفس وكمالاتها فى كلمة : (ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ)(٥) وبيّن الحكمة القدسية والميل إلى الكمال الأكمل واحتقار ما سوى الكمالات العلية فى كلمة واحدة : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن

---

(١) سورة الرحمن آية ٣٣ــ ٣٥
(٢) سورة الأعراف آية ٣١
(٣) سورة الإسراء آية ٢٩
(٤) سورة الأعراف آية ١٩٩
(٥) سورة آل عمران آية ١٣٤

لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)(١) وحقَّر كل كائن فى عين المؤمن الكامل إجلالا لعظمته وإعلاء لكبر يائه (ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ)(٢) وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)(٣) أمرنا أن نقول كلمة فى كل يوم فوق الخمسين مرة تجعل نفوسنا فوق الملائكة وهى : الله أكبر لا يقولها حاضر القلب إلا وانمحى من عين بصيرته ومن عين رأسه كل صغير وكبير ، وأحاطت به العزة وسرت فى سو يداء قلبه سر قوله تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)(٤) هذه هى القطرة التى فى فم البعوضة ياأخى من هذا المحيط اللّجى فَادْنُ واغترف وأنب إلى الله واعترف . ولولا أنى لا أر يد أن أشق عليك بالإطالة لما وسعت تلك الأسرار أسفار ومجلدات . والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعلك أيها الأخ المسترشد ممن يكفيه قليل الحكمة ، فتسعى فى خلاص نفسك بالتمسك بشرائع الإسلام ، وترك ما وراءه من الآراء والأوهام ، لتنال السعادة الأبدية وتفوز بقسط وافر من الحظ فى الدنيا ، وتكون ممن عمل لخلاص نفسه وأنجاه الله من حبس حسه وحظه إنه مجيب الدعاء .

الواجب المقدس :

تذكر ياأخى ــ جملنى الله وإياك بجمال وراثة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ــ أن الإنسان بعد معرفة هذه الواجبات كلها لاينال الكمالات القدسية حقا إلا بعد أن يعلم الواجب عليه لبنى نوعه جميعا ، الذى هو فوق الواجب لجميع الناس ، المذكور بعد الواجب للإمام الأعظم فى آخر هذا المختصر ، لأن الواجب الآخر واجب أخلاقى لرغد العيشة وحسن المعاملة وصفاء الحياة وحقيقة المعاونة . وهذا الواجب أيها الأخ واجب على الذى أحياه الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس . هو الواجب الحقيقى الذى يقوم به العلماء الراسخون فى العلم والعارفون الر بانيون والمخلصون الروحانيون . وهو سر قوله سبحانه : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)(٥) هذا الواجب ياأخى ــ أيدك الله بروح منه ــ هو الواجب المقدس .

---

(١) سورة الإخلاص

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩

(٣) سورة المدثر آية ١ ــ ٣

(٤) سورة المنافقون آية ٨

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٤

فإذا من الله عليك بتلك المواهب العالية والخصوصيات الفاضلة ، وجمّلك الله بحلل العزائم التى تكون بها من أهل الرضا أو الصبر ، وحلاّك سبحانه وتعالى بزينة الحكمة والمعرفة ، وكشف لك حقيقة الدنيا وعرّفك قدرها ؛ فقم يأخى باذلاً مافى وسعك لنجاة إخوتك المؤمنين أوّلا مما ألمّ بأخلاقهم أو بعاداتهم مما يخالف سنة رسول الله ﷺ ، متحمّلا يا أخى ــ وفقنى الله وإياك ــ آلام هذا العمل الجليل بعزيمة ماضية ونفس عالية وهمة لا تفتر. واحرص يا أخى كل الحرص على نجاة إخوتك برحمة ورأفة وصبر على البلاء ، ودعاء بالخير للأعداء آنسا فى عملك هذا بربك سبحانه ، مستمدا من روحانية رسول الله ﷺ ، ثم يا أخى كن حريصا على نجاة غير المؤمنين من بنى نوعك فاجعل لهم قسطا من تلك الرحمة التى منّ الله عليك بها ، وادعهم بالحكمة المناسبة ، و بيّن لهم يا أخى جمال الدين وسماحته ، وما أنزله الله تعالى على سيدنا ومولانا محمد ﷺ من الكمالات التى لم ينزلها على الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم ، لتكون يا أخى من عمال الله القائمين بأمر الله المجاهدين فى سبيل الله . واعلم يا أخى أن هذا المقام العلى والمجد الذى مَنّ الله به على كُمَّلِ أولى العزم من الرسل ، ورثّه ــ فضلا منه ــ لأهل خصوصيته من أفراد عباده المخلصين ممن أنعم الله عليهم . فتنبه يا أخى . وإياك إذا أقامك الله فى هذا المقام العلى أن تخلد إلى الأرض وتتبع هواك وتنسلخ من آيات الله ، فإنَّ مَنْ مَنَّ الله عليه بتلك المواهب فانسلخ منها بالميل إلى حظ فان ، أو بفتح باب الخصومات والعداوة على الناس ، كان كمن قال الله تعالى فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (١).

ليس الداعى إلى الله حقيقة إلا من كشف عن جمال الدين لأعدائه و بين محاسنه لهم حتى ألفوه ، بعد أن جدد سنن رسول الله ﷺ بين إخوته المؤمنين ونشلهم من أوحال التوحيد ، و بين لهم الطريقة المستقيمة فسلكوا عليها ، فهذا هو الوارث حقا لرسول الله ﷺ ونور الله المبين ، الذى جعله الله حجة على عباده وحجة للمؤمنين ، وشهيدا يوم القيامة على

(١) سورة الأعراف آية ١٧٥ ــ ١٧٦

النـاس بمـا آتاه الله من العلم والحكمة . أكرر لك ياأخى التنبيه أن تكون بعد أن يقيمك الله فى هـذا المقـام متـلذِّذاً بمـا يـؤلم ، آنسا بما يوحش مما يستوحش منه الجاهلون ، مُوَجِّها كل وجـهتك إلى نيل فضل الله ورضوانه ، مُسْتَدِرًّا العطاء من الله ، فرحا بإقبال الخلق على الله ، مقـبـلا بِكُـلِّيَّتِكَ على جناب القدس الأعلى ، مستصغرا نفسك فى عينك وإن عظَّمها الله فى عيون عباده ، جاعلا كل همك وقصدك أن يكون الله تعالى راضيا عنك وأن تكون راضيا عن الله ، ولا يكون ذلك ياأخى بمعناه الحقيقى إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليك مما سواهما ، وكـنـت تحب المرء لاتحبه إلا لله ، ونزهت سرك عما يشغلك عن الله ، وطهرت سريرتك عـمـا يلـفـتـك عـن الحق جـل جـلالـه . عـند ذلك ياأخى أبشرك بنزل المقربين ، ومشاهد المحبوبين ، والاتصال بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو المجد الحقيقى الذى تتشوف إليه النفوس الزكية والأرواح الملكية .

أسـأل الله تـعالى أن يمن علينا بهذا المجد منَّة محفوظة من السلب ، وأن يديم لنا المزيد من هذا الفضل العظيم والمجد الحقيقى ، إنه هو المعطى الوهاب ، الكريم التواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم آمين .

بهجة النفس وحظها وشهوتها :

البهجة للنـفـس المـلـكـيـة . والحظ للنفس الإبليسية . والشهوة للنفس الحيوانية . فإذا تكملت النـفس الملكية بحقيقة العقيدة ، ولا تكون منجية إلا إذا تلقاها المؤمن من القرآن وتزكت النفس الإبليسية بقهرها بخوف العقاب وحرمان الثواب ، وطهرت النفس الحيوانية بـالاعـتـدال فى جميـع مـالابُدَّ لها منه مما به قوامها ، ومعرفة المضار الحقيقية والمنافع الحقيقية مـعـرفـة محـسـوسـة للـفكر ، وحصل ائتلاف بين القوى ونوع مشاكلة لاحتياج كل نفس إلى الأخرى فى تـكـمـيـلـهـا وبـلـوغـهـا الـغـايـة المـطـلـوبـة ، وخـوف كـل نـفس من الأخرى أن يـكـون لهـا الـقـهـر الحـقـيقى على جميع النفوس ، فيكون ذلك مؤديا إلى نقص الكمالات الإنـسـانـيـة التى ينالها الإنسان فى الدنيا بالنسبة لأنه خليفة عن ربه سبحانه ، وحرمانه من كـمـالات الأخـرى الـتـى أعـدهـا ربـه سبحانه وتعالى لأحبابه المقربين : من الرضا والفوز والـرؤيـا والـشـهود ومالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، مما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

فإن النفس الملكية إذا قهرت النفسين الأخريين أضر الإنسان بدنياه ، وهو مطالب من حيث أنه خليفة عن ربه، مطالب برعاية ما استرعاه الله فيه من العمل النافع ، والنظر الصحيح ، والعلم الذى تطمئن به القلوب حتى تتحقق بكمال الخلافة . و بقدر مافاته من حقوق الخلافة يفوته من معرفة نفسه ومعرفة ربه سبحانه وتعالى ، ويحرم من منازل الأفراد الخلفاء . وإذا تسلطت النفس الإبليسية عليه أذهبت منه نور الحق ، وأخلد إلى الأرض أرض القطيعة وسجن البعد ، وكان أقل من الأنعام وأضل منها سبيلا ، و يكون حربا على نفسه و بنى جنسه ، وعدُوًّا للحق وأهله ، عونا للباطل وأهله ، بل يكون هو عين الباطل فَيُمسَخُ بعد أن كان فى أحسن تقويم ، و يصير إبليس فى أسفل سافلين . أعوذ بالله من السلب بعد العطاء . وإذا غلبت النفس الحيوانية صار شهوانيا و يكون بحسب ما غلب عليه من النفوس . فقد يكون كالخنزير شهوة للنكاح ، وكالنملة حرصا ، وكالثعبان أذية ، وكالثعلب ختلا ، وكالسبع افتراسا . لايرعوى ولا يرتدع حتى يهدم صورته هادم اللذات ومفرق الجماعات . أسأل الله تعالى الحفظ والسلامة من سلطان الحظ والهوى .

رَوِّحِ النَّفْسَ فِى رِيَاضِ حُلاَهَا ... وَتَجَرَّدْ عَنْ مَيْلِهَا وَهَوَاهَا
وَاصْرِفِ الْوَقْتَ فِى نَوَالِ نَفِيسٍ ... ذَاكِراً فَاكِراً لِنَيْلِ صَفَاهَا
زَكِّهَا بِالْيَقِينِ تَصْفُو وَتَرْقَى ... وَتَجَمَّلْ بِالْفَهْمِ مِنْ مَعْنَاهَا
شَاهِداً مَا بَدَا مِنَ الْحُسْنِ وَانْهَضْ ... بِجِهَادٍ فَحَتْفُهَا فِى رِضَاهَا
وَاَهْدِهَا لِلصِّرَاطِ بِالْقَهْرِ عَنْهَا ... وَتَوَسَّطْ فِى السَّيْرِ عِنْدَ وَفَاهَا
سُنَّةُ الْمُصْطَفَى صِرَاطٌ قَوِيمٌ ... حِصْنُ أَمْنٍ لِمَنْ يَرُومُ حِمَاهَا

* * *

النَّفْسُ طُهْرَتُهَا سُكُونٌ لِلْعَلِىِّ ... وَزَكَاؤُهَا ثِقَةٌ بِمَوْلاَهَا الْوَلِىِّ
وَالْقَلْبُ فِىٌ تِلْكَ الشُّئُونِ مُقَلَّبٌ ... بِسُكُونِهِ يُجْلَى لَهُ النُّورُ الْجَلِىّ

* * *

جِلاَ النَّفْسِ بَعْدَ يَقِينِهَا بِشُهُودِى ... وَرِفْعَتُهَا عِنْدِى بِحِفْظِ حُدُودِى
وطُهْرَتُهَا التَّحْقِيقُ بِالْغَيْبِ عِنْدَمَا ... تُنَاوَلُ رَاحَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ
و بَهْجَتُهَا مَرْأى جَمَالِى مُنَزَّهاً ... بِمِرْآةِ هَذَا الْكَوْنِ لاَبِقُيُودِ
لَدَيْهَا هِىَ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ جُمِّلَتْ ... بِسِرٍّ فَلاَحٍ أَوْ بِنُورِ شُهُودِى

(النفـــس)

هَـيْـكَلِي عَـالَـمٌ كَـبِيرٌ وَنَفْـسِي — صُورَةُ ٱلْحَقِّ فِي صَفَائِي وأُنْسِي
وَفُؤَادِي مَا بَيْنَ عُنْصُرِ جِسْمِي — وَمَعَانِي سِرِّي كَمِيزَابِ قُدْسِي
بَـرْزَخٌ حَـاجِـزٌ يُـلَـطِّـفُ حَـالِي — وَبِـسِرِّي دُرِّيٌّ كَشْفِي وَشَمْسِي
وَأَرَى الْقَلْبَ عَرْشَ سِرِّ التَّجلِّي — وَالسُّوَيْدَا قَدْ طُهِّرَتْ مِنْ رِجْسِ
هَيْكَلِي مَظْهَرٌ صَغِيرٌ وَلَـٰـكِنْ — فِـيـهِ سِـــرٌّ لَا يُشْهَدَنْ لِلرَّأْسِ
فِيهِ كُلُّ الْوُجُودِ يُطْوَى وتُجْلَى — لِي الْمَجَالِي فِيهِ بِلاَ قَيْدِ حِسِّي
ضَـاقَ كُـلُّ الْوُجُودِ عُلْوًا وسُفْلاً — وَوَسِعَـتُ الْعَلِيَّ وُسْعَةَ أُنْسِي
عَـالَـمُ الْقَلْبِ كُلُّ عَالَمٍ عالٍ — وَعَالَمُ الرُّوحِ فِي حَظَائِرِ قُدْسِي
كُـلُّ مـافِـيَّ مِـنْ مَـعَانٍ وَحِكَمٍ — غَيْبُ غَيْبٍ عَنْ كلِّ مَلَكٍ وَحَدْسٍ
كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ سُخِّرَ فَضْــلاً — لِمَـعَـانٍ ظَهَرَتْ بِصُورَةِ نَفْسِي
قَلْبِيَ الْبَيْتُ عَامِرٌ بِالْمَجَالِي — ظَاهِرِي الْعَرْشُ وَهُوَ لَوْحٌ وَكُرْسِي
لَـوْحُ مَـحْـفُـوظِه وَكُرْسِي جَلاَل — بَلْ وَعَرْشُ الرَّحمُوتِ فِي فَهْمِ دَرْسِي
هَـيْـكَـلِـي عَـالَـمٌ وَعِلْـمٌ وَنُـورٌ — وَشِـفَـاءٌ مِـنْ غَـيْـرِ كَـدٍّ وَ بَـأْسٍ
صَـوَّرَتْـهُ يَـدُ الْـعَـلِـيِّ تَـعَـالَـى — صُـورَةً جُـمِّـلَـتْ بِـحُسْنٍ ومَيْسٍ
آهِ ! لَـوْ فُـكَّ رَمْـزُ تِلْكَ الْمَبَانِي — عَـنْ مَـعَـانِـيـهِ لَمْ أُجَاوِرْ رَمْسِي
يَـاشُـمُوساً بِهَيْكَلِي مُشْرِقَاتٍ — أَبِـفَـضْـلٍ أَشْرَقْتِ أَمْ ذَا بِحَبْسٍ
أَنْـتِ نـورٌ وَهَـيْـكَـلِي مِنْ مَبَانٍ — لَسْتِ مِنْ شَكْلِهِ وَلَسْتِ بِجِنْسِي
أَنَـا فِـي حِـيـرَةٍ مَـشُـوقٌ مُـعَنًّى — كَيْفَ أَرْأَى حَمَـأً يُضِيءُ بِقُدْسِي
ذاكَ غيْبٌ لَوْ يُكْشَفَنْ سِرُّ مَعْنَاهُ — لَـلاَحَ الْـخَـفَـا لِـعَـقْـلٍ وَنَـفْسٍ

المسلم الحقيقى أمة عظيمة :

المسلم الحقيقى هو ٱلْمُسَلِّمُ أمره لله تعالى تسليما حقيقيا عن تبصرة وهدى ومعرفة وبيان . نظر بنور قلبه إلى نفسه فعلم حقيقة عجزه إذا اشتغل بتدبير نفسه ، وتحقق قصوره الذاتى ـــ إذا اقتصر على رؤيته ـــ عن إدراك الكمالات التى أعدها الله تعالى للمسلم

الحقيقى ، ونيل السعادة الأبدية التى وعد الله المسلم بها فى جوار حضرته العلية ومنازل رضوانه ، وتحقق اضطراره إلى نيل الكمال الدنيوى والأخروى اللذين بفقد أحدهما يُحْرَمُهُمَا ، لأن طلب الدنيا للمسلم بالمعنى الحقيقى والعمل فيها طلب للآخرة ولله تعالى وعمل لجنابه العلى سبحانه . وأن المسلم مطالب بحقوق بقدر أنفاسه ، لايمكنه أن يقوم بجميعها إذا أهمل فى نَفَسٍ من أنفاسه ، أو ظن لجهله أن السعادة قاصرة على عكوف الهم على عمل واحد دون غيره،فإنه بذلك يضيِّع الدنيا والآخرة.وكيف لا؟وهو كما أنه مطالب بحق عليه لنفسه من تدبيرها وتزكيتها وتقويم معوجها وحفظ الصحة عليها،فهو كذلك مطالب بحقوق مثل هذه الحقوق وهى أوكد لكل مسلم من المجتمع الإسلامى العام أين كان المسلم وكيف كان ، بحيث تتفاوت الواجبات إما بتدبير خاص ومعونة ، أو بتدبير عام ونصيحة ومشورة ، بحيث يكون كل مسلم لكل مسلم خزانة مدخرة عند الحاجة إن بمعونة أو بنصيحة أو برأى أو بمنع عن ظلم ، أو بتضامن على إحياء سنة أو محو بدعة وضلالة ، أو مشاركة بالضمير والشعور الذى يطلق الألسنة بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى أن يكشف السوء الذى لاقبل للكل بدفعه عن أنفسهم .

وبهذا يكون المجتمع العام الإسلامى كجسد واحد يمثل كل فرد من أفراده عضوا من الأعضاء ، فيكون الإمام الأعظم لهم هو القلب ، وكل فرد بقدر منزلته عضو من الأعضاء الباقية ، و بذلك يكون كل مسلم منهم كاملا فى إسلامه ، عاملا للدنيا والآخرة ، عاملا من عمال الله المخلصين ، بل و يكون كل واحد منهم خليفة لرسول الله ﷺ فى القيام بمعنى من معانى الرسالة ، و يكون المجموع بأكمله صورة كاملة لرسول الله ﷺ تمثل أخلاقه ﷺ ، ومعانيه ﷺ ، وأحواله ﷺ ، و يكون كل فرد من أفراد المسلمين كأنه فى معية رسول الله ﷺ ، لأنه متجمل بجمال أهل معيته ﷺ ، متصف بما وصفهم الله تعالى به رضى الله عنهم .

وبهذا يكون المسلم الواحد أمة عظيمة قوية ، لأنه جاهد نفسه مجاهدة فى ذات الله حتى تحققت أن الله تعالى أولى بها منها وأعلم بخيرها منها ، وأقدر عليها منها ، وإن العقل الإنسانى وإن كمل ، والفكر الآدمى وإن رَقِىَ ، لايستقل بإدراك ما هو خير فى الحقيقة ونفس الأمر ، ولا يقتدر أن يقهر النفس على الأعمال التى بها نيل السعادة الحقيقية لما جبلت عليه النفس من حب النزوع إلى الملائم والرغبة فى العاجل ، فكانت أحكام الله

تعالى ووصاياه، وتعاليم رسول الله ﷺ، وهَدْىُ أصحابه رضوان الله عنهم والتابعين لهم بإحسان هي المراقي التي يرقى بها المسلم إلى منازل السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، ونيل الخير الحقيقي في الدنيا والآخرة.

فلو أن مسلما واحدا جعل القرآن إمامه وحكم على نفسه بوصايا رسول الله ﷺ، واقتدى بهدى السلف الصالح محافظا على الكتاب والسنة، عاملا بهما حق العمل، فإنه بمفرده يمكنه أن يسود من هو بينهم، وأن يجعلهم جميعا يدينون بدينه و يعتقدون اعتقاده، لأنه باتّباعه للقرآن الشريف وعمله بالسنة يكون عاملا نافعا لنفسه ولجميع بني جنسه بالشفقة والرحمة والفضيلة والنصيحة والإرشاد والمعونة والمشاركة، لأن المسلم الحقيقي أوجب عليه القرآن أول ما أوجب تعلم العلم الحقيقي النافع للدين والدنيا معا. فيتعلم العقيدة الحقة والعبادة المطابقة للسنة، والأخلاق الكريمة التي هي أخلاق رسول الله ﷺ، والمعاملة الحسنة التي تجعله يألف و يؤلف، والفنون والصنائع التي تنفع بني جنسه لينتفع بما لديهم مما لابد منه له حتى يكون نافعا منتفعا، و يكون ما يقدمه لغيره من المنافع أعم وأنفع مما يناله من غيره. فمسلم مثل هذا إذا وجد منفردا بين أمم من النصارى أو اليهود أو المجوس أو الأمم المتوحشة لايلبث إلا قليلا حتى يكون كشمس مضيئة، يستضىء بنور عقيدته الحقة العقلية و يقلده في أعماله النافعة وأخلاقه المرضية ومعاملته الحسنة ومزاياه الجميلة كل من رآه أو سمع به، لأنه إنسان تكمل بجمال يشتاق إليه كل إنسان و يدعى أنه متكمل به ولو كان في دركات الجهل والشرور، لأن الإنسان بفطرته يمدح الخير و يذم الشر وإن عمل الشرور.

ورُبَّ قائل يقول: إنا نرى أكثر الناس أعداء للرسل عليهم الصلاة والسلام ولورثتهم القائمين لتجديد سننهم. فأقول له: لم يكن أكثر الناس أعداء للرسل، وإنما أعداء الرسل هم المتسلطون على العامة بالقوة القاهرة أو لدعوى الصبغة الدينية بالزور والبهتان، ونرى العامة يقلدون الزعماء بغير رو ية ولا تمييز بين الحق والباطل، ولكن بعد ظهور الحق وانبلاج أنواره تتقلص ظلال الباطل وتنجذب القلوب إلى الحق. وكم هوت عروش ملوك، ومالت تيجان عن الرؤوس، وفُلِقَتْ هامات ملوك بأيدى أعوانهم وأنصارهم والمعضدين لهم والمتعصبين لهم عندما انبلجت أنوار الحق وأشرقت على القلوب، وأسكرت النفوس بما ثلجت به القلوب،

عـنـد ذلك تنجذب النفوس بكليتها إلى الحق ، وترى من كان يمنعها عنه و يُزَ يِّن لها الباطل كـأنـه أوقعها فى الشقاء الأبدى ، وأبعدها عن السعادة الدائمة ، فتقوم منتقمة منه مَاحِقَةً له ولـذو يـه . فالمسلم الكامل منفردا يتلذذ بالآلام و يفرح بالشدائد ويميل إلى المصاعب ليقينه أنها تـنـتـج الـسـعـادة الحـقـيـقـيـة لـه ولـبنى جنسه ، و يفيد العالم بأجمعه من نوعى الإنسان والحيوانات خيرا عاما وعيشة طيبة فى الدنيا ، وسعادة دائمة فى الآخرة .

لـقـائـل أن يـقـول : إذا كـان المسلم منفردا لايقيم بين قوم يخالفونه إلا قليلا حتى يصير مُقْـتَدًى به من الجميع أومن عقلائهم ، فلو كان هذا كما تقول فالنا نرى أر بعمائة مليون(١) مـسـلـم كلهم يقلدون غيرهم ؟ وهم أنفسهم يعتقدون أنهم لايمكنهم الاستقلال بأنفسهم ولا تـدبير مصالحهم إلا إذا أدار شئونهم غيرهم ، ونراهم يسارعون فى تقليد الأمم الأخرى الذين يخـالـفـونـهـم فى الدين والعقائد والأخلاق والبلاد والهواء ، والمسلمون جميعا الآن كعالة على غـيـرهـم يُعْـمَـلُ فيهم بغير كتابهم ، و يُحْكَمُ عليهم بغير سنة نبيهم . القبيح شرعا صار حسنا لـديهم ، والحسن شرعا صار غير مألوف لديهم . وهذا المشهود المحسوس يغاير ما تقول . فأجيبه قـائـلا : إنـك بـعـد مـعرفتك بالمعانى والصفات التى لايكون المسلم مسلماً إلا بها يمكنك أن تحـكـم أن مجـمـوع الأر بعمائة مليون الذين تسميهم مسلمين لواجتمعوا جميعاً لم يُمَثِّلُوا مسلماً بمعـنـاه الحقيقى ، لأن مجموع المعانى التى يتمسكون بها من الوصايا الإسلامية بعض أعمال بـدنـيـة مـعـتـادة مجـردة عـن روح المراد منها . وجميع الوصايا الإسلامية أهملت أو أبدلها أهل الأغراض والحظوظ بما تأولوه بآرائهم الملائمة لهم ، أو قلدوا فيه أهل الجهالة والبدع حتى صار الإسـلام غر يبا بين أهله ، وبهذا تتحقق أن الوصايا الإسلامية لو تمسك بها واحد لأمكنه أن يـنـفـع أمة عظيمة . ولو أن جماعة تمسكوا بحقيقة الإسلام وفهموا أمر الله سبحانه وتعالى من تنز يل أحكامه و بيان حكمه ، والمراد لرسوله ﷺ ، لملكوا المعمورة ودانت لهم أكابر ملوكها وأذلوا أعداءهم .

ولـعـلـك أيها المفكر تقول : إن أر بعمائة مليون لابد وأن يكون بينهم أر بعة ملايين فهموا أسرار الـشـر يـعـة ، واسـتـبصروا فى أحكامها وحِكَمِهَا ، فلِمَ لم تتكون منهم هيئة تبث روح الـيـقـين وتجـدد دارس الأخلاق ، وما أهمل من السنن الإسلامية ؟ وهل السواد الأعظم من

---

(١) هذا هو عدد المسلمين حين الطبعة الأولى للكتاب ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م

أهل الطرق والعباد وطلبة العلم كل هؤلاء ليس بينهم من أدرك تلك المعاني وفهم روح الشريعة حتى كان يوجد منهم من يجدد للمسلمين أمر دينهم ؟ فأقول : معلوم أن الأمة لايمكن أن تنشر بينها الصناعة الحقيقية المؤسسة على القواعد العلمية والأصول التجريبية إلا بصانع انكشفت له أسرار الصنعة ، وتحقق من معرفة ما ينتج من المنافع والفوائد والمضار، وفهم فهما حقيقيا خيرية تلك الصنعة ، و بذل للتحصيل عليها نفيس زمنه ونفائس أمواله ، وفارق لأجلها عزيز أوطانه وأقرب أقاربه ، معتقدا أن ما يناله خَيْرٌ من النفس والنفيس ، وخير من الوطن والأهل ، ثم يرجع إلى وطنه وأهله فينشر بينهم تلك الصنعة المفيدة النافعة ، فيصبحون جميعا صناعا متقنين . وإن لم يوجد هذا يكونوا فى صناعتهم بحسب ما يحسنه لهم حالهم فى الضرورة والرخاء . فهل لو اجتمعوا جميعا يمثلون هذا الصانع منفردا ؟ لا : فكذلك ترى أن بين المسلمين كثيرين مؤهلين لأن يكونوا مسلمين بالمعنى الحقيقى ، وأكثرهم أهل التسليم والانقياد الذين يسلمون أنفسهم لعلماء السوء ودعاة الضلالة ، معتقدين أن ما يتعلمونه أو ما يلقى إليهم أو ما يؤمرون به هو روح الإسلام وحقيقته ، والحقيقة أن كل ذلك ليس من الدين فى شىء ، فإن القرآن الشريف والسنة المحمدية السمحاء الحنيفية البيضاء قد بيَّنا أوصاف المسلم وأعماله القلبية والبدنية والمالية منفردا فى نفسه ، ومع أفراد عائلته ، ومع جيرانه وأهل قريته ، ومع أهل الأمصار، ومع كل المسلمين ، أين كانوا وكيف كانوا و بيَّنا منزلة كل فرد من أفراد المسلمين بالنسبة لبقية المسلمين .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين فى كثير من آيات القرآن و بين صفاتهم فى آخر سورة الفتح وفى أوائل الأنفال وغيرهما ، و بيّن ﷺ أوصاف المسلمين وأخلاقهم وما يجب أن يكون عليه كل فرد فى نفسه ومع بقية المسلمين فى أكثر من ألف حديث ، منها قوله ﷺ : (كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَى ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ الْإِسْلَامِ ، فَإِذَا تَهَاوَنَ إِخْوَانُكَ فَاشْدُدْ لِئَلَّا يَدْخُلَ ٱلْعَدُوُّ مِنْ قِبَلِكَ)(١) بيّن ﷺ فى هذا الحديث أن كل فرد من أفراد المسلمين مطالب بنفسه أن يحافظ على السُّنَّة والكتاب ، ولو ترك العمل بهما كل مسلم ، قال ﷺ فى الحديث الطويل : (ٱلْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِه وَلِسَانِهِ ، وَٱلْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)(٢) فلو أن أربعين متحققين بالصفات الإسلامية والكمالات الإسلامية لجدَّدوا مجد

---

(١) عند أبى داود وابن ماجه : جهاد ، والدارمى سير ، ومالك فى الموطأ بلفظ « فإذا تهاون أخوك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك » .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان ، والرق ، وأبوداود فى الجهاد ، والترمذى فى كتاب القيامة ، والإيمان ، والنسائى فى الإيمان ، والدارمى فى الرق ، وأحمد فى المسند ٢/١٦٠ ، ٣/١٥٤ ، ٤/١١٤ .

الإسلام وأعادوه كما كان . وأسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، وأن يعيذنا من الاقتداء بالمغضوب عليهم من اليهود ، و بالضالين من النصارى ، إنه على كل شيء قدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الشـــفاء :

هو كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ، لأن الكتاب والسنة من عمل بهما مصدّقا مقرًّا زكت نفسه ، وأشرقت عليه أنوار اليقين فتحقق قدر الدنيا والآخرة ، فيعمل فى الدنيا ليجمعها و ينفع بها جماعة المسلمين لنوال الآخرة ، و بذل نفسه لنوال رضاء الله تعالى . وقد جمعت السنة حقيقة العقيدة وأجمل المعاملات وأكمل العبادات والقربات والأخلاق والسياسات النبوية التى بها سعادة الدنيا والآخرة .

أصل مرض الأمة الإسلامية :

أصل مرض الأمة الإسلامية ناشىء من ثلاثة أنواع : أمراء السوء .وعلماء الفتنة . ودعاة الجهالة .

١ ــ أمــراء السوء :

أمراء السوء مالوا إلى الترف والطمع والغرور، وتقريب أهل المفاسد ، وسرعة الغضب والانتقام ، وإذلال المصلحين ، ومعاداة العلماء العاملين والأشراف المتقين ، والنفور من الموعظة ، والتكبر على العاملين بالتقوى ، والاشتغال باللهو واللعب والغفلة عن أمور العامة ، والظلم فى جمع الأموال ، والإهمال فى إقامة الحدود ؛ لأنهم لايبالون بعمل المنكر. وساعدهم على ذلك علماء السوء الذين اتخذوهم أعوانا لهم ، وأيدى لتنجيز شهواتهم ، وسيوفا لقطع الحق وإحقاق الباطل ، فشغلهم الظلم عن الإعداد للأعداء كما قال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(١) وصار . الأمير لا عدوّ له إلا النصحاء الأمناء من المسلمين ، فقاومهم وأضعف قوته ، حتى استولى

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠

الأعداء على ثغور المسلمين لخلوها من الحصون المانعة والجيوش الراغبة فى الدار الآخرة ، لأن الناس على دين ملوكهم ، و بشغله أهملت الصناعات والتجارات لاشتغال الأمة بالوشايات ، وتفرقة كلمتهم بالتحزب .

٢ ــ علمــاء الفتنــة :

ثم قام علماء السوء فتقربوا إلى الأمراء بجدل الكلام ، وتأو يل السنة والكتاب بما يهواه الأمير، وما ينالون به المنزلة العالية والسيادة والشرف ، حتى يكون منهم الْمُفْتُونَ بالضلالة ، والدَّالُّون على غير الهدى مع إهمالهم للأعمال الشرعية ، والازدراء بالفقراء والعمال وأهل الذِّكْر من العارفين ، وأهل علوم اليقين . وقد بلغ بهؤلاء الضالين المضلين أن ابتدعوا فى الدين بِدَعاً فرقوا بها بين المسلمين ، وأوقعوا المسلمين فى تكفير بعضهم ولعن بعضهم ، حتى بلغ حالهم من العداوة والبغضاء أن تساهلوا فى أمور الجماعة وإحياء الكلمة وتجديد أمور السُّنَّة ، حتى ذَلُّوا وخُذِلوا وتمكن منهم العدو ، وداخلهم الشيطان فصاروا تبعا بعد أن كانوا أئمة وسادة لجميع العالم . كل ذلك للطمع فى الدنيا وإيثارها على الآخرة ، وترك الحق وراء ظهورهم طمعا فيما لاينفع فى الدنيا ولا فى الآخرة من الشهرة والسمعة ونفوذ الكلمة ، ودعاهم الطمع والغرور وطلب زهرة الدنيا إلى أن أَلَّفوا كتبا فى بدعهم يردون فيها على أهل الإخلاص والصدق والتوكل والعلم اليقين والعمل بالحق ، وسعوا فى الأرض ينفِّرون المسلمين من أئمتهم وقادتهم ، حتى إذا تسلط الكافر على المسلمين تركوا أمراء المسلمين ، وقاموا لِذمِّهِم وموالاة المتسلطين عليهم لنوال الرتب والشرف والأموال والجاه والرفعة . فواعجباً لكلاب الدنيا الظاهر ين فى حلل المؤمنين ، المتجملين بجمال العلماء الراسخين ، كيف لاينهاهم نُهاهم ولا تمنعهم عقولهم ولا معقولاتهم ولاأحكام دينهم عن الغرور بالدنيا وهدم أركان الدين ؟ ولا بد أن تظهر الحقيقة فى يوم ما والله غالب على أمره .

٣ ــ دعــاة الجهــالة :

دعاة الجهالة إن لم يساووا علماء السوء فى جلب المضرة على المسلمين فهم أضر منهم ، لأنهم يموِّهون على العامة أنهم الدعاة إلى الله تعالى ، الوارثون لأحوال الأقطاب والأبدال ، ويموِّهون عليهم أنهم يمكنهم النفع والضر ، و يلفتون المسلمين عن العمل الواجب عليهم شرعا

وعقلا من العلم والعمل للدنيا . ثم إنهم بجهلهم يوهمون أن التوكل ترك الأعمال ، وأن الرضا عدم المعارضة وترك الناس يعملون ماشاءوا . ومنهم من يتقرب إلى الأمراء أو المتسلطين فيكونون أعوانا لهم على حب العامة لهم والرضا بأحكامهم وأعمالهم ، بل و يفهمونهم أن هذا هو الخير ، وأن هذا فضل من الله ونعمة ، وهو فى الحقيقة سخط من الله ونقمة . ثم إنهم لطمعهم يوقعون العامة فى بغض العلماء والأتقياء والدعاة إلى الخير ، فتحصل التفرقة و يقوم كل فريق لمناوأة الآخر فتتفرق الجماعة ، و يسارع كل فريق إلى المتسلطين أو الأمراء فيستعينون بهم على أهل الحق ، حتى يضعف القائمون بالحق ويختفون و ينتشر الباطل . وأول فتنة حصلت فتنة مسيلمة الكذاب،ثم حوادث الخوارج ، ثم بنى أمية ، ثم بنى العباس ، ولكن كان نور الكتاب والسنة مشرقا على جميع المسلمين .

دواء ذلك المــرض :

من نظر بعين العبرة فى مرض المسلمين الآن وما أصابهم يجد ذلك ناشئا عن تلك الأسباب المتقدمة . ودواء ذلك المرض أن يتحد الأمراء والعلماء والدعاة بالقلب واللسان على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإحياء سيرة السلف مع الزهد فى الدنيا ، والتوبة ببذل أنفسهم وأموالهم فى إحياء سنة رسول الله ﷺ بالحكمة والموعظة الحسنة . وإلا فالله سبحانه وتعالى له عباد أحبهم وأحبوه يجعل إحياء ذلك الأمر على يدهم ، لأن الله غيور على دينه وسنته وكتابه وسنة نبيه ﷺ . وما الله بغافل عما يعمل الظالمون . أسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب من القول والعمل والحال ، وأن يجمع قلوبنا على الحق ، وأن يهب لنا عناية يحيى بها السنة إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تجدد الإسلام سعادة المسلمين

حال المسلمين فيما مضى :

المسلمون وإن كانوا قليلا فى العدد والعدد ، وكان أهل المعمورة أعداء لهم يناوئونهم و يكيدون لهم حتى جيرانهم وأقاربهم ، ومع ذلك كانت تميل التيجان من على رؤوس الأكاسرة والقياصرة والتبابعة هيبة لهم ورهبة منهم . خامر الرعب قلوب الملوك فى

قصورهم، والخوف قلوب الشجعان فى أكمل لأمتهم ، حتى كان المسلم المنفرد كخميس (١) جرار، فأخضعوا الأمم للحق وقادوا العالم وسادوهم . كان القرآن حاكمهم إذا قال لهم أقيموا أقاموا ولو على جمر الغضا ، ولو قال لهم أقدموا أقدموا ولو على الموت ، فكانوا لا يأكلون إلا إذا أمرهم القرآن ، ولا يتكلمون إلا إذا أمرهم القرآن ، فالقرآن هو الإمام والقدوة . وأميرهم أعلمهم بأسرار القرآن وأكملهم فى العمل بالقرآن . فإذا سها نبهوه ، وإذا نسى ذكروه ، فإذا خالف خلعوه . وإن حكم القرآن بقتله قتلوه ، لأن الحاكم الحقيقى والحكم العدل هو القرآن ، فما مضت فترة قصيرة من الزمن إلا والعالم جميعه إما مسلمون أو خاضعون أهل ذمة للمسلمين . كان المسلم إذا عمل عملا وقيل له: لم عملت هذا ؟ يقول: أمرنى القرآن ، فيسأله عن الأمر فيخبره به ، فيقول : إنى أفهم فى هذه الآية غير تلك ، فيقول : إن رسول الله ﷺ بيّنها بعمله أو قوله كذا ، فيسلّم له أخوه و يعمل بعمله وعلمه . هكذا كانوا . كلامهم بالقرآن وعملهم بالقرآن ، لاءم ذلك نفوسهم أوْ لم يلائمها .

سعدوا وسادوا ليس فى الآخرة فقط بل ـــ واللهِ ـــ وفى الدنيا قبل الآخرة ، ملكوا الممالك فلم تخرجهم عن التواضع لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ودانت لهم الأكاسرة والقياصرة وصاروا أرقاء يباعون فى الأسواق وتباع نساؤهم . فكان ذلك أشد فى قلوبهم موعظة وعلما بدناءة الدنيا وحقارتها فزهدوا فيها ، ورغبوا فى الدار التى لا يزول نعيمها ولا يبلى جديدها .

عمـــل العلماء :

قام العلماء بالواجب عليهم فزهدوا الدنيا وخالفوا أهلها ، وكانوا قدوة حسنة أمام أفراد الأمة حتى فى زمن الخلفاء الراشدين ، كان أبوذر الغفارى وأبوهريرة وسلمان الفارسى وغيرهم يكتبون لعمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعاً يخوّفونه من الدنيا فيقبل منهم ، وخالفوا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقام أسامة بن زيد لعلىّ بن أبى طالب عندما قال له إن رسول الله ﷺ قال : (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ)(٢) وطلب منه موالاته على معاوية ، فقال: ياأمير المؤمنين أنت مولاى ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لى : (أَقَتَلْتَ

---

(١) الخميس : الجيش ، لأنهم خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساق .

(٢) أخرجه الترمذى فى المناقب ، وابن ماجه ، وأحمد فى المسند ١/ ٨٤ـــ ١١٨ ، ٤/ ٢٨١ وعند أحمد فى المسند عن رواية أخرى : « من كنت وليه فعلىّ وليه » المسند ٥/ ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ .

رَجُلاً يَقُولُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ ؟)(١) فأنا لا أواليك فى هذا الأمر. وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه فى يوم صفين : إنها لفتنة ، وأراد أن لايقاتل فوكزه أبوه بكعب الرمح وقال : أتكون فتنة أبوك قائدها ؟. وما حصل لمعاوية رضى الله عنه من النساء اللاتى كنّ يمدحن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام و يذمن معاوية رضى الله عنه . وما فعله ابن جريج مع المنصور. وما فعله الفضيل مع الرشيد ومالك بن أنس معه مما هو مشهور. كل ذلك كان عمل العلماء . وقد ضُرب أبوحنيفة على تولية القضاء مرارا حتى رضى أن يكون عدادا للطوب خوفا على نفسه من معاونة الخلفاء مع أنهم كانوا أئمة الهدى . كل هذا نذر من كثير من عمل العلماء الذين رضوا بخدمة العلم والفقر إيثارا للآخرة على الدنيا ورغبة فى النجاة منها .

وكان المسلمون فى هذا العصر لايمضى يوم إلا وتفتح فيه الممالك ، وتدخل الأمم فى الإسلام رغبة وحبا فى التمسك به لا رهبة ولا خوفا على ضياع مال أو هلاك نفس ، ولكن شاهدوا من المسلمين حكما عادلا ، وعملا مقبولا للعقول ، وحالا تميل إليه النفوس ، وزهدا فيما فى أيدى الناس ، وسلامة ضمير ، وإعلانا بالحق والنصيحة لكل إنسان حتى كان يُضرب الشريفُ الأمير قصاصا إذا ضرب أحقر أهل الذمة ، مع الرحمة العامة والشفقة الحقيقية والمعاملة الطيبة . فكان المسلم يعامل الذمى كما يعامل أهله . إن كان كبيرا وقّره ، وإن كان صغيرا عطف عليه ورحمه ، فعشقتهم النفوس ومالت إليهم العقول، إلا أكابرهم من أهل السيادة الدنيئة الذين خافوا على سيادتهم ، فإنهم تعصبوا لدينهم حفظا للسيادة الفانية . هكذا كانوا وبهذا يكون من بعدهم .

دعوة إلى تجديد سنن ديننا :

أما نحن الآن فقد كثر عددنا وعُددنا ومالنا ولكنا صرنا تبعا أذلاء لا لقلة العدد أو لضعف الأجسام ، أو لأن بلادنا قاحلة لا تنبت ، أو لأن ديننا دين الكسل والبطالة وترك الدنيا وعدم الرقى والاختراع . لا ، بل ديننا دين العلم والعمل للدنيا والآخرة . دين البحث فى الآثار والفكر فيما أودعه الله تعالى فيها، وإظهار مكنون أسرارها المنطوية عليها للنفع العام . دين المجاهدة . دين الأخلاق الطاهرة . دين المعاملة الحسنة . دين التوحيد

(١) عند البخارى فى الدية ، ومسلم فى الإيمان : « يا أسامة : أقتلته ... بعدما قال لا إله إلا الله » وعندهما من رواية أخرى : « أقال لا إله إلا الله وقتلته ... » .

والاتحاد والائتلاف . دين الرحمة والشفقة . دين العمل النافع والسعى فى النفع العام لجميع خلق الله - سبحانه - والرحمة حتى بالنباتات والحيوانات فضلا عن بنى الإنسان . دين العدل والإنصاف . ليس دين رهبانية وخراب للدنيا وترك للعمل فيها كدين النصرانية . ولا دين تعصب و بغض لغير أهله والعمل لخاصة أهل الدين كدين اليهودية . بل هو الدين الذى أوجب على المسلم معاملة الذمى كنفسه . أوجب على المسلم أن يسعى ويجد ويجتهد . فرض الزكاة ليعمل المسلم فى جلب المال . فرض الحج ليسعى المسلم و ينتقل و يسافر. فرض الصيام ليرحم المسلم الفقير من أى دين كان . جعل المنازل فى الجنة بالعمل الصالح وعمل الإصلاح والصلح . حث على الزراعة وعلى التجارة وعلى الصناعة . وأمر بإعداد العدة بقدر الاستطاعة . كل ذلك لا يتوفر إلا بالتجارة والصناعة والزراعة . وفضَّل المتصدِّق على المتصدَّق عليه والرجل على المرأة بما أنفقه عليها . كل ذلك حث على العمل . أمر بالاقتصاد وتوفير المال وأخبر أن من أسرف يعاقب بالفقر، حث على الطب حتى جعل من يعالج نفساً مريضة كأنه أحياها . هذا وكل خير وفضيلة وسعادة فى الدنيا والآخرة لايمكن نوالها إلا بالتمسك بالسنة ، ومع ذلك فإنا تركنا السنة وأهملنا العمل بها حتى رمانا أعداء ديننا بأن ديننا دين الخمول والتأخر. ذلك مِنّا لا من ديننا . وإلا فتى تمسك قوم قليلون بالدين على حقيقته وتأخروا ؟ فهلم بنا نجدد سنن ديننا . وذلك لا يكلفنا أن نبذل أموالنا ولا أن نقتل أنفسنا ولكنا نأتمر بما أمر، وننتهى عما نهى، ونوالى من والى الله سبحانه ونعادى من عادى الله سبحانه ، ونقتصد فى زمننا ومالنا،فلا ننفق الزمن إلا فى كسب علم أو فن أو رزق أو محمدة أو قربة أو صلة ، ثم نحب إخواننا حبا يجمعنا . ولا يكون ذلك إلا بالزهد فى الأمل وفى الجاه عند الناس ، وفى الشهرة بينهم ، بأن نعطى كل أخ حقه فى غيبته كحضوره ، وننشط العمال ونستر الزلات ، ونعامل الله تعالى فى خلقه ، ونجعل معاملتنا خفيفة على إخواننا حتى تنحصر الأموال والصناعة والفنون فينا . فإن حصر المعاملة فينا تنشطنا وتجدد ملكة الاختراع والجد فى العمل ، ونبغض من أبغضهم الله تعالى من المجرمين والفساق والعصاة ولو كانوا آباءنا أوأبناءنا ، ونحب من أحبهم الله تعالى ولو كانوا غرباء فقراء بغضاء.والله الموفق لاغيره .

الـدِّيـنُ إِيمـانٌ وصِـدْقُ طَـوِيَّـةٍ ... وعُـلُـوُّ نَـفْـسٍ عَـنْ هَـوًى وَدَنِيَّـةٍ
وَيَـقِـيـنُ حَـقٍّ صَادِقٍ بِتَحَقُّقٍ ... بِـالْـحَـقِّ فِـى حَالِ صَفَا أَوْ شِدَّةٍ

ثِـقَـةٌ بِـرَبِّكَ عَنْ شُـهُودٍ خَالِصٍ وَعَزِيمَةٌ فِي مَحْوِ كُلِّ ضَـلَالَةٍ
وَتَـوجُّـهٌ لِلَّـهِ مِـنْـهُ بِـهِ لَـهُ فِـي نُـصْـرَةٍ وَتَـوَكُّـل بِـعَـزِيمَةٍ
الـدِّينُ إِقْدَامٌ عَلَى الْمَعْرُوفِ فِي مَـرْضَـاتِـهِ بِـظَـوَاهِـرٍ وسَـرِيـرَةٍ
حَـتَّـى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ بَلْ وَ يُـجَـاهِـدَ الأَعْدَاءَ بَعْدَ طَهَارَةٍ
وَ يَـبِـيـعَ لِلَّـهِ النُّفُوسَ وَغَيْرَهَا مَـحْـوًا لِـكُـلِّ غَـوَايَةٍ وَضَـلَالَةٍ
فَـإِذَا تَـطَـهَّـرَ كُـلُّ فَـرْدٍ مُـسْلِمٍ جُمِعَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِحِكْمَةٍ
وتَـأَلَّـفَـتْ و بِـجَـمْـعِهَا يَـبْدُو الْهُدَى وَ يَلُوحُ نُورُ الشَّرْعِ (يَهْدِى لِلَّتِي) (١)
وَ يَـسُودُ جَـمْـعُ الْمُـسلِمِين وَفَرْدُهُمْ وَ يَـذِلُّ أَهْـلُ الـكُـفْـرِ بَعْدَ مَعَزَّةٍ

الخلاص بالإخلاص :

تقدم الكلام على تعريف الإخلاص و بيان معناه بِمُثُلٍ محسوسة يعقلها العالمون فى كتاب : (معارج المقربين)(٢) ولما كان الإخلاص محله القلب الذى تنبعث منه الإرادة فالهمة فالعزيمة فالعمل ، كان عمل القلوب ولا شك هو الأول وعليه الإ ثابة والعقوبة ، ولا يظهر لعمل الجوارح كائنا ما كان . قال ﷺ : (إِنَّ الله رَفَعَ عَنْ أُمَّتِى السَّهْوَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه)(٣) ولما كان الخلاص متوقفا على معونة الله تعالى للمريد بالإخلاص ، ولا إخلاص إلا بعمل قلبى بدنى،ولا عمل إلا بعلم ، قال ﷺ : (النَّاسُ هَلْكَى إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ، وٱلْعَالِمُون هَلْكَى إِلَّا ٱلْعَامِلُونَ ، وَٱلعَامِلُونَ هَلْكَى إِلَّا ٱلْمُخْلِصُونَ ، وَٱلْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ) فتصريف المواجيد القلبية وأسرارها بالأعضاء العاملة لايكون إلا بعد علم بأصول الشريعة وفصولها ، مؤيد بنور الفقه من الله تعالى ومعونة بتوفيقه سبحانه وتعالى ، حتى تتميز المواجيد وتقوى العزيمة على عمل ما يوجبه الوقت مما هو خير فى الحقيقة ونفس الأمر، ويحبه الله تعالى و يرضى عن عامله ، وما لو تركه العاقل فى وقته وعمل عملا آخر ولو كان واجبا ــ لكان آثما .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) آية ٩ من سورة الإسراء .

(٢) هذا الكتاب وجميع مؤلفات الإمام المجددالسيد محمد ماضى أبى العزائم يطلب من دار المدينة المنورة للطباعة والنشر ١١٠ ش مجلس الشعب بالقاهرة .

(٣) عند ابن ماجه فى كتاب الطلاق : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان » وفى رواية أخرى « الله تجاوز عن الخطأ والنسيان » .

مثال ذلك : لو أن رجلا يصلى الفرض فى آخر الوقت ورأى أعمى على بئر يكاد يسقط فيه فأقبل على صلاته وتركه لكان آثما عند الله تعالى . والواجب فى مثل هذا أن يخرج من الصلاة بتأدية واجب الوقت . وفقيه القلب يكفيه قليل الحكمة . إذا تقرر هذا ، فليس لجاهل عمل مقبول لجهله بحقيقة الإخلاص فى العمل وعدم معرفته بواجب الوقت ، فقد يكون الواجب عليه شرعا السعى على المعاش فيصرف الوقت فى غير ذلك ، أو يكون الواجب عليه فى الوقت نوع من أنواع العبادة المالية أو البدنية أو القلبية كالصلاة والحج والصيام والصلاح والذكر والفكر وتعليم علوم الدين ، فيستعمل الوقت فى غير الواجب لجهله بحقيقة الإخلاص . وقد يكون المريد طاهر السريرة والنفس ولكنه جاهل بحقيقة الإخلاص فيسقط فى أوحال التوحيد ، و يكون العمل الذى يجب أن يكون لله معمولا لغيره ويحسب أنه يحسن عملا وذلك لتهاونه بنصيحة أهل العلم العارفين بالله وتلقيه منهم ما لابد منه للمريد المخلص . وقد كان المسلمون فى ماضى زمانهم لا تخلو مدينة من المدن من قائم لله بحجة ، بل كان أكثر الأمراء والقضاة والأئمة والعلماء أنجم هدى ، حتى لو وقع الرجل منهم فى شبهة أو مرضت نفسه يجد له مائة طبيب يستطب بهم كما تجد فى زماننا من كثرة أطباء الأبدان .

الإنسان فى زماننا هذا يفوق الشيطان :

أصبحنا فى زمان إذا ارتكب الرجل كبيرة تأباها نفوس الحيوانات و يبرأ منها العقل و يوعد القرآن فاعلها بالنار، يعمل هذا العمل مجاهرا أمام الناس بكونه أضَرَّ أخا له أو اكتشف عيوبه أو احتال حيلة فى أذيته أو قطع عيشه ، أو سعى به إلى ذى سلطان أو اكتسب من الميسر كذا ، أو شرب خمرا جيدا ، أو أفسد امرأة على زوجها مما لا يحصى . رأى جلساءه يثنون عليه و يفتخرون به فى مجالسهم ، فيستحسنون عمله و يسارع كل منهم إلى أن ينال منزلته من الشهرة .

انظر بعينك إلى ما يرونه مدنية وشرفا وحضارة وفخرا ، تر ما يذهب المروءة ويمحق الفضيلة و يفسد الأخلاق الطاهرة و ينجس النفوس الزكية ، حتى أصبح القبيح مألوفا حسنا ، والحسن مهجورا مسترذلا ، ذلك لأن الصغير يستحسن عمل الكبير و يألف عوائد فينشأ على تعوده صغيرا ، ومن شب على شىء شاب عليه . صار الهوى إماما متبعا حتى

اكفهرت معانى الإنسانية ، وتبدلت بالصفات البهيمية . فكأن الصورة الإنسانية صارت هيكلا يحوى نفْسًا بهيمية . بل قد يتبرأ الحيوان الأعجم مما عليه الإنسان ، و يقيم الحجة عليه بأنه إنما يرتكب الشدائد لسد ضرور ياته و يعمل مايعمل بغير رو ية وفكر . فالإنسان فى زماننا هذا يفوق على الشيطان ، لأن الشيطان يزين للناس مختفيا عن أعينهم ، وأشرار الناس يعملون القبيح ويجاهرون به و يفتخرون بوقوعه و يعظمون فاعله : (نَسُواْ ٱللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) (١)

لإسلام دين الرقى والمدنية :

أيها المسلم الذى أطعت هواك فعصيت ربك . غرك مالٌ تكتسبه أو جاه تفرح به أو قرب من ذى سلطان يستعملك لأغراضه فتأثم لخير غيرك ، ثم إذا بلغ مراده أخزاك فصرت عدوا لجميع الناس ممقوتا من الله وخلقه .تهاونت بشعائر الله التى أمرك بتعظيمها لشهوة تفنى وأمل كاذب . لا بالعقل اقتديت . ولا بالقرآن اهتديت . ولكنك غرتك الدنيا عن الآخرة فهو يت فى مهواة الخز يان و أُلبِسْتَ لباس الذل . تمسكك بالدين عزٌّ لك فى الدنيا والآخرة . انظر كيف صار حالك . صرت ذليلا بعد العز . يحكمك من كنت تملك رقابهم وتراهم عبيدا تتجر فيهم . بل بلغ بك الجهل بفضيلة دينك إلى أن حَسَّنْتَ رذائلهم ورأيتها فضائل ، حتى بلغ بك الذل أن حكموا فيك بغير كتاب ربك ، وجعلوك فى وطنك و بلدك لست أهلا للإكرام ولا محلا لأن تحكم نفسك بنفسك . بعيشك كيف كان ذلك ؟ أأنت كما يرمونك به أيها المسلم من أن دينك ليس دين الرقى والمدنية ؟ أو أنك لست إنسانا بمعناه الحقيقى ؟ لا،وكذبوا ، بل سبب ذلك تركك وصايا ربك وسنة نبيك . أمرك ربك فقال تعالى : (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا)(٢) وقال تعالى : (وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)(٣) أوصاك سبحانه فقال تعالى : (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ)(٤) وقال سبحانه آمرا : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وعَدُوَّكُمْ)(٥) وقال سبحانه : (لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ)(٦) وقال سبحانه : (لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

---

(١) سورة الحشر آية ١٩
(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣
(٣) سورة الأنفال آية ٤٦
(٤) سورة المائدة آية ٢
(٥) سورة الأنفال آية ٦٠
(٦) سورة آل عمران آية ٢٨

بِــٱلْمَوَدَّةِ)(١) وقال تعالى : (لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِــٱللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)الآية (٢).

هـذا بعض ما وصـانـا بهوأمرنـا جلّ جلاله بما يتعلق بمعاملة المسلم لغيره . و وصاياه سبحانه فيما يتعلق بالرحمة والعطف والود والصلة والبر والإحسان ومكارم الأخلاق وتعظيم شعائره سبحانه مِن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، ومراقبته جل وعز ، ودوام الفكرة فى نعماه ، والمحافظة على الإخلاص لذاته والخوف من عظمته ، والأخذ بالعزائم من سنن نبيه ﷺ آيات لاتحصى عدًّا ، يدركها من ألقى السمع لكتاب الله تعالى وهو شهيد . حثكِ الله سبحانه وتعالى على العمل فى الدنيا للآخرة ، قال تعالى : (فَــٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ)(٣) وقال تعالى : (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّــلَاةُ فَــٱنتَشِرُواْ فِى ٱلأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ)(٤) وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَ ٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَ ٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ)(٥) وقال تعالى : (مَن جَآءَ بِــٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)(٦) .

والحسنة أعم من أن تكون قولا أو اعتقادا أو صدقة،أو عملا نافعا للمسلمين،أو علما نافعا أو فنًّا من الفنون مفيدا،أو إحياء صنعة من الصنائع الضرورية ، إذا قصد بذلك النفع ابتغاء مرضاة الله ، أو اختراع ما به قوة سلطان المسلمين وراحة أبدانهم وتيسير حوائجهم ، وقال تعالى : (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)(٧) والآيات فى العمل فى الدنيا لطلب الله تعالى وطلب الآخرة لاتحصر فى كتاب الله .

هذا ما أمرك الله تعالى به . أفمن كان يدين لله بأحكامه هذه بإخلاص وصدق يذل لغير الله ، أو يرى غيره ممن دينهم يأمرهم بترك العمل فى الدنيا و بالرهبانية أنهم يصيرون ملوكا عليه وهو ذليل بينهم ؟

---

(١) سورة الممتحنة آية ١
(٢) سورة المجادلة آية ٢٢
(٣) سورة الملك آية ١٥
(٤) سورة الجمعة آية ١٠
(٥) سورة آل عمران آية ١٣٤
(٦) سورة الأنعام آية ١٦٠
(٧) سورة يونس آية ٢٦

المجد الذى ناله السلف الصالح :

ارجع أيها المسلم إلى تعظيم شعائر ربك ، والعمل بوصاياه سبحانه ، وتذكر المجد الذى ناله أسلافك وهم قليل عددهم ، مدقع فقرهم ، فى جاهلية مظلمة ، فما أشرق عليهم نور الإسلام وسرت فى قلوبهم روح الإيمان ، إلا وقاموا عمَّالا لله مقتدين برسول الله ﷺ . فما كان إلا برهة من الزمان حتى ظهرت الفضيلة فى جميع الأنحاء وانبعثت الأنوار على جميع الأرجاء ، وساد العدل بين الناس ، وحصلت المساواة بين الخلق ، حتى صار المسلم أخا المسلم،والكل عبيد لله ، إمامهم القرآن وهدى رسول الله ﷺ ، فأصبحوا كأنهم شموس أشرقت فأزالت ظلمات الظلم والجور، ونور علم انبعث فمحا الجهل وهزم ظلمات الأوهام فكأنهم كما قال الله تعالى : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)(١) ملكوا الأرض شرقا وغربا وكأنهم ليسوا ملوكا . وذلك لأن الْمَلِكَ الحقيقى هو القرآن يرضون إذا رضى و يغضبون إذا غضب . إذا أمر أطاعوا وعملوا . وإذا نهى امتنعوا وتركوا . حتى كان الرجل منهم إذا أمره القرآن أن يقتل ابنه أو يخرج من ماله لفعل بسرور ورضاء . هذا بعض ما كانوا عليه ، وأكل إليك ما وصلوإليه فى الدنيا من الحضارة والمدنية الحقيقية المؤسسة على الفضائل الكاملة ، والحضارة الفاضلة المشيدة على العدل والمساواة والتعاطف والتراحم . كان الذمى يرفع شكواه من أمير ولايته إلى الخليفة ــ أى الإمام الأعظم ــ فيقتص للذمى من أميره ، كما يقتص من أمير لأمير مثله ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

أنتجت تلك النتيجة التى كان القصد من مقدماتها وجه الله تعالى وإحياء لكلمته تعالى ومرضاة له سبحانه ، لالسياسة يقصد بها إرضاء المحكومين من الأمم أوانتشار الشهرة ، فإنهم رضى الله تبارك وتعالى عنهم مبرءون من تلك المبادئ الفاسدة المؤسسة على آراء أهل المدن الضالة والجاهلية . و بئست الأعمال ،أعمالٌ ظاهرها خير يقصد بها غير الله تعالى ، و يراد بها استعباد الأمم بالقوة القاهرة ، بحالة ظاهرها الرحمة و باطنها سلب الحقوق والأموال والقوة والسلطة من أيدى المستعبَدين . أنتجت تلك الأعمال المؤسسة على قواعد القرآن المجيد وقصد وجه الله الكريم وإحياء سنة نبيه ﷺ أن أكثر المخالفين من النصارى واليهود والمجوس سارعوا إلى الإسلام ، واعتنقوه بسرور و يقين كامل ، واعتقاد أنه الحق ،

---

(١) سورة الإسراء آية ٨١

وقاموا لخدمته بعد أن تركوا لغتهم ودينهم وعوائدهم بغضا لكل ذلك ، وحبا فى لغة القرآن وسنة رسول الله ﷺ ، فأتقنوا اللغة العربية وخدموا القرآن بالتفاسير الجميلة ، وبحثوا عن أحكام الدين و بينوها ، و بينوا غرائب أسرار القرآن وأسرار فصاحته و بلاغته . ولونظر العاقل إلى ما أُلف من الكتب فى فنون الفصاحة والبلاغة والتفاسير وعلوم حكم القرآن وغير ذلك ، لرأى أكثر ذلك منسوبا إلى غير العرب . لم يكن هذا لسياسة عمياء يريدون بها التقرب إلى الأمراء والوزراء.لا ، ولكن باشر اليقين الحق قلوبهم فانعقدت على محبة القرآن ومحبة السنة ومحبة رسول الله ﷺ . وإن كان بعض الأعاجم بلغ به الحب فى رسول الله ﷺ وفى عترته الشريفة إلى أن تغالوا فى تعظيمهم ، فذلك لما عاينته أبصارهم وفقهته قلوبهم من أخلاق فاضلة . وأسرار غالية . وعلوم عالية .

قوم يحبهم ويحبونه :

هكذا يكون تجدد هذا المجد وإعادة هذا الشرف بالعمل بالسنة والكتاب ، ومجاهدة النفس والحظ والهوى ابتغاء مرضاة الله تعالى .

على أنى لاأقنط من روح الله تعالى،ولا أزال على يقين أن الله تعالى يأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، يجدد بهم سننه ، ويحيى بهم معالم القرآن ومناهجه . يزهدهم فى الدنيا و يرغبهم فى الآخرة ، ويمنحهم الإخلاص لذات الله فى القول والعمل والحال والعقيدة ، حتى تزول تلك السحب الظلمانية عن شموس القرآن العلية ، وترتفع ستائر الحظوظ والأهواء والطمع والغرور عن قلوب المسلمين . والله سبحانه وتعالى بَشَّر بذلك فى كتابه المجيد بقوله سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ)(١) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

جمال القرآن وأسراره :

مما يدلك على جمال القرآن الذى إذا تجلى للأرواح تألهت بحبه ، وشاهدت من كنوزه الخفية وأسراره الغامضة مالا يحصر من الْحِكَمِ والعلوم جميعها ، ماتراه قام به علماء الإسلام

(١) سورة الحجر آية ٩

غير العرب من الروم و بلاد العجم . فقد دوَّنوا رضى الله عنهم في أسرار القرآن ؛ مما يتعلق بإعجازه و بلاغته وفصاحته ، وكشف ما فيه من أسرار علوم الطب والحكمة والفنون والقوانين التى أنزلها الله تعالى لعمارة الكون وسعادة العباد ، وشرح أسرار ماأودع فى الكائنات من الخواص والآيات والآثار ، وما جارى به العقل من البراهين القائمة على حقيقة التوحيد وجميل الأخلاق ، وتزكية النفوس وأسرار تكميلها حتى تبلغ من الكمالات أن يكون الإنسان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وما فوق ذلك من الأسرار الغيبية المتعلقة بمعانى الصفات الإلهية والأسرار الربانية ، مما لا ينطق به إلا مشاهد لأسرار الملكوت الأعلى ، عالم بغوامض أسرار الحكمة ، مطلع على مراتب الوجود ، عالم بالنسب التى بين تلك المراتب من العلوم والفهوم التى لم يتكلم بها إلا نبى مرسل أو صِدِّيقٌ لرسول من أولى العزم . ولم يختص بهذا الفضل مسلم دون مسلم بل عمَّ ذلك ، فترى علماء بخارى وخوقند وسمرقند ونيسابور وعلماء العراقين وأفغانستان والهند وعلماء الشام والروم والأندلس ومصر والمغرب — ممن لايحصى عددهم — قد قاموا فاستنبطوا جميع العلوم من القرآن ، وخدموا القرآن الكريم بجميع العلوم ، فكانت العلوم منه مأخوذة ، وكانت العلوم وسيلة لإدراكه وفهمه .

لم تختص تلك الأنوار والأسرار للعرب دون العجم ، لأن القرآن أنزله الله للناس كافة ، فكانت بشاشته تباشر القلوب فتطمئن بها ، والأنفس فتتألَّه لها فتنطلق الألسن بالحكمة العالية . وقد استقبل جماعة المسلمين كتب العلماء من غير العرب برضاء تام واستحسان تام وقبول وإقبال . وكان العلماء يكدون لنوال أرزاقهم ، و يفرون من الشهرة من معرفة الأمراء والولاة ، ابتغاء مرضاة الله وخدمة للصالح العام . ولن يزال هذا النور ساريا ، وتلك الشموس مشرقة . ولو أن الملائكة والعلماء العاملين اجتمعوا جميعا لكشف غوامض أسرار القرآن لما كوشفوا منه إلا بقدر ما تأخذ العصفورة من المحيط وما يعلم تأويله إلا الله تعالى .

الفــــصل الثـــالث

اليقظة من نوم الغفلة ورقدة الجهالة

قـال ﷺ : (إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ وَجِلاؤُهَا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى) وقال سبحانه وتعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ)(١) من هذا الحديث الشريف نفهم أن نوم الغفلة هو صدأ القلب بالغفلة عن ذكر الله ، ونعلم من الآية الشريفة أن رقدة الجهالة من الغرور بالحياة الدنيا ، و بإطاعة شيطان الحظ والهوى والشُّحّ والإعجاب بالرأى .

المراد من الذكر وأنواعه :

لما كان ذكر الله تعالى جلاء القلوب من الصدأ ، لزم أن نبين المراد من الذكر هنا بيانا يشرح للمطالع حقيقته . معلوم أن الغفلة عن الشيء لا تكون إلا بالاشتغال بغيره ، والغرور بالشيء لايكون إلا بحبه وعلم أنه خير وسعادة ولذة حتى يجنح إليه ويميل عن غيره متساهلا . فإذا حصل هذا فإنما يكون للجهل بحقيقة ما رغب فيه وما رغب عنه . إذ مَن رغب فى الفانى وجَدَّ فى طلبه تاركا الخير الباقى الحقيقى نحكم عليه بالجهل والحمق . ونبين له ضرر ما رغب فيه وخير ما رغب عنه ، ليتحقق خطأه و يعلم ضلاله ، فيتوب و يرجع إلى الصراط المستقيم ، و يندم على ما فرط فى جانب الحق . فإذا نُبِّهَ من نومة غفلته وأوقظ من رقدة جهالته ولم يتنبه ، علمنا أنه شَقِيٌّ لاحظَّ له فى السعادة الإنسانية ، ولا قسط له من الخيرات الحقيقية ، إلا أنه يجب علينا أن نعالجه بالأدوية المفيدة من الحكمة والموعظة الحسنة ، حرصا على نجاته بالهداية واتباع سبيل المؤمنين . و يكون بتعليم وكشف مبدئه ومعاده ، و بيان نعم الله عليه ، وتذكيره بعاقبة البغى والجهالة ، وإظهارما فى نفسه وما فى آفاقه من غرائب قدرة الله وعجائب حكمته سبحانه . كل ذلك مع إدخال البشائر عليه والمسرات ليحسن الإصغاء فلا ينفر ولا ينزعج . حتى إذا قام المرشد بهذا العمل ولم ينجح فى هذا الإنسان يكون الداعى قام بالواجب عليه حق القيام .

---

(١) سورة فاطر آية ٥

فيظهر من هذا أن ذكر الله تعالى محصور في نوعين: تذكير بالله في البداية حتى يعلم المريد قدر منن الله عليه، و يذوق حلاوة نعمه سبحانه، و يعرف نفسه وما فيها من الآيات، حتى تنكشف له الآيات و يسكن إلى الله سبحانه. وهذه هي الرتبة الأولى للذكر. ثم يكون الذكر في الرتبة الثانية وهو قسمان. الأول: ذكر القلب خاصة. والثاني: ما يشترك فيه القلب مع الجوارح.

ذكر القلب:

قال تعالى: (فَٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)(١) إشارة إلى ذكر القلب: (وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)(٢) إشارة إلى ذكر الجوارح، لأن الظاهر عنوان الباطن، وتارك الشكر بأعمال الجوارح كالكافر لنومة قلبه بالجهالة ورقدته بالغفلة عن مراقبة القادر الحكيم. وإنما تذكر الجوارح بالمحافظة على شعائر الله، إذا علم القلب العلم الحقيقي الذي تكون به الخشية من جلال الله تعالى، قال الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ)(٣) والخشية عمل من أعمال القلوب والعلم خزانته القلب. وقال ﷺ: يقول الله تعالى: (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائلينَ)(٤) وشرح ذلك والله أعلم، أن السائلين الذين يثني عليهم الله تعالى بأنه ـ جل ذكره ـ يعطيهم الفضل إنما يسألونه فضله ورضوانه، وليس شيء أفضل من الفضل والرضوان إلا المتفضل بهما سبحانه. فمقام الذكر هو هنا أرفع المقامات ولا يكون ذلك إلا بالقلب، فإن قوله ﷺ في الحديث: (شَغَلَهُ ذِكْرِي) أي شغل قلبه، لأنا نرى كثيرا من الذاكرين بجوارحهم قلوبهم مشغولة بغير معاني المذكور فهم ـ مع ذكرهم بالجوارح ـ مشغولون عن الله تعالى.

تِلْكَ الْمَظَاهِرُ والشُّؤونُ مَرَائِي ... فِيهَا تَلُوحُ لِمَنْ صَفَوْا أَسْمَائِي
فَالْعَارِفُونَ يَرَوْنَ سِرَّ تَنَزُّلِي ... وَالْجَاهِلُونَ مُرَادُهُمْ آلائِي
أَنَا ظَاهِرٌ لأُولِي الْقُلُوبِ مُشَاهَدٌ ... لأُولِي الصَّفَا مِنْ صَفْوَةِ الأُمَنَاءِ

(١) سورة البقرة آية ١٥٢

(٢) سورة البقرة آية ١٥٢

(٣) سورة فاطر آية ٢٨

(٤) عند الترمذي في ثواب القرآن: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي ... وذكر بقية الحديث»

أَنِسُوا بِأَنْوَارِى فَطَابُوا وَارتَقَوْا　　عَنْ ظُلْمَةِ الأَكْوَانِ وَالأَهْوَاءِ
فَهُمُو مَعِى بِقُلُوبِهِمْ وَمُرَادُهُمْ　　نَظَرٌ لِوَجْهِى بَعْدَ نَيْلِ رِضَائِى
لَمْ يَشْهَدُوا غَيْرى مُرِيدًا خَالِقًا　　فَمَنَحْتُهُم مِنِّى جَمِيلَ عَطَائِى
فَرِحوا بِفَضْلِى فَانْجَلَتْ لِقُلُوبِهِمْ　　شَمْسُ التَّجَلِّى فِى سَمَا الأَرْجَاءِ
شَرِبُوا مُدَامَ مَحَبَّتِى فَتَحَقَّقُوا　　بَعْدَ الشَّرَابِ بِصِحَّةِ الإِنْبَاءِ
طَابُوا بِهَا وَعَنِ الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ　　غَابُوا بِحُبِّى لاَيَرَوْنَ سِوَائِى
شُغِلُوا بِذَاتِى عَنْ شُؤُونِ تَنَزُّلِى　　فَأَنَا وَلِيُّهُمُ بِسِرِّ قَضَائِى
مَابَيْنَ شُكْرٍ لِى وَذِكْرٍ خَالِصٍ　　وَتَبَتُّلٍ وَتَضَرُّعٍ بِفَنَائِى
عَكَفُوا عَلَى ذَاتِى بِنُورِ قُلُوبِهِمْ　　فَأَبَحْتُهُمْ رُؤْيَا جَمَالِ بَهَائِى
فَهُمُ العَبِيدُ سُرُورُهُمْ بِىَ دَائِمًا　　وَأَنَا الْقَرِيبُ لَهُمْ بِعِزِّ خَفَائِى
طَرِبُوا بِرَاحِ مُدَامَتِى وَمَحَبَّتِى　　فَهُمُو شُمُوسٌ أَشْرَقَتْ بِسَمَائِى
لَمْ يُلْهِهِمْ كَوْنُ الْفَنَاءِ عَنِ الصَّفَا　　وَعَنِ الْبَقَاءِ بِصُحْبَةِ الأُمَنَاءِ
فَقُلُوبُهُمْ عَمُرَتْ بِنُورِ مَكَانَتِى　　وَنُفُوسُهُمْ تَاقَتْ إِلَى الْعَلْيَاءِ
نَهَجُوا عَلَى سُنَنِ الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ　　حَتَّى بِهِ وَصَلُوا بِكُلِّ هَنَائِى
يَارَبِّ صَلِّ مُسَلِّمًا وَمُبَارِكاً　　أَبَداً عَلَى شَمْسِ الْهُدَى وَضِيَائِى
والآلِ وَالأَصْحَابِ وامْنَحْنَا الرِّضَا　　وَتَوَلَّنَا بِالنُّورِ والآلاَءِ

إذا تقرر هذا فذكر القلب هو العلم بآيات الله تعالى المشرقة أنوارها فى الأنفس والآفاق، ثم بأسرار القدرة والحكمة، ثم مشاهدة تلك الآيات عن قادر حكيم. ثم شروق أنوار معانى الصفات لبيان حقيقة النفس للمشاهد وانكشاف مراتب الوجود وتميز المكانتين: مكانة واجب الوجود، وممكن الوجود. وظهور النسب الحقيقى بين العبد وربه ظهورا يتحقق به العبد بكمالات منزلته من الفقر والاضطرار والعدم وغيرها، و يتيقن بكمال ولاية الله ورأفته ورحمته، حتى يذوق لذة أنه سبحانه أولى به من نفسه، فتمتزج الرهبة بالرغبة، والخشية بالرجاء، والخوف بالطمع، والعظمة بالمحبة. عند ذلك يكون الحق أقرب للعبد من حبل الوريد. وليس شىء هو أقرب للإنسان من حبل وريده إلا قلبه الذى هو منبع حياته وقوام حواسه وخزانة ذخائره وكنز تحفه. وهو مقام يكون القلب فيه بيت الحق لا حيطة وإدراكا ولا علما للحقيقة

والكُنه . ولكن بعلم يتحقق به أنه سبحانه القادر الحكيم المبدع المصور المعطى الوهاب القريب المجيب إلى آخر الأسماء والصفات ، علما جعله يحب الله تعالى ويخشاه سبحانه ، فلا يغيب ولا يغفل ، ومتى كملت مشاهد القلب والقلب سلطان الجوارح . قال ﷺ : (أَلاَ وإنَّ فِي الْجَسَدِ لَمُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ أَلاَ وهى القلبُ) (١) ومعنى هذا الحديث الشريف أن القلب إذا صلح صلحت الجوارح لأن تقوم بما أوجبه الله تعالى عليها ورغبها فيه ، قياما يكون فيه رضوان الله ومحبته .

يَاقَلْبُ حَالَ الصَّفَا تَبْدُو مَعَانِيهِ ... تَكُونُ عَرْشَ اسْتِوَاءٍ عَنْ تَجَلِّيهِ
تَكُونُ يَاقَلْبُ مَعْمُوراً وَمُبْتَهِجًا ... بِمَا تَنَزَّلَ نُورًا مِنْ أَيَادِيهِ
يَدُومُ أُنْسُكَ بِالْمَحْبُوبِ إِنْ ظَهَرَتْ ... شَمْسُ الْمِثَالِ بِرَمْزٍ عَنْ مَجَالِيهِ
يَاقَلْبُ يَابَيْتَهُ الأَعْلَى وَصُورَتَهُ ... تَقَلُّبًا فِي الْمَعَانِي لاَمَبَانِيهِ
أَنْتَ الْمُحِيطُ بَأَنْوَارٍ مُقَدَّسَةٍ ... قَدْ ضَاقَ عَنْهَا مُحِيطُ الْكَوْنِ عَالِيهِ
وَسِعْتَ شَمْسَ الْمَجَالِي عَنْ تَنَزُّلِهَا ... وَالْعَرْشُ قَدْ ضَاقَ عَنْهَا ذُقْ مَبَادِيهِ

مراتب ذكر القلب:

وللقلب مراتب فى الذكر ، فأول مرتبة من مراتب ذكره بعد العلم المتقدم:مقام التوبة وهو مقام علىٌّ تُنَالُ به محبة الله تعالى . قال سبحانه وتعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ)(٢) وقد شرحنا مقام التوبة فى كتاب:(أصول الوصول) شرحا بين مجمل مسائله ، فليراجعه من أحب أن يتجمل بهذا المقام .

الرتبة الثانية من مراتب ذكر القلب : مقام المحبة ، فالخشية ، فالخوف ، فالطمع والرجاء ، فالصدق ، فالإخلاص ، فالتوكل ، فالتفويض ، فحق اليقين بالتوحيد . فمراتب الكمال لذكر القلب تقدم الإشارة إليها رمزا فى المواجيد النظمية ، إذ حقائق التوحيد لا تسطر فى الأوراق ولا تسعها العبارة . ولذلك كان بيانها من اللسان للأذن للقلب

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان ومسلم فى المساقاة ، وابن ماجه فى الفتن ، والدارمى فى البيوع ، ومن رواية أحمد : « ألاوإن فى الإنسان مضغة ...الحديث » المسند ٤/ ٢٧٠ ، ٢٧٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٢

بالإشارة . ورسمها فى الكتب بالرمز صونا لسر الحق جلت قدرته من أن تتناوله الأنفس اللقسة ، فوضع بالرموز والكنايات والإشارات ليذوق منه الواجد على قدر مقامه من الذكر. وهذه مقامات ذكر القلب ، وقد شرحنا جملا منها فى كتاب : (أصول الوصول) وكتاب : (معارج المقربين) وكتاب : (مذكرة المرشدين) وفصلنا بعض ما أجمل منها فى كتاب : (شراب الأرواح) فراجعها عند احتياجك لتزن حالك وتعلم مقامك والله ولى المؤمنين .

إشارة إلى أسرار القلوب :

وإليك ما يمكن وضعه فى مثل هذا المختصر من الأبيات التى تشير إلى أسرار القلوب من غير خفاء ولا رموز:

أَيُّهَا الْقَلْبُ بِالْجَمَالِ الْعَلِىِّ ... فَأُنْسًا لَا بِزَهْرَةٍ وَدَنِىِّ
يَافُؤَادِى وَأَنْتَ بَيْتُ عُلَاهُ ... عَرْشُ أَنْوَارِهِ بِمَعْنًى جَلِىِّ
وَاجِهَنْ نُورَهُ بِهِ وَتَنَعَّمْ ... بِجَمَالٍ مُقَدَّسٍ أَزَلِىِّ
وَمِنَ الْأُفْقِ أُفْقِ جَهْلٍ وَظُلْمٍ ... فَتَجَرَّدْ لِأُفْقِ أَعْلَى أُخَيِّى
أَيُّهَا الرُّوحُ بَعْدَ صَفْوِى وَقُرْبِى ... فَاكْشِفِ الْحُجْبَ عَنْ جَمَالٍ خَفِىِّ
سَالِمِى هَيْكَلِى وَكُونِى سِرَاجاً ... فِى سَبِيلِى وَمُؤْنِسًا فِى رُقِىِّ
نَاوِلِيهِ بِقَدْرِهِ الرَّاحَ حَتَّى ... يَتَهَنَّى فِى حِصْنِهِ الشَّرْعِىِّ
وَلَدَى الْحَالِ لَاحِظِيهِ بِرِفْقٍ ... كَىْ يَنَالَ الْبُشْرَى بِمَعْنَى الْوَفِىِّ
أَيُّهَا الرُّوحُ أَنْتِ مَلَكٌ كَرِيمٌ ... وَالْمَبَانِى مِنْ عُنْصُرٍ آدَمِىِّ
رُكِّبَتْ مِنْ عَنَاصِرَ وَاسْتَعَدَّتْ ... لِلْمَقَامِ الدَّنِىِّ أَوْ لِلْعَلِىِّ
هِىَ بَيْتٌ إِمَّا لِإِبْلِيسَ مَأْوًى ... أَوْ لِنُورٍ مُنَزَّهٍ وَاحِدِىِّ
إِنْ تَزَكَّتْ مِنْ حَظِّهَا وَهَوَاهَا ... فَهِىَ كَالْعَرْشِ لِاسْتِوَاءِ الْوَلِىِّ

* * *

إِنْ أَضَاءَتْ لِلرُّوحِ شَمْسُ التَّجَلِّى ... أَشْهَدُ الْوَجْهَ حَيْثُ كُنْتُ أُوَلِّى
هِىَ شَمْسٌ إِنْ أَشْرَقَتْ لِفُؤَادٍ ... صَارَ بَيْتًا مُجَمَّلاً لِمُصَلِّى

شَمْسُ قُدْسٍ تَلُوحُ فِي حَالِ صَفْوٍ لِمُرَادٍ صَفَا بِسِرِّ التَّخلِّي
أُفْقُهَا الْقَلْبُ إِنْ أَضَاءَتْ تَرَاءَى أَنَّ ذَا الْقَلْبَ عَرْشُ مَجْدٍ وَوَصلِ
يَتَجَلَّى نَاسُوتُهُ بِجَمَالٍ وَهُوَ لَوحٌ لِآيِ نُورٍ وَقَولٍ
آهِ لَوْ أَنَّهَا تَرَاءَتْ لِعَيْنٍ شَهِدَتْ نُورَ مُبْدِعٍ مُتَجَلِّي
لَا تَرَاهَا إِلَّا قُلُوبٌ تَحَلَّتْ وَتَخَلَّتْ عَنْ مُقْتَضَى كُلِّ سُفْلِي
أَيُّهَا القَلْبُ بَعْدَ أَنْ صِرْتَ عَرْشًا لِظُهُورِ الْمَعْنَى وَسِرِّ التَّجَلِّي
هَلْ تَفِيضُ الْأَنْوارُ حَتَّى أُهَنَّى بِشُهُودِ الْمُرَادِ مِنْ غَيْرِ ظِلٍّ

* * *

الْقَلْبُ فِي بَهْجَةٍ بِجَمَالِ رُؤْيَتِهِ وَالرُّوحُ سَكْرَى بِكَشْفِ جَمِيلِ طَلْعَتِهِ
وَالْعَيْنُ فِي لَهْفَةٍ تَشْتَاقُ تَشْهَدُهَا بِهِ فُؤَادِيَ فِي أُنْسٍ بِبَهْجَتِهِ
وَالنَّفْسُ مَا بَيْنَ قَلْبِي بَلْ وَ بَاصِرَتِي تَأَلَّهَتْ لِمَعَانٍ مِنْ حَقِيقَتِهِ
فِيهَا أَضَاءَتْ وَلَكِنْ سُتِّرَتْ بِسَنَا أَنْوَارِ غَيْبٍ بِمَعْنَى سِرِّ صُورَتِهِ
تُرَى الزُّجَاجَةُ والْمِشْكَاةُ وَهِيَ عَلَى غَرَامِهَا فِي اصْطِلَامٍ فِي مَعِيَّتِهِ
إِنْ شَاهَدَتْ آيَ مَعْنَاهُ مُنَزَّهَةً تَاقَتْ إِلَى الْغَيْبِ فِي وَلَهٍ لِحِيطَتِهِ
وإِنْ مَحَا نُورُهُ الْأَعْلَى مَعَالِمَهَا حَنَّتْ إِلَى مَظْهَرٍ عَنْ نُونِ نِسْبَتِهِ
وإِنْ تَجَلَّتْ مَعَانِي سِرِّ وحْدَتِهِ تُنْبِي بِعَظَمُوتِه وَعَجِيبِ حِكْمَتِهِ
تَتَيَّمَتْ بِشُهُودِ الْآيِ وَاجِدَةً وَجْدَ الْمُوَلَّهِ مِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ
مَا بَيْنَ نَفْسِي وَرُوحِي بَلْ وَ بَاصِرَتِي كَالثَّلْجِ وَالنَّارِ قَدْ جُمِعَا بِرَحْمتِهِ
لِلرُّوحِ مَجْلَى كَمَالٍ فِي نَزَاهَتِهِ وَالْقَلْبُ كَشْفُ التَجَلِّي عَيْنُ بُغْيَتِهِ
وَعَيْنُ رَأْسِيَ سِرُّ الْآيِ مَطْلَبُهَا وَالْآيُ قَدْ سُتِرَتْ بِجَمَالِ عِزَّتِهِ
صِرْتُ الْمُؤَلَّهَ لَا أَنْفَكُّ مِنْ وَلَهٍ نَفْسِي وَرُوحِي وَعَيْنِي بَعْدَ رُؤْيَتِهِ
لَايَنْتَهِي وَلَهِي أَبَداً وَقَدْ جُمِعَتْ كَمَا عَلِمْتُ مَعَالِيمِي بِحِكْمَتِهِ
عَنَاصِرِي هِيَ أَرْكَانُ الْوُجُودِ إِذَا فَقِهْتُهَا سَكَنَتْ نَفْسِي لِحَضْرَتِهِ
عَجِيبُ قُدْرَتِهِ وَغَرِيبُ حِكْمَتِهِ وَجَلِيُّ آيَاتِهِ وَعَمِيمُ نِعْمَتِهِ
قَدْ حَيَّرَتْ أَنْفُسًا طَهُرَتْ لَطَائِفُهَا وَأَوْقَفَتْ كُلَّ عَقْلٍ عِنْدَ رُتْبَتِهِ

الذكر الذى يشترك فيه القلب مع الجوارح :

هو الذكر العملىّ الذى يسمى شكرا ، قال تعالى : (ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ)(١) فعمل الجوارح ذكر وشكر فى آن واحد كما قال الله تعالى : (يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ)(٢) فجميع الجوارح تشترك فى عمل الذكر ، ولا يكون هذا العمل عملا شرعيا معتبرا إلا إذا كان صادرا عن القلب بحسن نية وإخلاص وجهة ، و يقين حق عن شهود أو علم ، حتى تكون المواجيد القلبية والإرادة والعزيمة لذات الله فى مقام حق اليقين ، أو لنوال الفضل والرضا فى رتبة عين اليقين ، أو خوف من جلاله وعقوبته فى منزلة علم اليقين ، وتكون أعمال الجوارح بعد هذا التحقيق على طريقة سنية ، واقتداء بالأئمة الهداة الراشدين المرشدين ، مع ملاحظة مقتضى كل نفَس عند أهل التمكين ، وكل وقت عند أهل التلوين ، وكل يوم عند السالكين ، حيث تكون الأنفاس عند أهل التمكين فى مشاهدة ومراقبة . والساعات عند أهل التلوين فى خوف ورجاء وحيرة وأحوال ، والأيام عند السالكين فى توبة واستغفار، قياما بالتكاليف ، وطلبا فى التعرف والفوز بالخير الأبدى الذى هو خير فى منزلتهم .

هذا هو الذكر الذى يشترك فيه القلب مع الجوارح .

إِذَا لَاحَ مِنْ قَلْبِى ضِيَاءُ بَصِيرَتِى ... تَنَوَّرَ نَاسُوتِى بِأَنْوَارِ شِرْعَتِى
وَلَاحَتْ لَهُ أَنْوَارُ غَيْبٍ مَصُونَةً ... تَعَالَتْ عَنِ التَّشْبِيهِ أَوْ عَنْ إِشَارَةِ
وَذَاقَ مِنَ الْعَيْنِ الْعَلِيَّةِ رَاحَهَا ... شَرَابًا صَفَا مِنْ حَضْرَةٍ وَاحِدِيَّةِ
وَفِى الْوَادِ : وَادِى الْقُدْسِ يَرْتَعُ سَابِحًا ... يُشَاهِدُ أَنْوَارَ الْعُلُومِ الْجَلِيَّةِ
وَ يَشْرَبُ مِنْ حَوْضِ الشُّهُودِ سُلَافَةً ... مُدَامًا صَفَا يُعْطَى لِأَهْلِ الْمَعِيَّةِ
لَدَيْهَا يَلُوحُ النُّورُ مِنْ ظَاهِرٍ إِلَى ... عَوَالِمِ أَرْجَاءِ الْفُؤَادِ الْخَفِيَّةِ

* * *

---

(١) سورة سبأ آية ١٣

(٢) سورة آل عمران آية ١٩١

فاذا لم تصدر أعمال الجوارح عن مواجيد القلب فذاك عناء وغفلة ، وإن صدرت أعمال الجوارح عن قلب يقصد غير رضوان الله وفضله وغير ثوابه والنجاة من عقابه ، بأن صدرت عن القلب لشهرةوسمعة أو لعلوفى الأرض ورياء أو لطلب دنيا فانية فذاك النفاق بعينه نعوذ بالله منه . والنفاق هو أن تكون العلانية علانية الصديقين ، والسر يرة سر يرة الشياطين ، والمغرورون الذين يطلبون الدنيا بعمل الآخرة (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)(١) فما من عمل من أعمال الجوارح إلا وهويتعلق به عدة أحكام شرعية فى كل مرتبة من مراتب الرجال . منها ما يختص بالقلب وهو من أعمال القلوب ، كأن يلاحظ العاملُ القادرَ الذى منحه القدرة على الحركة ، وخلق له الأعضاء التى تتحرك، والمكان الذى يتحرك فيه، وأمده بالنسيم الذى يتنفس منه ، والنور الذى يرى به الأشياء فيتحرك إليها ، والعضو الذى يبصر به الشيء الذى تحرك إليه ، و يشاهد الحكيم ــ سبحانه ــ الذى منحه العقل يدرك به النافع فيتحرك إليه والضار فيجتنبه ، يدرك به خواص الأشياء وفوائدها فيستعملها فيما لابد منه وأكمل ، فيكون بقلبه مشاهدا لر به حاضرا معه ، و يستحضر القلب فى هذا الوقت حكم الشرع فى تلك الحركة واجبة هى أو مندوب إليها أم مباح عملها أم منهى عنها ، فيكون عاملا بسنة رسول الله ﷺ .

مايلزم للمريد فى أعمال الجوارح :

هذا ما يتعلق بالقلب مما لابد منه للمريد السالك حتى يتجمل بحقيقة علم التوحيد ، فإذا قصر عن هذا فهو غافل القلب بعيد عن الرب محجوب عن مشاهد المقربين والأبرار . أما ما يتعلق بالجوارح فيلزم أن يلاحظ فى كل عمل من أكل وشرب ونوم وتعظيم و بيع وشراء وحرفة وصلاة وصيام وزكاة وحج وزواج وختان ومجالسة ومعاشرة وجيرة ، وغير ذلك من جميع الأعمال كيف كان يعمل ذلك رسول الله ﷺ ، ثم يقتدى فى ذلك بأئمة الهدى فلا يعمل عملا إلا بعد العلم اليقين أنه مطابق لسنة رسول الله ﷺ وعمل السلف الصالح ؛ حتى يكون على طريقة سُنِّيَّةٍ وحالة سَنِيَّةٍ ، فإن كملت مواجيد قلبه وعمل بجوارحه على غير الطريقة السُّنِّيَّةِ متساهلا بتعاليم سنته ، والتلقى عن العلماء حبا فى العمل وجهلا بقدر

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٤

العلم وأهله ، فذاك قد يمن الله عليه لكمال إخلاصه بمحبة العلم والعلماء حتى ينتقل إلى السير على المنهج الحق. وإن ترك التعلم لجهله بقدر نفسه فذلك مبتدع ،ربما ابتلى بمرض الكبر والعياذ بالله فأنساه الغرورُ ذكْرَ الله ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾(١).

الأعمال المشتركة بين القلب والجوارح :

محصورة فى أعمال بدنية خاصة . أو مالية خاصة . أو بدنية مالية . أما الأعمال البدنية فالصوم والصلاة وذكر الله القلبى فكرا واستحضارا و يقينا ورغبة ورهبة وتعظيما وخشية وخوفا وطمعا وحبا ، وغير ذلك من مقامات اليقين ، والجهاد فى سبيل الله بالنفس للمعدم ، ومعاونة المسلمين بغير المال : كالعيادة وتشييع الجنائز وإماطة الأذى عن الطريق وقيادة الأعمى والمساعدة بالجاه ورد غيبة المسلم ، وكطلب العلم وتعليمه ، وحفظ القرآن المجيد ، والصلح بين الناس ، وكغض البصر عن العورات ، والبشاشة وحسن الإصغاء والمخاطبة ، وحمل أحوال الإخوان على أجملها ، والإحسان إلى المسيء بالقول الحسن ، والعفو وكظم الغيظ والصبر عند لزومه ، وحب المسلمين ، و بغض أعمالهم المخالفة للسنة بغضا يجعله يكره العمل و يكره أن يقع فيه و ينفر منه وتنزعج نفسه من رؤيته أمامه ولو كان العمل ملائما للطبع ولذة عاجلة أو خيرا فانيا من حظ أو شهرة أو سيادة أو مال أو أصدقاء ما دام هذا العمل منهيا عنه شرعا ، فيكون لبغضه فيه متمثلا قبح صورته ، ومستحضرا عاقبته ، ومشاهدا عقوبته ، وعالما أنه رذيلة لأن الشارع سبحانه وتعالى حرمه ، و يبغض الكافر، و ينفر منه بقلبه وجوارحه . اللهم إلا أن يتقى منهم تقاة ، فالمداراة أسلم ، وليحذر ذات الله من أن توقعه الملابسة والمجالسة فى المجانسة ، فيبوء بسخط الله وغضبه ، نعوذ بالله من ذلك ، وليستحضر قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ

(١) سورة الجاثية آية ٢٣

ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(١) استحضارا يعلم به سبل النجاة من السقوط فيما يسلب الإيمان من القلوب ولو كانت الأبدان عاملة بالطاعات قال ﷺ :(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَنظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِن يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَإِلَى أَعْمَالِكُمْ)(٢) والمداراة إما طمعا فى تأليف للدين أو دفعا لمضرة لاقبل له بها ، وليس هذا بالدعوى فإن علاَّم الغيوب لاتخفى عليه خافية .

ومن الأعمال البدنية النظافة لله ، وتحسين الهيئة تحدثا بنعمته ، وتعلم حرفة أو صنعة أو عمل يعمله ليستغنى عن سؤال الناس بالله تعالى ، ومنها تعلم السباحة والرماية والكتابة وتدبير النفس والمنزل حتى يكون عضوا عاملا فى الجسد الإسلامى ، مقتديا بالسلف الصالح وإما ما لمن بعده ، والأعمال البدنية الخاصة بالبدن لا تخفى على بصير ، خصوصا أعمال الفطرة كإعفاء اللحية وحف الشارب وقص شعر الرأس ونتف الإبط وَقَلْمِ الأظفار وحلق العانة والختان والخفاض ونظافة الجسم وغير ذلك ، مع النية بأن هذا العمل لله تعالى اقتداء بسنة رسول الله حتى يتشبه به صلوات الله وسلامه عليه بقدر الاستطاعة .

الأعمال التى يحتاج فيها الفرد إلى الاشتراك مع غيره

فى المجتمع المنزلى :

إما أن تكون فى المجتمع المنزلى كمعاملة والديه وأخواته وإخوانه وزوجته وأولاده ومواليه ، وهذا المجتمع الصغير هو الكبير فى حقيقة الأمر ، وأحوج إلى الحكمة والتدبير من كل مجتمع وأحق بالمحافظة عليه والعناية به والحرص على أن يكون منظما تنظيما يضمن رغد العيش وطيب الحياة ودوام الراحة وإسباغ النعمة . والحكيم الحقيقى من أمكنه أن يدبِّر منزله تدبيرا حقيقيا ، فإن المنزل هو الأم وأس المجتمع وسبيل سعادة الأفراد والجماعة ، ومن أمكنه حسن نظام منزله أمكنه أن يكون إماما لأكبر مجتمع . فإن تدبير المنزل به تربية رجال

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ — ٢٧

(٢) أخرجه مسلم فى البر ، وابن ماجه فى الزهد ، وأحمد فى المسند ٢/٢٨٥ ، ٥٣٩ .

عاملين لخير المجتمع، ونساء عاملات لسعادته، ومتى أهمل تدبير المنزل ساءت حالة الأمة وشب الأبناء على الإهمال والإسراف فى الوقت وفى المال والعرض، وتولّدت الضغائن فى قلوب الأهل والأقارب، وجهلوا قدر التعاون وقدر حقوق النسب وصلة الرحم، وغفلوا عن معرفة قدر المجتمع المنزلى مع شهود فوائده حسا، وتحقق كل فرد باحتياجه الشديد لمعاونة الآخر المعاونة التى لايمكنه أن يعيش بدونها، الأمر الذى يكفى أن يكون داعيا لتوثيق روابط المحبة وتبادل أسباب الألفة، والإخاء، وتربية النفس على حب الأهل وبذل المال والجاه لاستجلاب مودتهم وألفتهم، لأنهم هم الأعضاء المتممة لجسمه ولغيره بل لجميع ضرورياته. فإذا نمت تلك المحبة الطيبة لنمو الجسم، وسرت تلك الفضيلة فى أفراد العائلة بل فى أعضاء الجسد الممثِّل لعائلة، كان كل فرد كعضو نافع لجميع الجسد بقدر صحته وعافيته بحيث لايستغنى عنه. و يكون للجسم من القوة والراحة والسعادة بقدر ما يكون للجسد من المنفعة بأكمل أعضائه، فيكون الأخ الشقيق أو لأم أو لأب فى المنزلة الواحدة كاليمنى بالنسبة لليسرى، أو كالعين بالنسبة لأختها، و يكون الأخ كاملا بالنسبة للوالد فيكون الأبناء مقتدين بالآباء، يرى الولد عمه بالعين التى يرى بها والده، وخاله بالعين التى يرى بها والدته، يبذل كل رخيص وغال فيما فيه سعادة الجميع ليعيش المجتمع المنزلى سعيدا راقيا، يحب الخير لكل فرد منهم لأن خير كل فرد هو خير الجميع. فإذا كمل المجتمع المنزلى وتكمل مجتمع الحلة أو السكة يتكمل بهما مجتمع القرية ثم المدينة.

الأمة على نمط المجتمع المنزلى:

ثم تتكون الأمة على نمط المجتمع المنزلى حتى تكون الأمة جميعها كجسد واحد قائم بكل عضو منه، وكل عضو قائم بكل الجسد، بحيث تكون السعادة الحقيقية منقسمة على كل فرد بقدر منزلته من الجسد الإسلامى، ففرد كالقلب وآخر كالعين وكاليد وكالرجل وكالأذن وكاللسان وكالأصابع وكالمعدة والأمعاء والكليتين والطحال، وتكون أعمال الأمة منقسمة على الأفراد كتقسيم أعمال البدن على جميع أعضائه، و يكون الرئيس هو القلب، والنور الذى يستمد منه القرآن المجيد والسنة النبوية وهدى الأئمة الراشدين المرشدين، ويمد بهذا النور جميع أعضائه العاملة عمل الوزراء كالكبد والكليتين والرئتين، وكأعضائه المنبثة فى النواحى كالعينين والأذنين والأنف والذوق واللمس الممثلة بكبار الجند، وكأعضائه

العاملة لحفظ الجسد والعناية به كالمعدة والأمعاء والأسنان واللسان المعين على بلع الطعام والأجهزة البولية وغيرها ، وهم الصناع والعملة أهل الكد فى المجتمع الإسلامى .

فيكون الإمام الأعظم عالما بقدر فوائد أصغر عامل للجسد وأصغر صانع ، ومقدّراً قدر المزايا التى تنال الجسد الإسلامى منه ، ناظرا إليه بعين الأخ النافع والعضو العامل ، حتى يكون كل فرد فى عون كل فرد لعلمه بضرورة ذلك ، وتحققه من أن ذلك هو السعادة فى الدنيا والآخرة ، و يكون أصغر صانع عالما بقدر النفع العائد عليه من بقية الأفراد من الأمن والعدل والسلامة وإعلاء الإسلام وإحياء السنة وسعادة المسلمين ، فيحصل الحب الحقيقى لله تعالى ولجميع الإخوان المسلمين ، و يكون المجتمع الإسلامى فى أى بلد وأى جهة متماسكا تماسكا حقيقيا ، مؤتلفا ائتلافا حقيقيا ، ينمو فى كل نفَس و يعلو فى كل يوم وتدوم سعادته وخيره و بره أبداً ، بل و يكون سكان الأرض من مشارقها إلى مغاربها فى سعادة وسرور بهذا المجتمع . المسلمون وغيرهم .

وهذا التدبير المنزلى وغيره لايمكن أن يكون كاملا حقيقة إلا إذا كانت التربية مطابقة للقرآن المجيد ، وسائرة على وصايا النبى ﷺ وعمل الأئمة بعده ، حتى يكون فى كل قلب غيرة على الحق وحب فى الحق ، ورغبة فى نوال السعادة الحقيقية التى لا تنال إلا بكمال التمسك بالكتاب والسنة قولا وعملا وحالا .

نتائج إهمال التربية :

فإذا أهمل المسلم تربية نفسه حتى فسدت أخلاقه وساءت عقيدته وصار كالحيوان الأعجم ، أو الشيطان المارد أفسد المنزل كما ترى الآن . ترى المسلم وهو يدّعى الإسلام يقطع رحمه ليصل الدنيا ، و يعق والديه لينال شهوته ، و يتمنى لقريبه الموت ليرث ماله ، بل تراه يقتل أخاه لأبيه وأمه لينال مالا يدخره لأولاده ، ويجهل المغرور أن أخاه أولى به من أولاده وأن أولاده الذين يرثون ما جمع لهم بظلم أخيه يأتى عليهم وقت ربما قتلوه ليأخذوا أمواله ، وعمل كل واحد منهم فى أخيه ما عمله أبوهم فى أخيه . انظر إلى المسلم تراه واقفا أمام الحاكم الذى يحكم عليه بغير الكتاب والسنة ، ينتظر أن يحكم على أخيه له ثم يطلب عقوبة أخيه بالحبس ، ويخرج فرحا مع أولاده ومع زوجته وأقارب زوجته كأنهم فتحوا بلادا

للمسلمين . فهل مثل هذا يكون قد هذب أولاده وعلمهم صلة الرحم ؟ لا والله ، ولكنه أفسد أخلاقهم وجعلهم كالطاعون لبعضهم . ثم انظر إلى المسلم يسعى ليسقط أخاه المسلم عند من له عليه سلطة من غير المسلمين لينال وجاهة أخيه أو منزلته أو ماله ، بل ليؤذيه و يضره بدون أن ينال كسبا إلا السرور بأذية أخيه على يد غير المسلم ، ثم يتوجه فيخبر زوجته وأقاربها أمام أولاده و يفتخر بهذا العمل ، ويمدح من عمل مثله فيخلّق « الحاضرين » بأخلاقه . وقد يسعى بهمة فى إظهار عيوب المسلمين أمام غيرهم ليتمكنوا من مؤاخذتهم عليها وإذلالهم . هذا لعمرى عمل الشياطين وأشر الوحوش الضارية . فمن كان هكذا فهو والله من أشر الشياطين ، وأضر الأمراض على المسلمين . كيف يفرح مسلم أن يحكم على أخيه غيره بغير الكتاب والسنة له ؟ فيرضى بحكم غير القرآن و يفرح بإساءة أخيه و ينسى قدر الإساءة التى أساءها إلى نفسه وإلى الإسلام والمسلمين وإلى المروءة والفضيلة ، ويجهل قدر ما خسر فى جانب ما اكتسب ، والله سبحانه وتعالى يمن علينا بالنور والهدى آمين .

مراتب اليقظة

المرتبة الأولى :

العلم بالحَسَنِ شرعا ، والقبيح شرعا ، بعقل يعقل علماً يمكّن النفس من استحضار فوائد الحسن العاجلة والآجلة ، حتى يحصل له الشوق والميل إلى عمله مع ما فيه من ألمها وهجر مشتهياتها لما تناله فى العاجلة من حسن السمعة والاحترام والقرب من أهل الجاه والتقوى فى عاجلة الأمر وما هى واثقة بنيله بعد مفارقة كون الفساد ودار الزوال ومنزلة النُّقلة إلى النعيم المقيم فى دار البقاء ونزل السعداء ، مع ظهور قبح القبيح حِسًّا وإن كان يلائم النفس وتشتهيه لما تجده من الألم العاجل ، لتعلم من سوء السمعة ونفور الناس والشهرة بالرذائل وقبح الحال ، حتى أن ضمير الإنسان قد يحكم عليه بالدناءة والخزى و يكون دائما محتقرا أمام نفسه ، يستحى أن ينكر القبيح ويخجل من مقابلة الناس العقلاء الصالحين المصلحين ، و يشتد خوفه إذا ذكر عقوبة ذنوبه يوم الحساب ، إذا لاحظ الإنسان تلك الملاحظات دل ذلك على يقظة قلبه ، وتلك الملاحظة تجعله يقلل المعاصى ويميل إلى الطاعات .

المـــرتبة الثـانية :

التوبة والإقلاع عن فعل القبيح مطلقا خلقا أو عملا أو قولا ، نادما على ما حصل منه عازما على أن لايعود إلى الذنوب ، ولا تكون التوبة خالصة حقيقة إلا إذا كان الداعي إليها التصديق الجازم عن علم يقين بيوم الحساب ، والرغبة الحقيقية فيما عند الله بالقلب المخلص ، لا لفقد ما يعينه على العمل أو فقد ما يعمل به أو خوف عقوبة الخلق أو طلب شهرة وسمعة أمام الناس أو منزلة ووظيفة حتى إذا تمكن عمل . فمن أخلص لعلمه اليقيني وأقلع وأناب عازما على أن لايعود ووقع فى الذنب فله أن يتوب (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ)(١) ومن أقلع لغرض أو مرض أو فقد فليس بتائب عند العلماء ولو لم يعد ، حتى يطهر قلبه من المرض الملمّ به ويجد لذة التوبة الخالصة ، فمن وجد تلك اللذة ، وعلامتها طول الحزن على الذنوب وتمثيل مشتهياته « بهاوية » تهوى به فى نار جهنم ، على أن لا تخطر على قلبه إلا وهى مبغوضة مرذولة متيقن أنها باب العذاب الأليم . وبذلك يتحقق بصحة التوبة ، والله هو التواب الكريم الغفور الرحيم .

المرتبة الثالثة :

المجاهدة وهى ثلاث مراتب : مجاهدة النفس وقهرها على عمل الواجب والمستحب . ثم مجاهدتها على ترك الحرام والمكروه . ثم مجاهدة العدو .

أَهْلُ السُّلُوكِ عَلَى الطرِيقِ الْأَقْوَمِ ... ساروا بِإِخْلَاصٍ وَصِدْقِ عَزَائِمِ
زَكَتِ النُّفُوسُ وَطُهِّرَتْ مِنْ رِجْسِهَا ... فَتَجَمَّلُوا بِجَمَالِ دِينٍ قَيِّمِ
وَتَخَلَّصُوا بِجِهَادِهِمْ مِنْ غَيِّهِمْ ... نَالُوا الْقَبُولَ وأُكْرِمُوا بِغَنَائِمِ
حَتَّى إِذَا زَكَتِ النُّفُوسُ تَجَمَّلَتْ ... بِحَقِيقَةِ التَّوحِيدِ نُورِ الْعَالِمِ
شَرِبُوا شَرَابَ الْجَمْعِ بَعْدَ جِهَادِهِمْ ... مُنِحُوا الْوُصُولَ إِلَى الْوَلِيِّ الدَّائِمِ
حُجِبَ الْمُجَانِسُ ،والْمُفَارِقُ أَشْرَقَتْ ... أَسْرَارُهُ بِهِمُ بِنُورٍ أَعْظَمِ
الْغَيْبُ أَشْرَقَ بِالصَّفَا لِقُلُوبِهِمْ ... فَتَهَيَّمُوا بِشُهُودِهِ بِمَعَالِمِ

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢

فَهُمُ النَّفَائِسُ حُجِّبَتْ لَا تَظْهَرَنْ فِى حَالِ جَمْعِهِمُ بِغَيْرِ طَلَاسِمِ
حَتَّى يُصَافُوا بِالطَّهُورِ فَتَجْتَلِى بِالْفَرْقِ أَوْصَافُ الْمُجِيبِ الرَّاحِمِ
وَهُمُ الْأَئِمَّةُ أَنْجُمٌ تَهْدِى إِلَى سُبُلِ النَّجَاةِ بِمَحْضِ وَهْبِ الرَّاحِمِ
أَبْدَالُ رُسُلِ اللَّهِ وُرَّاثُ الْهُدَى بَلْ أَنْجُمٌ فِى أُفْقِ شَمْسِ الْقَائِمِ
وَهُمُ الْهُدَاةُ الْوَارِثُونَ أَئِمَّةً وَصَلُوا عَلَى وَسَطِ الصِّرَاطِ الْأَقْوَمِ
أَخْلَاقُهُمْ وَصِفَاتُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وُهِبَتْ لَهُمْ مِنْ ذِى الْجَلَالِ الْمُنْعِمِ
وَرِثُوا بِفَضْلِ اللهِ نُورَ رَسُولِهِ فَهُمُ الْبُدُورُ بِهَا ضِيَاءُ الْمُظْلِمِ

والمرتبة الأولى من مراتب المجاهدة: مجاهدة النفس على عمل الواجب والمستحَبِّ، فالواجب مالابد منه، وهوما بتركه تحصل المضرة فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة، و بالقيام به على الوجه الأكمل تحصل السعادة فى الدنيا والآخرة ــ والواجب إما واجب للنفس أوعليها.

الواجب للنفس:

فالواجب للنفس الذى يجب المحافظة عليه عند حصوله والعمل لجلبه عند عدمه هو: العافية والأمن والقوت. فإذا تحصَّل الإنسان على تلك الضروريات لزمه أن يحافظ عليها بكل غال ورخيص. ثم يجب على النفس تحصيل السعادة الحقيقية بتلك المعانى؛ أى بالأمن والعافية والقوت. فكأن تلك الواجبات لابد منها حتى تتمكن النفس فى عالم البقاء والنعيم ودوام المسرات. وهذه الواجبات للنفس قد سهل الله تعالى سبلها، فإنه سبحانه منح الخلق العافية فضلا منه، ومنحهم الرسل والعقل الذى يعقل عنهم وصاياهم، فبينوا للناس طرق الخير، ووضَّحوا لهم سبل النجاة، وَخَوَّفوهم من كل الرذائل وأنذروهم عاقبتها، فمن أحب أن يكون آمنا على نفسه من سلب العافية، وعلى ماله من الضياع، وعلى نفسه من الهلاك بعد الموت فعليه بالتمسك بالسنة المحمدية. وتفصيل ذلك لا يحتاج إلى بيان. فإن أوامر الله تعالى محصورة فى خيرى الدارين، ونواهيه سبحانه محصورة فى ترك الشرور. أما القوت فقد أوجد لهم سبحانه فى الأرض معايش، وأنزل لهم سبحانه من السماء ماء ثجاجا فأخرج به سبحانه حبا ونباتا وجنات ألفافا، وسخر سبحانه وتعالى الشمس والقمر

والكواكب ، وأجرى الأنهار وخزن الماء تحت طبقات الأرض ليحفظه لنا ، وجعل البحار العظيمة ملحة ليحفظ لنا الماء من التعفن ، فجعل رزقه من الضرورى لجميع خلقه بوسعة ، بحيث أن الهواء والماء والضوء والنبات والأثمار والحيوانات النافعة والمعادن وغير ذلك من الجبال والكواكب أكثر مما يحتاجه الخلق بما لايحصى من العدد : (وإن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا)(١) .

هذا وتحصيل السعادة لا يكون إلا بمجاهدة النفس على القيام أولا بما هو واجب لها من تحصيل الكمالات التى من أهمها العلم بالنفس وبمبدئها ومعادها ، وبما أودعه فيها مُبْدِعُها سبحانه ، وبما أكرمها به سبحانه من النعم فيها وحواليها مما لابد لها منه وأكمل ، حتى تتحقق برتبتها فى الوجود وتعلم مقدار النعم بالعجز عن حصرها ، وتتيقن بحقيقة الاضطرار إلى جناب المنعم المتفضل ، فيحصل لها السكون إلى حضرته الْعَلِيَّةِ ، ويحصل لها الحب والرهبة والرغبة ، وعند ذلك تتمكن النفس من العمل الواجب لها والقيام بالواجب عليها حقيقة . وقد شرحت طرفا من هذا فى كتاب (معارج المقربين) فى باب قسم علوم النفس فليراجع .

الواجب على النفس :

لما كانت معرفة الواجب لا تكون كاملة إلا بعد معرفة الإنسان نفسه التى وجب عليها الواجب ، والحقوق الواجبة عليها ، ومعرفة من يجب له الواجب ، والعلم بكيفية تأدية الواجب ، لزم لمن أحب أن يعلم الواجب عليه ليقوم به أن يسعى فى علم مالا بُدَّله أولا . .

الواجب على المسلم أنواع :

إما واجب لله تعالى ، أو واجب لرسوله ﷺ أو لأولى الأمر منا ، أو للوالدين ، أو لمعلم الخير ، أو للأرحام والزوجة والأولاد ومن استرعاه الله عليهم وما استرعاه الله عليه ، ولجيرانه وأهل محلته وأهل المدينة ، ولخاصة المسلمين وعامتهم ، ولأهل الذمة ممن داموا على ذمة المسلمين ماوفوا بعهودهم . وكل نوع من هذه الحقوق يحتاج فى تفصيل إجماله إلى أسفار ، ولكنى أكتفى بشرح ما به يدرك المريد مالا بد له منه ، و يستبين للعالم بقية اللازم عليه مما أبينه ، فيتضح له ما لم أذكره خشية الإطالة وخوف الملل ، قال ﷺ : (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِم

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٤

وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَالَمْ يَعْلَمْ)(١) وقال ﷺ :(اَلْمُؤْمِنُ يَكْفِيهِ قَلِيلُ الْحِكْمَةِ)(٢) وقبل البيان نقدم مقدمة .

معلوم أن مقاصد العمال محصورة فى أربع : إما أن يكون المقصود الله تعالى . أو الدار الآخرة . أو المال . أو الذكر الحسن والشهوات النفسانية . فمن كان مقصوده الله تعالى يفوز بقسط وافر من كل تلك المقاصد بدون أن يكون مقصودا لذاته ، بل لأنها وسائل للسالكين ومظاهر لمشاهدة معانى صفات الحق للمقربين ، فيكون قاصدا الله تعالى فائزا بكل تلك المقاصد بدون قصد منه لها لأنها معارج له ، لأن من طلب الله مخلصا أقبلت عليه الدنيا راغمة ، وملأ الله قلبه غنى به وأمنا ، ومنحه حلل الكمال التى يكون بها وسطا عاملا من عمال الله تعالى عارفا بالله ، ومن طلب الآخرة أضر بالدنيا وهو الزاهد . ومن طلب الدنيا (المال) أضر بالآخرة من حيث صرف جميع همته فى جمع المال ، قال تعالى : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)(٣) وقال ﷺ : (مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ فِى قَلْبِهِ وَمَلأَ يَدَيْهِ شُغْلاً ، وَلَمْ يَنَلْ مِنْهَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ)(٤) وهو المغرور . ومن كان مقصده شهوات نفسه أضاع دنياه وآخرته والذكر الحسن وأفسد صحته وهو الشيطان أو البهيم .

إذا تقررت تلك المقدمة فأقول و بالله التوفيق والمعونة :

الواجب لله تعالى:

هو أول الواجبات وأحقها بالأوّلية شرعا وعقلا ، بحيث لايتقدم عليه واجب قط ، وليس بإنسان من أهمل فى معرفة الواجب عليه لله والعمل بما علم . أقول ليس بإنسان وإن كان إنسانا صورة ، فإن الصورة الإنسانية قد تنقص عضو السمع أو البصر أو هما مع اللسان أو مع اليد ، وتحكم عليه بأنه إنسان صورة ، ولكنه لايعتبر إنسانا بمعنى الإنسانية علما وعملا ونفعا وضررا ، فكذلك قد تكون صورته صورة الإنسان كاملة فى المبنى ، وهو فى الحقيقة والمعنى

---

(١) فى المسند الدارمى فى المقدمة بلفظ « لا تكون بالعلم عالما حتى تكون به عاملا » .

(٢) عند الترمذى عن أبى هريرة بلفظ « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن .. الحديث » سنن الترمذى ١٥٩/١٠ .

(٣) سورة التكاثر آية ١ ـــ ٢ .

(٤) وعند ابن ماجه فى كتاب الزهد ، والترمذى فى القيامة بلفظ « من كانت الدنيا همه جعل الله فقره فى قلبه » .

حقيقة سبع مفترس ، أو سعالة (ثعلب) خادع ، أو خنزير سفاد ، أو نملة حريص ، أو طاووس معجب بجماله ، أو بهيم لايحسن تدبير نفسه ، أو شيطان مارد إن أغناه الله تعالى استعان بنعمة الله على مخالفة أوامره ، وإن أفقره دعاه الفقر إلى الكفر وارتكاب المعاصى ، وإن توسط حاله نظر إلى ما فى أيدى الناس من النعم فحسدهم ، ورأى نفسه مظلوما وسب وكفر بالقضاء . هذه الأنواع من الناس صورهم صورة الإنسان وحقائقهم غير حقيقة الإنسان ، وفى البحار أسماك على صورة الإنسان ، وفى الغابات قردة على صورة الإنسان ، والمعانى تتفاوت فكذلك المعانى فى صورة الإنسان تتفاوت ، ومن هذه الدلائل الحسية نحكم أن من لم يبتدئ بالواجب عليه لله تعالى ــ مبدع الكائنات وممد الكل بالأيادى والعطايا ــ ليس بإنسان .

الباب الثاني

واجبات المسلم

الفصل الأول

الواجب لله سبحانه وتعالى

أولا: المعرفة هي الواجب الأول لله سبحانه وتعالى :

أول واجب معرفة الله سبحانه وتعالى ، وقد اختلف العلماء فى طريق معرفته — سبحانه — على مذاهب شتى حتى تفرق الناس فرقا وأحزابا ، يرى كل فريق منهم أنه على الحق وأن من خالفه على الباطل. وقد بينت أشهر مذاهب المختلفين وشرحت طرقهم فى كتاب : « معارج المقربين » إجمالا ، وبينت أنهم جميعا لا خلاف بينهم إلا فى اللفظ ، فإن أصول الدين الإسلامى لا توجب الاختلاف بين المسلمين ، وإنما الخلاف حصل فى الطريق الذى تكون به المعرفة . فمنهم من قال : الرياضة والمجاهدة . ومنهم من قال : النظر والاستدلال . واختلفوا فى وضوح الدلائل وغموضها حتى كان القائلون بالنظر والاستدلال فرقا مختلفة . ومن أراد الإطالة فى هذا الموضوع فليراجع كتاب « معارج المقربين »(١)

هذا والإنسان بمعناه الحقيقى يمكنه أن يتحقق أن القرآن المجيد بيَّن لنا طريق معرفته سبحانه ، وحصرها سبحانه فى التدبُّر فيما أبدعته قدرته وأحكمته حكمته سبحانه وتعالى — وأمدنا به من الفضل العظيم ، بحيث لو نظر العاقل فى نفسه — نظر عالم بها فاهم لما أودع فيه من غرائب الحكمة وعجائب القدرة ، ولما فى أعضائه الظاهرة والباطنة من الأسرار المدهشة والحكم المحيرة للألباب والمنافع الجمة . وتفكَّر فى أعضائه الظاهرة وفى أعمالها الغريبة من شحمة تبصر ، ولحمة تسمع ، وأخرى تشم ، وأخرى يذوق بها ، وأخرى تحس ، ولسان ينطق ، وعقل يعلم الغيب بالاستنتاج ويدرك حقائق الأشياء بالاستنباط ، ونظر إلى ما حوله من مجموعة الأفلاك المنتظمة وتصريف الرياح المختلفة وتسخير السحب الهاطلة وجريان الأنهار والبحار المفيدة ، وما بين ذلك من نباتات وحيوانات وجمادات ومعادن ، وما فى كل ذلك من خواص ومزايا وأسرار وقوى فاعلة ومنفعلة وما يتجدد فى كل نَفَس من الشؤون والأحوال والمحو والإثبات — يعلم حق العلم أن له مبدعا أبدعه وأمده بما به كماله

---

(١) يطلب من مكتبة : دار المدينة المنورة التابعة لمشيخة السادة العزمية ١١٠ شارع مجلس الشعب .

و بقاؤه ونعيمه ، ومن قرأ القرآن متدبرا يتحقق من آياته ــ خصوصا الآيات التى ذكر فيها التفضل على الإنسان بما فيه وما حوله والتمن عليه بإيجاده وهى آيات لاتحصى ــ يعلم حق العلم أن الطريق إلى الله سبحانه وتعالى هو النظر فى آياته الكونية وفهم آياته المتلوة .

قول سيدنا علىّ فى تنزيه الله تعالى :

وهنا أورد ما قاله سيدنا علىّ كرم الله وجهه فى تنزيه الله تعالى قبل أن أنبه فكرك بآيات الآثار المحيطة بك لتذوق رحيق الأئمة ، وتقتطف أزهار رياض العلم بتنزيه مبدع الكائنات والله الموفق :

« الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالاً ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، و يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا . كل مسمى بالوحدة غيره قليل . وكل عزيز غيره ذليل . وكل قوى غيره ضعيف . وكل مالك غيره مملوك . وكل عالم غيره متعلم . وكل قادر غيره يقدر و يعجز . وكل سميع غيره يُصَمُّ عن لطيف الأصوات و يُصِمُّه كبيرها و يذهب عنه ما بعد منها . وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام . وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر . لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان . ولا تخوف من عواقب زمان . ولا استعانة على ند مثاور . ولا شريك مكاثر . ولا ضد منافر . ولكن خلائق مربوبون . وعباد داخرون . لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن . ولم ينء عنها فيقال هو منها بائن . لم يؤده خلق ما ابتدأ . ولا تدبير ماذرأ . ولا وقف به عجز عما خلق . ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر . بل قضاء متقن . وعلم محكم . وأمر مبرم . المأمول مع النقم . المرجو مع النعم » .

هذا ولما كانت الحكمة أشد تأثيرا على النفوس إذا ظهرت للنفوس فى ألفاظ منظومة ، أحببت أن أورد لإخوتى المؤمنين ــ روحنى الله وإياهم بريحان آياته الظاهرة فى مكوناته ، ومنحنا طمأنينة القلب بشهود أسراره الباطنة فى آياته ، فإنما هى مكونات قائمة بآيات ، وتلك الآيات دالة على أسرار مكون الكائنات وأنبه القارىء لتلك المواجيد النظمية ، أن يلتقط

لآلئها الحكيمة الغالية من أصدافها اللفظية ، غير منتقد على عدم مراعاة المحسنات اللفظية ، فإن المقصود منها الروح العالية لا المبانى . والله أسأل أن يمنح القارىء نورا يستبين له به سر تلك المبانى وخفى تلك المعانى ، إنه مجيب الدعاء .

كيف تتفكر فيما أحاط بك

أيـاأيـهـا الإنـسـانُ من طين فَخَّار ... تـكـوَّنـت كـى ترأى مظاهرَ أسرارى
ومـن نـطـفـةٍ أُنشئت آياً جليَّةً ... وصرتَ بمحضِ الفضلِ حصنَ قرار
تـدبَّر فأنت الطينُ والماءُ فاشهدَنْ ... جمالى وإحسانى وسرّى وأنوارى
أكنتَ سميعاً أو بصيراً وعالماً ... ولكننى أنعمتُ بالمدرار
نسيتَ جمالَ الله فيك ، تَيَقَّظَنْ ... فمن ينسه يَلْقَى سَعِيرَ النار
أياطينةَ الصلصال مَنْ بجماله ... تحلَّيتَ بالأنوارِ بعد فُخَار
أتنسى مُفيضَ الفضلِ والجودِ والعطا ... وتَهْجُر أورادى وتترك أذكارى
وللدُّون والدنيا تميلُ وتَرْتَجِى ... نوالَ الرِّضا والعفْوَ إحسانَ غفَّار
تذكَّر جميلى من « أَلَسْتُ » (١) و بعدَها ... وتابعْ سبيلى مخلصا ياسارى
ولا تنس إحسانى إليك ورحمتى ... وكن مخلصا فى خِفْيَةٍ وَجَهَارى
ولا تشتغِلْ بسواىَ تُرْفَعُ للعُلا ... وتحظى بفضلى صُحْبَةِ الأخيار
فلا ينسى إحسانَ الجميلِ وفضلَهُ ... سوى مُبْعَدٍ أو جاهل ومُمَارى

* * *

يـاصورةَ الرحمٰن والنورِ الْعَلِى ... ياسِدْرَةَ الأوصافِ والغيبِ الْجَلِى
فيك العوالمُ كلُّها طُويت فهل ... أدركْتَ سرًّا فيك من معنى الولى
خَفِيَتْ بذاتك من معانى القدس ما ... لايُشْهَدَنْ إلَّا لِذِى قلبٍ خَلِى
أأنِسْتَ بالأكوان بعد شهوده ... وسجود أملاك العَلِى بِتَنَزُّلِ
أوَلا سمعتَ « أَلَسْتُ » عند شهوده ... تومى بأن القدسَ أوَّلُ مَنْزِلِ
فاهجرْ سكونَك للكيان و بادرن ... بالعزم كى تسكن بِوَطَنٍ أوَّلِ
فيك المعانى مُشْرِقاتٌ بالذى ... يرقى به أهلُ الصفا بتأهُّلِ

* * *

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » سورة الأعراف آية ١٧٢ .

حيطةُ الكون آيةُ الإمكانِ قد أضاءتْ بها بنور البيان
وبها الآىُ أشرقت مُنبئات عن معانى الدليل والبرهان
حيطةٌ دُون دَرْكِها كلُّ عَقْلٍ لِخَفا سرِّها بطىِّ المبانى
وهو كالذَّرِّ نسبةً وانتسابا لِمَعَان فى باطنِ الإنسانِ
لم تَسَعْ ما بِقَلْبِ فردٍ قريب وهى قد أعجزت سُوَيْدَا المعانى
قد أحاطتْ بهيكلى بحدود وهو سورٌ لِكَنْزِ غيبٍ مُصان
عجبًا للعقول تعجزُ عمَّا هو آىٌ لِمَشْهَدى وعَيَانى
ضاقَ عمَّا وسِعْتُه بيقينٍ كلُّ عالٍ من الكيان ودانٍ
أنت يا كَوْنُ حيطتى حَالَ فرقى عند فوزى بحظوةٍ فى الجِنان
وانفصالى بعد اتصالى وحجبى بعد كشفى فى هيكلٍ لِىَ ثانى
وأنا حيطّة وأنت خفىٌّ حال جمعى وحُظوتى بالتدانى
أفقٌ « مشرقٌ » بنورٍ علىٍّ قد أضاءت به شموسُ المعانى
حيطتى الوجهُ بعد محوِ وجودى ببقائى عن مقتضى الإمكان
كان عقلى قبل اتصالى وفصلى يعقل الآىَ بانتسابِ المكان
ثم لما لاح الجمالُ بمعنًى من معانى الجميلِ بالإحسان
فُتح الكنزُ: كنزُ ذاتى بإحـ ـسان قريبٍ ومنعمٍ حَنَّانٍ
وهَبَ العقل عنه يعقل معنًى هو سرُّ التوحيدِ والقرآن
صار صُور الإمكان يعقل عنِّى وأنا العقلُ صورةُ الرحمٰن
فىَّ سِرٌّ وفىَّ نورٌ جَلِىٌّ يُشرِقَنْ ظاهراً لرُوحِ الفانى
ومعانٍ قد نُزِّهت عن مبانٍ قد أضاءتْ لِلْمُفْرد الإنسان

* * *

نغماتُ الآثارِ لا الأوتارِ وأغانى الأفكارِ لا المزمارِ
ومُدامُ الذكرى بحانات صفوٍ لامدامٌ فى حانةِ الْخَمَّارِ
وجهادٌ للنفسِ كى تتحلَّى لاجهادٌ فى الحظِّ والدينار
وتخلٍّ عن الرذائلِ أوْلَى لاتخلٍّ عَنْ حكمةٍ واعتبار
أيها النَّفْسُ فى الفضائلِ مجدٌ وحصونٌ من سَقْطَةٍ فى النَّار

وهـى عـزٌّ فـى عـاجـلٍ ونـعيمٍ   وبـقـاءٌ فـى نـعـمـةٍ وقَـرَار
أيهـا الـنَّـفْسُ فى الرذائل خِزْيٌ   فـاهـجريها خوفَ الْعَنَا والشَّنَار
أقـبِلـى فـالكمالُ خُـلُقٌ جميلٌ   وشُـهُـودُ الآيـاتِ فـى الآثـار
بـعـد عـلـمٍ بـأن تـلـك المزايا   هـى تـاجُ الـعُـلا وحُلَلُ الفَخَار
أيهـا الـنـفسُ: حظ دنياك فانٍ   بـادرى تـسـلـمـى بـغيرِ اعـتـذار
وانظرى فى الوجود نَظْرَ حكيمٍ   تـشـهـدى سِرَّةً مـن الأنـوار
واعـلـمـى بـالـيـقينِ أن شئوناً   قـد أحـاطـت آيـاً بـغير سـتـار
أىُّ عُذْرٍ يانفسُ ـ بعد التجلى   وظـهـور الآيـاتِ كـالأقـمـار
كـنـتِ مـاءً يـانَـسْـلَ آدم قَبْلاً   وأبـوك الْـمَـعْـلُـوم مِـنْ فَـخَّـارِ
صِرْتِ لى صورةً سميعاً بصيراً   وعـلـيـمـاً بحـيـطـةِ الأدوار
ثم تَرَقَّـى عَـالِـينَ نُزلَ شُهودى   بين خـدمِ الأمـلاكِ والأنـوار
أو بِسِجِّينِ دارِ سخطِى و بُعْدِى   فـى لـظـى القَهْرِ مَنْزِل الكفَّار
فـتـدبَّـرْ ـ يـامـاءُ ـ ثم تَحَلَّ   بجـمـالِ الإقـبـالِ لا الإدبـار
كـيـف تـرضـى بـلـذةٍ ونـعـيمٍ   تَـدْخُـلَـنْ بعدها سحيقَ النار
جاهِد النفسَ فى جنابِ علىٍّ   وإلـيـه فـاسـع بـصـدق الـفِـرار
وتـشـبَّـهْ بـالرُّسلِ صدقاً وعدلاً   وبـأخـلاقِـهِـمْ بـصِـدْقِ افـتـقـار
ودع الـدُّونَ لـلـدَّنِـىءِ وبـادر   فـالـمـعـالـى الأمـورِ لـلأبـرار
واخـلـع الـكـونَ لابـسـاًدِرْعَ زُهْدٍ   فِـى سِوَى اللهِ فَـهْـوُ كـنـزُ ادِّخار
وانـظـرنْ نـظـرةً بـعينِ يـقينٍ   لا بـعـيـنِ الـعـقـولِ والأنـظـار
تَـرَ فـيـكَ الأنوارَ لاحت جهاراً   وتـرى الأُفْـقَ لاحَ بـالأسـرار
أهـلُ عَـالِـيـنَ لايَـرَوْنَ الـدَّنـايا   لإشْـتِـغـالِ الأفـرادِ بـالـسـتار
سـتَـرَ الـكـونَ عنهـمُ فـرأوه   بـعـيـون وُهِـبَـتْ مـن الـغـفَّـار
فـتـراهُـم بـاللـهِ للـهِ قـامـوا   عَـامَـلُـوهُ بِـشِـرْعَـةِ المختـار
ذكـروه لمـا رَأَوْهُ فَـذُكِـروا   بـلـسـانِ الأمْـلاكِ كـلَّ نهـار
ثم غـابـوا بـه وَذَكَـرُوا فـذُكِـروا   بـلـسـانِ الـسَّـلامِ والجـبَّـار
وتحـلَّـوا مـنـه بـخُـلْـقٍ وحـالٍ   وجمـالِ الـقـرآنِ والأذكـار

نـورُ الـعـقـول لآى الـكـونِ مـيـزانُ والـكَـوْنُ أجـمـعُـهُ للـعـقـلِ مـيـدانُ
يجـولُ فـيـه لـيُـبْدى سِرَّهُ فَيَرى مـافيه مُرْتبطا والـفكرُ برهـانُ
فلم يجاوزْ حدودَ الكون لوسَبَقَتْ أنـوارُه تَـحْـجُـبَـنْـهُ عنه أركـانُ
مـاللعقولِ إذا ظهرت مُشَاهِدَةً للغيـبِ فـى سِتْرِهِ لوصَحَّ إمكـانُ
لكنها إنْ صفت من أُفْقِ حيطتِها تُـقِـرُّ بـالحـقِّ والإقـرارُ إيمـان
حتى تُمَدَّ بنورِ الوحيِ يَكْشِفُ ما عنها تحَجَّبَ والتحقيقُ إحسان
فـضـلٌ مـن اللهِ يُوليـهِ بِسَابِقَةٍ لِـذِى مـقـامٍ عـلـىٍّ وهـو إنسان
كالشمسِ رادُ الضحى يهدى إلى سُبُلٍ بهـا الـوصـولُ ورَوْحٌ ثم رَيْـحَـانُ
لـه يـسلِّم أهلُ الاصطِفَاءِ ومَن فـازوا بـسـابـقـةٍ والـفـوزُ رضوان
فيُمْنحون عيونَ الكشفِ من أَحَدٍ بهـا يـدومُ لهـم كـشـفٌ وغـفـران
وعندها الغيبُ والسرُّ المصونُ يُرى لأعينِ الـقـلـبِ والـبـرهـانُ قرآن
نورٌ من اللهِ شمسٌ للهدى ظهرت فـيـه شـفـاءٌ وأسـرارٌ وتـبـيـان
فـشـاهِـدَن نورَه واشربْ مدامتَه ولا تـمـلْ للهوى فالحظُّ شيطان
أسْلِمْ لمولاك تشهد نورَ طلعتِه تُـجْـلِـيـهِ للقلبِ آياتٌ وأكوان
واتْبَعْ سبيلَ مرادِ الذاتِ مُتَّصِفاً بالصدقِ فى حُبِّه فالصدقُ إيقان
ترقى إلى حضرةِ الملأْ العليِّ إلى حظيرةِ القدسِ والمحبوبُ رحمٰن
وخلِّ مقتضياتِ العقلِ مُتَّبِعًا هـدىَ النبىِّ فإنَّ الحقَّ سلطان
وفـى مَعِيَّتِهِ فـادخلْ بِسُنَّتِهِ وحـافـظـنْ فهى للأفرادِ ميزان
والفردُ شمسُ الهدى بابُ الوصول إلى نـيـلِ الـقـبولِ وقد وافاك فُرقان
صَـــلاةُ ربِّى علـى المحبوبِ كَعْبَتِنَا بهـا تكونُ لنا البُشرى ورضوان

* * *

مـعـالـمُ الـكـونِ آياتٌ تُنَبِّئُنـا ... من ســرٍّ غيـب بدا فيه لخالِقِنا
وفـى الـسـمٰـواتِ والأراضين آيتـه ... لاحت لأهل النُّهى جهراً تُفَهِّمُنا
شُـهِدتْ علانـيـةً للناظرين لها ... وأشرقت شمسُها تُنبى بمُوجِدنا
وَبَرْهَنَتْ لِذَوى الألْبابِ قائلةً ... الحـقُّ لاح جَـهَـاراً شَاهِدَنهُ بِنا
لسنا بِحُجُبٍ ولكنَّا دلائلُه ... تبدو شمائلُ أوصافِ العَلِى عنَّا
تعمى العيون التى قد أبعدت عنا ... وتظهرن لذوى الحسنى حقيقتُنا
المؤمنون بنا شهدوا صفاتِ عَلِيٍّ ... والغافلون رأوْنا لامُكَوِّنَنا
وقفت عزائمهُم عند الكيان فما ... نفذت بصيرتُهم فى سرِّ مُبْدِعِنا
صرنا حجابا لأهلِ الغيّ نُبْعِدُهم ... والحالُ أنَّا لنيلِ القربِ قد صِغْنَا
عجبا لمن حُجبوا عن نورِ خالقِهم ... بنوره إذْ بدا جهراً لهم عَلَنَا
أسماؤه ظهرت للعين مشرقة ... وأشرقتْ شمسُها حقّاً لمن حَسُنَا
تلك السموات والأرْضون نورُ هدى ... تبدى محاسنَه كما توَصِّلُنا
فشاهدن حسنَ ما فيها وكنْ يقظا ... ولا تَقِفْ عندها تَنْأَ بها السَّنَنَا
وَنَزِّهَنْ حضرةَ الأسماءِ عن نِسَبٍ ... وعن قيودٍ بعقلٍ وانهضَنْ معنا
فنورُه بعيونِ القلبِ تشهده ... وبالبصيرةِ تراه وتصحبنا
لايبدو نورُ العَلِى إلا لمن سبقت ... بالفضلِ منه له الحسنى ووافَقَنا
حَظْرٌ على العقلِ نورُ الغيبِ يشهده ... والعقلُ قيدٌ فشاهد نورَنا مِنَّا

* * *

نورُ المُكوِّنِ للبصيرة لاحا ... فى الكائنات فأشرقتْ مصباحا
لم يبق فى ذا الكونِ من جُزْئيَّةٍ ... إلا ولاحت بالضياءِ صُرَاحا
دلَّت على سرِّ العليِّ تنزَّهت ... أسماؤه بل أفصحت إفصاحا
لاحتْ لأهلِ الفكرِ شمسُ صفاتِه ... فرأوْا بها آثارَها مصباحا

لما كان جهل شيء من تلك الآيات المودعة فى الإنسان والمحيطة به المسخرة مؤديا إلى الجهل بالحق ــ سبحانه ــ بقدر ما جُهِلَ من آياته ، لأنه ــ سبحانه وتعالى ــ أقامها حججا واضحة وبراهين ساطعة على كمال تنزيهه ــ سبحانه ــ وكمال قدرته وحكمته ، وعلى أَحَدِيَّةِ ذاته وأسمائه وصفاته المقدسة .

ولابد لى فى هذا الموضع من أن أُفَصِّلَ هذا الإجمال بإلماع إلى تلك الآيات الظاهرة فى الأرض وفى السموات وفى نفس الإنسان ، مما هو محسوس بالجوارح ولايحتاج إلى بحث وتنقيب ، حتى تتنبه قوى الفكر فتجول فى هذا العالم جولة متدبِّر يرى بها أنه عاجز عن شكر المنعم ــ سبحانه ــ مضطرٌّ فى كل نَفَسٍ إلى معونته ــ جل جلاله ــ فيقوى عامل الفكر بعد الذكر حتى يرتقى من عالم الحس إلى عالم الخيال ، ولديها يمكنه أن يتمثل الآيات العلوية فتلوح عليه أنوار مبدع الكائنات ، وتنبلج له أسرار القادر الحكيم الحى القيوم ، ولديها تقوى عوامل الحيرة والدهشة فيرتقى من عالم الخيال إلى العجز المطلق ، ولديها يحضر فلا يغيب ، وليس بعد العيان بيان ، و يكون شبيها بالعوالم الروحانية ممن وصفهم الله بقوله :

(ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ)(١) .

الحكمة هى ضالة المؤمن المنشودة :

هذا وإن بعض إخواننا كرهوا بعض العلوم التى تبين بعض الآثار الكونية ظنًّا منهم أن ذلك يخالف السُّنَّة والكتاب ، والحقيقة التى لامراء فيها أن المؤمن لايعادى علما من العلوم كائنا ما كان ، ولكن المؤمن يبحث عن الحكمة أين كانت وهى ضالته ، فهو يطلع على

(١) سورة الرعد آية ٢٠ ــ ٢٤

كل علم ليأخذ منه الحكمة و يرفض سواها كما قال ﷺ ، (الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَلْتَقِطُهَا حَيْثُ وَجَدَهَا)(١) وليس المؤمن العالم بأسرار القدرة السارية فى الآثار الكونية ـ عُلْوِيِّهَا وَسُفْلِيِّهَا ـ كالمؤمن الذى لم يعلم ، فإن المؤمن العالم على اليقين الحق ، وهو حجة الله القائمة على الخلق المتحقِّقُ حقيقة بخشية الله تعالى كما قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ)(٢) وقال الله تعالى لحبيبه ﷺ ، (وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)(٣) ولا أبعد بك أيها الأخ عن القصد ، ولكن تدبر معى سر الإسراء وحكمة المعراج الصريحة فى القرآن المجيد التى هى قوله تعالى : (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)(٤) تر أنك مفروض عليك أن تكون عالما علم يقين بما كان حق يقين لرسول الله ﷺ لتكون من أهل اليقين ، وتأمل معى إلى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ)(٥) فإذا تأملت ببصيرتك ، وتحققت أن الله حَكَمَ أن الذين يخشونه سبحانه هم العلماء حقيقة ـ بعد ذكر تلك الآيات العجيبة ـ تحققت أن العلم بالله تعالى لا يكون إلا بالعلم بآياته الظاهرة فى آثاره وعجائب قدرته وغرائب حكمته المنبلجة فى مكوناته ، و بقدر مافاتك من علم شىء منها فاتك من العلم بالله . والله ينبه إخوتى المؤمنين فى جميع بقاع الأرض إلى العمل بالقرآن الشريف وإحياء السنة المطهرة .

معرفة آلاء الله بالنظر والفكر:

ولو نظرت معى أيها الأخ ـ أرشدك الله ـ فيما ورد من الآيات القرآنية الحاثة على الفكر والاعتبار والنظر فى آيات الله الظاهرة فى مكوناته ، لتحققت أن أوجب الواجب على المؤمن معرفة آلاء الله بالنظر والفكر ، وإليك بعض آيات تكشف لك الحقيقة فى هذا

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم ، وابن ماجه فى الزهد .

(٢) سورة فاطر آية ٢٨

(٣) سورة طه آية ١١٤

(٤) سورة الإسراء آية ١

(٥) سورة فاطر آية ٢٧ ـ ٢٨

المقصد العظيم ، قال الله تعالى : (يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)(١) .

وقال الله تعالى : (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(٢).

وقال سبحانه وتعالى : (إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ)(٣).

وقوله تعالى : (ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٤).

---

(١) سورة البقرة آية ٢١ ــ ٢٢

(٢) سورة البقرة آية ١٦٣ ــ ١٦٤

(٣) سورة آل عمران آية ١٩٠ ــ ١٩١

(٤) سورة الرعد آية ٢ ــ ٤

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(١) .

وقوله سبحانه وتعالى : (تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَراً مُّنِيرًا)(٢) .

وقوله تعالى : (وَآيَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)(٣)

وقوله جل جلاله: أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً)(٤) .

وقوله سبحانه وتعالى : (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)(٥)

وقوله تعالى : (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ)(٦) .

وقوله جل شأنه : (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)(٧) .

---

(١) سورة الحج آية ٦٥

(٢) سورة الفرقان آية ٦١

(٣) سورة يس آية ٣٣ ــ ٣٥

(٤) سورة النبأ آية ٦ ــ ١٦

(٥) سورة عبس آية ٢٤ ــ ٣٢

(٦) سورة الطارق آية ٥ ــ ١٢

(٧) سورة الغاشية آية ١٧ ــ ٢٠

وجماع تلك الآيات قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا﴾ (١)

هذه بعض الآيات التى تُنَبِّهُ فكرك وَتُيَقِّظُ قلبك من نوم الغفلة ، وعقلك من رقدة الجهالة ، وتشغلك عن عكوفك على خدمة جسمك ، وقصر همتك على شهوات بطنك وفرجك ، واجتهادك فيما ييسر لك هذه المطالب والحظوظ الفانية ، والملاذ الموبقة لك يوم الحساب ، فعليك أيها الأخ المسترشد ــ أرشدنى الله وإياك ــ إن كنت تحب أن تكون من المطيعين لله ، الممتثلين لأوامره التى جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، العاملين بسنة سيدنا ومولانا محمد ﷺ أن تُقْبِلَ بكُلِّيتك على ما يقربكّ إلى ربك ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وإياك أن تكون منكبا بكُلِّيَّتك على الدنيا ناسيا يوم الحساب فتكون من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَـٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَالَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ (٢).

الآيات الظاهرة للفكر :

وإليك ــ أيها الأخ الراغب فى نوال العلم النافع ــ طَلٌّ من وابل الآيات الظاهرة لفكرك يكون وراءه ــ بمعونة الله ــ وابل اليقين وكشف التمكين ، ولتقريب ذلك أضرب لك مثلا : لو نظرت إلى طيارة فى الهواء تحمل إنسانا ، أو سفينة تجرى فى اليمّ بدون الهواء ، أو عربة تجرى فى الأرض بدون خيل تجرها لحصلت لك الدهشة والحيرة لقصورك عن معرفة سبب ذلك ، مع أن ذلك سهل عليك لو تأملت ، ويمكنك أن تعمل مثله لو تفكرت فيه ، ولكنك عند أول نظرة إلى تلك الأشياء الغريبة ينطلق لسانك قائلا : سبحان الله ! مع أنك يحيط بك ما أنت تشهده طول عمرك حسا وذوقا وسمعا وشما ورؤية من الآيات التى تتحير فيها عقول العقلاء ، وتدهش فيها نفوس الأذكياء ، وتعجز عن إدراك حقائقها أفكار الحكماء ، و يرجع البصر عنها خاسئا وحسيرا ، و يرتد الطرف عنها كاسفا وكليلا ، وأنت جامد لا تتعجب وهامد الجسم تتنزل عليك أمطار الحكمة فلا تهتز ، كأنك لم تسمع ولم

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٤

(٢) سورة الجاثية آية ٣٤

تبصر ولم تفقه، ولك سمع و بصر وقلب، انظر بعين بصيرتك إلى هذه الأجسام السماوية الرفيعة وشدتها وصلابتها وحفظها من التغير والفساد إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فإن الأرض والهواء والبحار بالإضافة إليها كحلقة ملقاة فى فلاة، قال تعالى: (وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)(١) ثم إلى دورانها مختلفا، فإن بعضها يدور بالنسبة إلينا رَحَوِيَّةً، و بعضها حمائلية، و بعضها دولابية، و بعضها يدور سريعا و بعضها يدور بطيئا، ثم إلى دوام حركاتها من غير فتور، وإلى إمساكها من غير عمد تعمد بها أو علاقة تدلى بها. ثم انظر إلى كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها، فإن بعضها يميل إلى الحمرة، و بعضها إلى البياض، و بعضها إلى لون الرصاص. ثم إلى مسير الشمس فى فلكها مدة سنة، وطلوعها وغروبها كل يوم، واختلاف الليل والنهار، ومعرفة الأوقات، وتمييز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، ثم إلى إمالتها عن وسط السماء حتى وقع الصيف والشتاء والربيع والخريف. وقد اتفق الباحثون على أنها مثل الأرض آلاف المرات وفى لحظة تسير أكثر من قطر الأرض، وقد وضَّح ذلك جبريل عليه السلام عندما سأله رسول الله ﷺ: (هَلْ وَجَبَ الظُّهْرُ يَاجبْرِيلُ؟ فقال: لا نعم، فقال له ﷺ ما معناه: مَا هَذَا؟ فقال له: مِنْ وَقْتِ لاَ إِلَى أَنْ قُلْتُ نَعَمْ سَارَتِ الشَّمْسُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ)(٢) أى مسافة يقطعها المُجِدُّ فى خمسمائة عام.

ثم انظر إلى جرم القمر وكيفية اكتسابه النور من الشمس لينوب عنها بالليل، ثم إلى امتلائه وانمحاقه، ثم إلى كسوف الشمس وخسوف القمر! ومن العجائب السواد الذى فى جرم القمر فإنه لم يُسْمَعْ فيه قولٌ شاف إلى زماننا هذا، وكذلك فى المجرة وهى البياض الذى يقال له سُرُج السماء، وهو على ذلك يدور بالنسبة إلينا دورة رحوية، وليست تلك الكواكب المنثورة فى هذا الجو الفسيح ولا حركاتها المنتظمة حصلت باتفاق أو عبثا ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ــ بل فى كل كوكب من الكواكب الصغيرة فى عين رأسك خواص ومزايا وفوائد لاتحصى ولا تعد، بحيث لو اختلفت حركة من حركات دورانها واختلفت عن مركزها لاختل نظام جميع العالم علوا وسفلا، فسبحان الحكيم القادر الذى خلق الأشياء

---

(١) سورة الذاريات آية ٤٧

(٢) وقد روى الترمذى وأحمد عن النبى ﷺ أنه قال: « بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة » سنن الترمذى، ومسند أحمد ٢٩/٣.

مرتبة منظمة ، وربط أعلاها بأسفلها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾(١) فكل الكواكب السماوية مرتبطة بكل العوالم الأرضية ، فما من ذرة من الذرات من مركز الأرض إلى العرش إلا وهي مرتبطة بكل ذرة أخرى متوقفة عليها بحكمة وتدبير وإرادة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(٢) ومع هذه الأطراف المتنائية والأجواء الواسعة ترى الاتصال من كل العوالم علويها وسفليها حاصلا محسوسا ، فترى كل كائن فاعلا ومنفعلا ، وكل ذلك بمشيئة الله وقدرته ، وهو الفاعل المختار لاشريك له ، كما قال سبحانه ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(٣) فالكل فى الكل مسخر كما دبرته الحكمة وأبرزته القدرة ، والله أسأل أن يشهدنا آياته لتطمئن قلوبنا ، وتسكن إليه ــ سبحانه ــ نفوسنا آمين .

ثم انظر إلى ما بين السماء والأرض من انقضاض الشهب والغيوم والرعود والبروق والصواعق والأمطار والثلوج والرياح المختلفة المهاب ، وتأمل فى السحاب الكثيف المظلم كيف اجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف حمل الهواء الماء المجتمع من قطرات صغيرة حتى صارت كالجبال فتلاعب بها وساقها الله إلى المواضع التى أراد إحياءها فترش وجه الأرض ، وترسله قطرات متفاضلة لا تدرك قطرة منها قطرة ليصيب وجه الأرض بلطف ، ولوصبه الله صبا لأفسد الزرع بخدشه وجه الأرض وهدم المنازل ، ويرسلها الله سبحانه وتعالى مقدارا كافيا،لاكثيرأزائدا على الحاجة فيعفن النبات ، ولا قليلا ناقصا عن الحاجة فلا يتم به النمو، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ (٤) ثم انظر بعد ذلك إلى ما ينزله الله تعالى من الأمطار على رؤوس الجبال وبطون الأودية ثم يجمعه سبحانه وتعالى فيكون سيلا جارفا ، تتلاقى فروعه المختلفة ومجاريه المكتنفة للجبال حتى تجتمع فى مجرى واحد ، فتجرى منه الأنهار كالروح السارية بإذن الله تعالى فى جسم

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٠

(٢) سورة الملك آية ٣ ــ ٤

(٣) سورة الأنعام آية ١٨

(٤) سورة المؤمنون آية ١٨

الأرض فيحيي الله بها الأرض بعد موتها، فمنها ما يجرى إلى الشمال، ومنها ما يجرى من الشمال إلى الجنوب، بحكمة حكيم قادر، وتدبير مريد مقدر، وعناية معط وهاب.

وانظر إلى ما ينتج عن ذلك من الخير العميم للنباتات والحيوانات والإنسان، وما يسهل به من المواصلات، يسير الفلك المواخر فيها لنبتغي فضلا من ربنا ـ سبحانه ـ ولنشكره على نعماه، ولنعلم عدد السنين والحساب، كما قال سبحانه وتعالى: (وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(١) ثم انظر أيها الأخ بنور فكرك إلى اختلاف الرياح فإن منها ما يسخره الله تعالى ليحمل السحب و يسوقها إلى الأرض الميتة، ومنها ما ينشرها، ومنها ما يجمعها، ومنها ما يعصرها، ومنها ما يلقح الأشجار ويحمل البذور إلى المراعى والأودية بإذن الله تعالى، ومنها ما يربى الزرع والثمار، ومنها ما يجففها. ثم انظر إلى الأرض كيف جعلها الله قرارا لتكون فراشا ومهاداً ، ثم إلى سعة أكنافها و بعد أقطارها حتى عجز الآدميون عن اكتشاف القطبين للآن(٢) مع ما أظهره الله تعالى على أيدى الصناع من عجائب الآلات المسهلة للرحلة، وما منّ الله به على العقول من استخدام البخار وتيارات الكهرباء والانتفاع بزيت البترول والفحم المتحجر، وما أمدّ الله به الأفكار من كشف خواص كثير من الكائنات النافعة لبنى الإنسان، ومع هذه التسهيلات فالإنسان عاجز عن علم أطراف الأرض المتنائية وهى مسخرة له بما فيها، ولايزال فى الكائنات الحية الأرضية وفى الجمادات خواص لم ينكشف منها إلا النذر اليسير، قال تعالى: (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) (٣) فسبحان من لايعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته.

سجود الخيال وحيرة الألباب عن إدراك القادر الحكيم :

إذا كان الإنسان المسخر له ما فى السموات وما فى الأرض عاجز عن إدراك الخواص الضرورية له، كيف يحيط بالآيات الخفية عنه إلا بنور يهبه الله لمن يشاء، بعد أن يوفقه للعمل بالقرآن المجيد والسنة المطهرة، بعد هذا العجز البين الذى قام عليه برهان العيان كيف يمكن الإنسان العاجز أن يحيط علما بواجب الوجود. العلىّ قدرا عن أن تدركه أبصار

---

(١) سورة النحل آية ١٤

(٢) كان ذلك عند نشر الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م.

(٣) سورة الإسراء آية ٨٥

البصائر. المنزه قدرا عن أن تحيط به ــ سبحانه ــ الأرواح الطاهرة أو النفوس الزكية. فسبحان من أعجز العقول عن إدراك حقيقة المعقول من الكون المحسوس، وأعجز الأرواح عن أن تحوم حوالى عزته وجبروته، أو تشرف على علىّ عظمته وكبريائه، وإنما العجز عن إدراك حقائق الآيات الظاهرة وسر إبداعها وغريب إمدادها برهان على سجود الخيال عن تمثيل هذا الجناب العلىّ، ودليل على حيرة الألباب عن إدراك القادر الحكيم. وليس الإنسان وحده هو الطالب الحائر فى عظمة هذا المقام العلىّ، بل كل كائن من عوالم الملكوت الأعلى يطلبون الله كما نطلبه، قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الْمَلأَ الأَعْلَى لَيَطْلُبُونَ اللهَ كَمَا تَطْلُبُونَهُ) وقال الله تعالى: (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(١)

آيات القدرة الباهرة فى الأرض:

ثم انظر أيها المسترشد نظرا ثانيا ترظهر الأرض محلا للأحياء و بطنها مقرا للأموات، فتراها وهى ميتة كما قال الله تعالى: (وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)(٢) ثم أظهرت أجناس المعادن وأخرجت أصناف الحيوانات، قدرة باهرة وحكمة محيرة للعقول. ثم انظر ياأخى ــ نوّر الله قلبك ــ إلى صنع ربك ــ سبحانه ــ فى إحكام الجبال الشامخات، التى جعلها الله ــ سبحانه وتعالى ــ أوتادا للأرض تمنعها من أن تميد، ثم تأمّل إلى إسكان الماء فى الأرض وإيداع أوشال الماء فى خزانات فوق قمم الجبال، وجعل الأرض ذات مسام فتوصل تلك الأوشال إلى الواحات البعيدة عن الأنهار التى لم يقدّر الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن ينزل عليها الأمطار، حتى إذا وصلت إلى تلك البقاع فكانت كعيون تجرى على سطح الأرض بقدرة اللطيف الرءوف وحكمة الرزاق الكريم. وقد تجتمع تلك الأوشال فى الأماكن المرتفعة وعلى قمم الجبال وتجرى مجتمعة حتى تتكون منها الأنهار، فسبحان مُسخِّر السحاب ومُصرِّف الرياح ومُجرِى الأنهار.

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧

(٢) سورة الحج آية ٥

شيء من أسرار البحار وعجائبها :

ثم انظر إلى خفيّ الألطاف وجليّ الإسعاف تر البحار العظيمة كبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وبحر القلزم (البحر الأحمر) وبحر فارس (الخليج الفارسى)و بحر المانش وغيرها من البحار المتسعة كالمحيط الهندى ترها كخلجان صغيرة للمحيط الأعظم الذى يحيط بالأرض الذى يسمى بالمحيط الهادى ، وبحر الظلمات (المحيط الأ طلانطيقى) ، وتر اليبس كجزيرة في وسط هذا المحيط تتخللها خلجانه وتجرى فى جسمها الأنهار والعيون ، وتعلم أن اليبس من الأرض جزء صغير بالنسبة للمغمور من ماء المحيط لحكمة غفلت عنها أيها الأخ الراغب فيما عند الله . أشير لك إلى شيء من أسرار هذا المحيط الجلية المحسوسة . منها مزج الهواء بأجزاء متناسبة من الأبخرة المتصاعدة منها ليكون صالحا للتنفس ، ولولا ذلك لاختنق الأحياء ، ومنها حفظ عنصر الماء الزمن المقدر من أن يصير آسنا ، أونتنا والماء كما علمت سر حياة العوالم الحية ، وقدر الله تعالى بحكمته وتدبيره أن يجعل منه جزءا صالحا لحياة الإنسان والحيوان والنباتات ، وجعل لذلك أسبابا جلية لعقلك ، وواضحة لفكرك ، لاتختل ولا تفتر، أحكم إبداعها وأكمل نظامها ، قدرها بتقديرها نافعة لكل حيّ وزيادة ، وما زاد منها عن اللزوم جرى بقدرة الله تعالى وحكمته حتى يرجع إلى مصدره ومقره .

ثم انظر إلى ما فى تلك البحار والأنهار من الكنوز التى أوجدها الله تعالى ذخيرة للإنسان ، قال الله تعالى : (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(١) فترى فيها من أنواع الحيوانات والجواهر مالا يحصى عددها إلا الله تعالى . فما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه ، وفيها أجناس لايعهد لها نظير فى البر .

ثم انظر إلى خلق اللؤلؤ فى صدفة تحت الماء ، وإنبات المرجان واليسر فى صميم الصخر تحت الماء وهو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ، ثم إلى ما عداه من العنبر ، وإلى

---

(١) سورة فاطر آية ١٢

أصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه . ثم إلى السفن كيف سُيِّرت فى البحار وسرعة جريها ، وإلى إيجاد الأنهار ومعرفة الربان موارد الرياح ومهابها وسواقيها ، وعجائب البحار كثيرة لاتحصى . والمؤمن البصير يكفيه قليل الحكمة .

إبداع القدرة وإحكام الحكمة فى المعادن :

ثم التفت عن يمينك وانظر ما أبدعته القدرة وأحكمته الحكمة من أنواع المعادن المختلفة وأصنافها المتفاوتة التى أودعها الله سبحانه تحت الجبال وجعلها كنوزا للإنسان، وميز سبحانه وتعالى بين خواصها وفوائدها وألوانها وأشكالها فمنها ما ينطبع كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير، ومنها مالا ينطبع كالفيروز والياقوت والزبرجد. وانظر بفكرك إلى معادن الأرض كالنفط والقار والكبريت وأنواع النطرون والشب والبترول وغيرها ، وأقلها الملح الذى لو خلت منه بلد لسرى الفساد إلى أهلها ، وتدبر ما أودعه الله تعالى فى العقول من معرفة استخراج تلك المعادن وتنقيتها وكشف خواصها حتى انتفع بها الإنسان فسبحان الهادى الموفق .

قدرة القادر وعجيب صنعة الصانع فى النباتات :

ثم انظر ياأخى إلى أنواع النباتات المختلفة الألوان والأشكال ، وإلى أنواع فواكهها المختلفة الطعوم والروائح والألوان والأزهار، وتأمل إلى أنها غرست فى أرض واحدة وسقيت بماء واحد ، وفكر فى قدرة القادر الحكيم وعجيب صنعة الصانع البديع ، وتدبر قوله تعالى : (وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(١) فسبحان من أنبت من أرض واحدة نباتا يسقى بماء واحد ويمر به هواء واحد مختلفا اختلافا بيّنا ، كالاختلاف بين العسل والخل والملح والصبر وغير ذلك من التفاوت ، و يُخْرِج سبحانه من نواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ، ومن حبة بر واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . هذا ولوتأملت إلى أرض البوادى وتشابه أجزائها وفكرت فى حالتها

---

(١) سورة الرعد ايه ٤

إذا أنزل الله عليها الأمطار فإنك تراها قد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، تنبت أنواعا متشابهة وغير متشابهة اختلفت طبائعها وكثرت منافعها ، فما من ورقة تنبت من الأرض إلا وفيها منفعة أو منافع لا تحصى ، يقف فهم البشر دون إدراكها .

عجائب تحير العقول :

ثم انظر أمامك إلى ما أنعم الله به عليك من أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير ويقوم ويمشي على بطنه أو على رجلين أو على أربع وما يعيش فى الماء أو الهواء أو جوف الأرض ، وما يعيش فى الأودية والصحارى والغابات ، وما يعيش فى النار كالسمندل ، وتعجب فى أشكالها وألوانها وصورها وأخلاقها وأفعالها ، تر عجائب تحير العقول ، وأعمالا تندهش منها الألباب من تشييد المساكن ، وادخار المآكل ، وتنظيم العيشة ، وإعداد العدة للطوارئ ، والحيلة لدفع الأعداء ، والسياسة العجيبة فى جلب مالا بد منه . ولو نظرت إلى أقل حيوان كالبقة أو النملة أو النحلة وتتبعت أعمالها لحكمت أن الإنسان فى حاجة إلى تلقى دروس من تلك الحيوانات الصغيرة ، وكيف لا ؟ ولو نظرت إلى بناء النحلة بيتها ، وجمعها الغذاء ، وادخارها القوت للشتاء ، وحذقها فى هندستها ، ونظرت إلى العنكبوت فى نصبها الشبكة للصيد وتفننها فى الحيلة لذلك ، لتحققت أنه ما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من الأسرار والحكم والخواص ما به يتحقق المؤمن بعجائب قدرة الله سبحانه وتعالى ، وغرائب حكمته ، وكان كأنه فى معية الله تعالى لايغيب عنها ، وشهد بعين بصيرته سر قوله سبحانه : (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ)(١) وشهد لطف اللطيف بكل خلقه حيث منح كل حيوان صغيرا كان أو كبيرا ما به يحفظ حياته ويجلب غذاءه و يدفع عن نفسه شر العدو والحر والبرد .

النباتات وسط بين المعادن والحيوانات :

وانظر ــ أيها الأخ الحاضر القلب ــ إلى ما حولك من النباتات التى جعل الله سبحانه ثمارها غذاء لك ، وأوراقها وأغصانها غذاء لحيواناتك ، وسوقها تستعملها فى مساكنك

---

(١) سورة السجدة آية ٧ ــ ٨

وآلاتك اللازمة لك ، وخزن لك فيها ــ سبحانه وتعالى ــ حرارة الشمس التى تتشعع على الأفق لتستعملها عند حاجتك لها فتكون لك نارا تنضج بها خبزك وأدمك ، وتدفع بها عن نفسك قر البرد وتدير بها حركة آلاتك البخارية . وتفكَّر فى قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ)(١) ثم تناول شراب التوحيد ورحيق الألطاف الإلهية من قوله تعالى : (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)(٢)

خلق الله النباتات وسطا بين أنواع المعادن وأنواع الحيوان ، فجعلها ــ سبحانه ــ أكمل من المعادن ودون الحيوان ، فهى تزيد عن المعادن بالغذاء والنمو، وتنقص عن الحيوان بالحس والحركة . واللطيف الخبير لم يهب لها موهبة الحس رحمة بها ورأفة عليها لأن الله رءوف لطيف رحيم ، وذلك لأن النباتات تصادمها الأجسام الصلبة ، و يقطع منها الإنسان الفروع والأغصان فى كل حين ، وقد يقطع الشجرة قِطَعاً قِطَعاً ، فلو وهب الله لها الحس لكان ذلك تعذيبا لها ، فسبحان اللطيف الرءوف بخلقه ، غمر كل نوع من مخلوقاته برحمته فكما وسع الملائكة والإنس والجن برحمته ، وسع الحيوانات والنباتات والمعادن بها قال الله تعالى : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) (٣)

ولم يهبها الحركة لحكمة ولطف . أما الحكمة : فلأن الأشجار لو تحركت لأفسدت صغار النباتات والمساكن . ولطفه بها ــ سبحانه وتعالى ــ: أنها لو وهبت الحركة لأضر ذلك بها فسبحان اللطيف الخبير.

وانظر ياأخى إلى الحب والنوى إذا وضعتها فى الأرض الندية وأصابها حر الشمس انشقا بقدرة الله تعالى وامتصا الأجزاء الصالحة من الأرض ومن الماء ، وتراكمت تلك الأجزاء عليها بحكمة الله وتدبيره وقدرته ، وصار لهما عروق وقضبان وأوراق وأزهار ، وأصبحا شجرا عظيما ذا ساق وأغصان وفروع وثمر ، فسبحان الخلاق العظيم ما أعظم شأنه وأوضح برهانه .

---

(١) سورة الواقعة آية ٧١ ــ ٧٢

(٢) سورة عبس آية ٢٧ ــ ٣٢

(٣) سورة الأعراف آية ١٥٦

وأعجب من ذلك اختلاف روائحها فترى بعض الأشجار لها رائحة زكية ، و بعضها لها أزهار لا رائحة لها ، و بعضها تكون أزهارها وأوراقها طيبة الرائحة ، و بعضها يكون جسمها طيب الرائحة ، و بعضها تكون لارائحة لها فإذا احترقت فاح شذا عرفها ، و بعض النباتات تؤكل كلها ، و بعضها تؤكل أوراقها ، و بعضها تؤكل ثمارها وفاكهتها مع كثرة اختلاف اللون والطعم والشكل ، وما من ورقة من أوراق الأشجار إلا وهى تخالف الأخرى ، فلا نرى نوعا من أنواع النباتات يشابه الآخر.

وانظر إلى إبداع شكل الأزهار المختلفة مما تتحير الألباب فيه من قدرة القادر الذى أحكم هذا الصنع البديع ، فهى بهجة للأبصار ، وطيب لعضو الشم ، ولذة لعضو اللمس ولعضو الذوق ، وشراب وغذاء ، ومشهد لعلىّ الآيات ، ومظهر لسر التجليات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الإنسان شجرة الرب سبحانه :

وهنا إشارة بديعة تشير إلى أن الإنسان شجرة الرب وأن النباتات شجرة الإنسان ، ولذلك فإنك ترى ياأخى الإنسان رأسه فى العلو وأغصانه مدلاة على الأرض ، فهو يتغذى و ينمو و باب الغذاء عند رأسه ، والأعضاء الباحثة عن جودة الغذاء وطيبه عند رأسه ، فالأنف يشم الطعام قبل إدخاله فى الفم ثم يأذن بقبوله ، والعين تنظر إليه قبل إدخاله ثم تحكم بجودته ، واللسان يذوقه قبل بلعه ثم يرى صلاحيته فيرسله إلى المعدة ، والأسنان تهضمه الهضم الأول . وكذلك النبات فإن رأسه فى جوف الأرض وله عروق شعرية كاشفة ، وعروق نباتية ماصة ، فإذا وجدت الرطوبة دنت فمصت وإذا وجدت اليبوسة انكمشت وتحولت ، وكما أن الإنسان يمرض بترك الأكل أو بفقده فكذلك النباتات تذبل بفقد الغذاء ، فالراغب فى نيل مشاهدة الله تنكشف له تلك الآيات فتجلى له معانى التجليات ، قال الله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)(١)

---

(١) سورة فصلت آية ٥٣

نموذج من فهم الناس لزهرة واحدة :

ولو كتبنا ما يفهمه أنواع الناس فى زهرة واحدة لما وسع ذلك مجلدات ضخام ، أورد لك نموذجا من ذلك : لو أن عالما كيماويا أخذ زهرة وحللها وكشف ما فيها من أنواع المعادن والغازات المختلفة والجواهر ذات الرائحة الطيبة ، وعضو الذكورة والأنوثة فيها ، ثم بين خواص كل نوع منفردا ، وخواصها مجتمعة . وجاء الطبيب فبين لنا ما تزيله من الأمراض ، وما تفيده من تنبيه القوة ، وما يحصل منها من الضرر إذالم تستعمل بحكمة ، وتأثيرها على الأجسام الحيوانية وعلى المعادن . وجاء الشاعر العبقرى والناثر البليغ فوصفها بالعبارة وصفا يمثلها بالخيال بأكمل حقيقتها . وجاء المصور فرسمها رسما نظريا . وجاء الفيلسوف فشرح لنا قواها القابضة وما فيها من الرطوبات ، وأبان لنا عن توسط عناصرها وامتزاجها ، وعما فيها من قوة الإدراك التى تتحول بها إلى الشمس شروقاوغروبا ،والخواص التى بها هذا التجاذب الغريب . ثم جاء الحكيم العارف بالله تعالى فأبان لنا أسرار عجائب قدرة الله ، وشرح لنا الآيات الظاهرة فيها بعباراته الروحانية وإشاراته القدسية لما وسع ذلك مجلدات ، وهذا فى زهرة صغيرة .

وربما دخل الإنسان روضة فتّحت أزهارها ، وتناجت أطيارها ، وتمايلت أغصانها ، وجرى الماء تحتها فى أخاديد كأنه سبائك الفضة يجرى فى جداول من مسك،فلا يلتفت لفتة متدبر ، ولا ينظر نظر مستبصر ، ولا يصغى لتسبيح تلك الأزهار لمبدعها الحكيم القادر لغفلة قلبه وعَمَى بصيرته ، فسبحان الظاهر الذى لايحجب عن الأفكار لظهور آياته . الباطن الذى لا تدركه الأبصار عُلُوًّا وعظمة وكبرياء وهو اللطيف الخبير .

أقســـام النبــاتات

اعلم ياأخي ـ منّ الله عليك بنور الفكرة حتى تشهد آياته الظاهرة في السموات والأرض ـ أني لم أجعل هذا المختصر لأشرح فيه مُجْمَلَ علم النبات ، بل لألمع فيه ما ينبه فكرك لتلك الأسرار الخفية عن الغافلين ، المحجوبة عن الجاهلين ، ولتتميم الفائدة المقصودة من كتابي هذا أشرح لك مالا بد منه مما يضر جهله بالمفكر السالك في طريق الله ، العامل بكتاب الله تعالى ، فإن القرآن المجيد حثنا على الفكر في كل ذلك ، وشنع ـ سبحانه ـ في كتابه على الذين لايعقلون ولا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يستبصرون ولا يتوسمون ولا يفقهون ولا يسمعون ولا يبصرون ، أعاذني الله وإياك أيها الأخ الفاضل من أن نكون محلا لتشنيع الله وأهلا لما يوجب سخطه ، وجعلني الله وإياك وإخوتي المؤمنين ممن أثنى الله تعالى عليهم ومدحهم و بشرهم ، آمين .

إذا تقرر هذا فأقول لك و بالله التوفيق : النبات قسمان:شجر، ونجم . وفي كل قسم من الخواص النافعة والأسرار الغامضة ما ثبتت به الحجة على الوحدانية ، وظهرت به محجة الفكر للسير إلى حضرة القرب ، ولكن لأولي الألباب . فالأشجار ما لها ساق . والنجم مالا ساق له . والأشجار العظام كالحيوانات العظام ، والنجوم كالحيوانات الصغار ، وترى الأشجار العظيمة جدا لا ثمر لها كشجر الساج والدلب والعرعر لأن القادر الحكيم خلقها لينتفع الإنسان بخشبها ، فقدّر سبحانه وتعالى أن تصرف جميع المادة إلى نفس الشجر، وجعل مادة الأشجار المثمرة ينصرف بعضها للثمار و بعضها للشجر، كما ترى في الغالب حال الذكور والإناث في الحيوان فإن الذكر أعظم بدنا من الإناث للحكمة التي قدرها الله تعالى بأن جعل الأنثى محلا للحمل والوضع ، فتتجزأ المادة إلى غذاء الجنين وغذاء أمه . انظر إلى حكمة الله تعالى في خلق الأوراق كيف جعلها سبحانه زينة للأشجار، ورفعها عن الثمار لتقيها حر الشمس وتدفع عنها قر البرد ، وفرّق بين الأوراق لتتغذى الثمار من حرارة الشمس ومن رطوبة الهواء بحكمة حكيم قادر، فليست متكاثفة على الثمار فتحجب عنها مادة غذائها ، ولا بعيدة عنها فتفسدها شدة الحرارة والرطوبة ، ولو حصل ذلك لما تم نضجها ، فإذا

نمت الثمرة وصلحت تناثرت الأوراق حتى لا تضعف الشجرة بامتصاص مائيتها ، كما ترى فى الحيوان إذا أكملت الأم رضاع ابنها أبعدته عنها ، فسبحان من ألهم النبات وعلم الإنسان مالم يعلم ، ومن أراد تفصيل تلك الأنواع وفائدة خواص كل نوع فليطالع كتب المفردات لابن البيطار ، أو التذكرة لداود ، أو القانون لابن سينا، أو غيرها من الكتب ، فإن مختصرنا هذا وضع ليقظة القلوب من الغفلة ، وتنبيه العقول من نومة الجهالة ، و بيان الواجب على الإنسان لمولاه تعالى .

النظر إلى مافى الحيوانات من الخواص والآيات :

انظر إلى مالا بد لك منه مما لا يخلو منه منزل إنسان ، من الحيوانات الداجنة التى جعلها الله ليتغذى الإنسان ببيضها ولحومها، وغيرها مما جعله الله للإنسان يتغذى بألبانها ولحومها و ينتفع بأصوافها وظهورها وأو بارها وأشعارها . يسَّر الله لها الغذاء فتخرج صباحا إلى مراعيها وتعود إليك فى المساء وقد خزن الله لك الألبان فى ضرعها ، و بارك لك فيما تحمله فى بطونها فكلها نافعة لك ، ومنها ما خلقه الله لتركبه وز ينة لك . ولما كان قصدنا فى هذا المختصر بيان الآيات الظاهرة الجلية ، وما بين كل مرتبة من مراتب الوجود و بين بقية المراتب من الا تصال ، ليكون ذلك نبراسا لفكرك تهتدى به فى آيات مبدع السموات والأرض . فاعلم ياأخى — آنسك الله بشهود آياته الكونية ، وفقه آياته القرآنية — أن الحيوان وسط بين الإنسان والنبات ، فهو بالنسبة لغذائه ونموه أشبه النباتات ، وهو بالنسبة لأنه يحس و يتحرك أشبه الإنسان ، فتراه زاد عن النباتات بالحس والحركة ، ونقص عن الإنسان لأنه لم يهب له الوهاب النفس الناطقة، لحكمة أكشف لك ظاهرها على قدر ما يدرك عقل المر يد المسترشد ، و وهب له الحس والحركة رحمة منه وفضلا ، وهذه القوى مَنَّ الله — سبحانه وتعالى — بها على جميع أفراد الحيوان حتى على أنواع البعوض التى لا تُرَى بالعين المجردة ، بل ولا ترى بالنظارات الْمُعَظِّمَة ، وقد شوهد أن قطرة ماء آسن نُظِرَ إليها بنظارة معظمة فوجد فيها من أنواع الحيوانات المختلفة الألوان والأشكال مالا يحصى عدده ، ونظر فى جو متعفن إلى جزء من الهواء بتلك النظارة بعينها فوجد فيه من أنواع الطيور المختلفة مالا يحصى عدده ، و وراء ذلك مالا يمكن أن يشهد بالنظارة لصغر حجمه ودقته ، وفى كل حيوان من تلك الحيوانات عيون تبصر بها، وآذان تسمع بها، وأرجل وأجنحة ورأس وقلب وأمعاء .

قال الله سبحانه تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَايَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)(١) صريح هذه الآية أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يضرب الأمثال ولو بأصغر حيوان لا تراه العين المجردة ، ولا يرى بالنظارة المعظمة ، فيكون غيبا يصدّق به الذين يؤمنون بالغيب و ينكره الكافرون ، وقال بعضهم :

يامن يَرَى مَدَّ البعوضِ جَناحَها . فِي ظُلْمةِ الليل البهيمِ الأَلْيَلِ
و يَرَى عروق نياطها فى نحرها والمخَّ فى تلك العظامَ النُّحَّلِ
اغفر لعبد تاب من فَرْطاتِهِ ما كان منه فى الزمانِ الأَوّلِ

و بالجملة ففى كل حيوان لايشهد بالنظارة المعظمة من الأعضاء ما فى أكبر حيوان ، فسبحان القادر الحكيم الذى لاتحصى آياته ولا تستقصى أسراره . هذا وفى كل حيوان من تلك الحيوانات فوائد ومنافع وخواص أو مضار ، بحسب تدبير الحكمة الإلهية وتدبير المشيئة الربانية .

حكمة الحس والحركة للحيوان :

أذكر لك ــ أيها الأخ البار ــ حكمة الحس والحركة اللتين وهبهما الله تعالى للحيوان : اعلم أن الله تعالى لما قضى لكل حيوان أمدا معلوما ، وأبدان الحيوان متعرضة للآفات المفسدة لها والمهلكة إياها ، اقتضت الحكمة الإلهية أن تهب لها القوة الحساسة لتشعر بواسطتها بــالْمُنَافِى فتدفعه عن نفسها إذا أحست بألم ، فلولا هذه القوة لما أحس الحيوان بالجوع إلى أن يموت بغتة فجأة من عدم الغذاء ، ولكان إذا نام فأصاب يده أورجله نار لم يكن يحس بها حتى ينتبه من نومه فإذا هو بلا يد ولا رجل . وأما الحركة فإن الحيوان لما كان محتاجا إلى الغذاء ولم يكن غذاؤه يحفه فى جميع الأوقات اقتضت الحكمة الإلهية آلات الحركة ليتحرك بها إلى الغذاء ، ولولا القوة لاحتاج الحيوان إلى الغذاء ولم يقدر على المشى إليه فمات جوعا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦

كشجرة لا تجد الماء حتى تجف ، ولكان إذا أصابه آفة من حرق بقى على مكانه حتى يدركه الغرق أو الحرق . ولما كانت الحيوانات بعضها عدو لبعض اقتضت الحكمة الإلهية لكل حيوان آلة يحفظ بها نفسه من عدوه ، فمنها ما يدفع العدو بالقوة والمقاومة كالفيل والأسد والجاموس . ومنها ما يسلم من عدوه بالفرار فأعطى آلة الفرار كالظباء والأرانب والطيور . ومنها ما يحفظ نفسه بسلاح كالقنفد والشهم والسلحفاة . وما يحفظ نفسه بحصن كالفأر والحية والهوام . ومقتضى الحكمة الإلهية أن الله تعالى خلق لكل حيوان من الأعضاء ما يتوقف عليه بقاء ذاته ونوعه لا زائدا ولا ناقصا ، ولذلك اختلفت أشكالها وأعضاؤها وتنوعت أنواعها بأنواع كثيرة .

روى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ فِي الْأَرْضِ أَلْفَ أُمَّةٍ ، سِتَّمِائَةٍ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ وَأَرْبَعَمِائَةٍ مِنْهَا فِي الْبَرِّ)(١) ومن أراد أن يرى بعض الأنواع التى تحيط به من الحيوانات فليوقد نارا فى وسط غيضة بالليل ، ثم ينظر ما يغشى تلك النار من أنواع الحيوانات فإنه يرى صورا عجيبة وأشكالا غريبة لم يكن يظن أن الله خلق شيئا منها فى العالم . على أن الذى يغشى تلك النار يختلف باختلاف المواضع من الغياض والجبال والبحار والصحارى ، فإن سكان كل بقعة تخالف سكان غيرها ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأوضح برهانه ، لا إله إلا هو سبحانه .

الوصول إلى مقام القرب والفوز بحقيقة الحب :

فإذا نظرت يا أخى إلى هذا الفضل الواسع ونظرت إلى ما فيه من آثار رحمة ربك سبحانه ، وتأملت فوجدت طبقات الأرض لاتخلو من الحيوان ، وفسيح الأجواء لايخلو من الحيوان ، وأعماق البحار عامرة بالحيوان ، بل والغابات والأودية وقمم الجبال ، بل وأجواف النيران لاتخلو من الحيوان ، و بطون الصخور ، وأدركت الحكمة فى إبداع تلك الكائنات وكيف رفع السماء وخلق الإبل ، وكيف نصب الجبال وكيف بسط الأرض ، وشاهدت الاتصال بين مراتب الوجود ، علمت كيف تتقرب إلى واجب الوجود ومقتضى تلك النعمة على كل موجود ، وعرفت قدر نفسك بالنسبة لجنابه العلى فسبَّحته بلسانك وقلبك ، وشكرته

(١) يتلاقى هذا الحديث فى المعنى مع ما رواه أحمد عن النبى ﷺ « ما أمتى فى الأمم إلا كالشعرة » المسند ٤٤١/٦ .

بجوارحك وأعضائك ، وتحققت العجز عن إدراك حقيقته ، وابتغيت الوسيلة إليه ، وفوضت جميع أمورك إليه متوكلا عليه سبحانه ، وفررت منك ومن كل من سواه حتى تصل إلى مقام القرب وتفوز بحقيقة الحب ، قال الله تعالى : (هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ)(١) وخوفا عليك أيها الأخ من الملل أقتصر على ما بينت لك مما ينبه فكرك و يوقظ قلبك و يلفتك إلى معادك ، وما تعرف به أن الله تعالى سخر لك مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، فتخلص له العبادة كما قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)(٢) .

جـــاهد تشـــاهد :

فإن دعاك داعى العلم إلى تحصيل أسرار الكائنات وعلم ما خفى فى تلك الآثار فجاهد نفسك وزكّها ، واعمل بما علمت يورثك الله علم مالم تعلم ، ولا تطمع ياأخى أن ينكشف لك سر فوق مدارك فكرك وعقلك إلا بجهاد أكبر فى ذات الله ، وعمل فى سُنَّةٍ ماضية على صراط مستقيم ، لا فى بدعة محدثة وطريق معوج ، ولديها تظهر لك خفيات الأسرار من تعلق سر القيوم بكل شىء ، وشروق أنوار القادر فى كل شىء ، وانبلاج أنوار الحكيم فيك وفى الآفاق ، ثم ترفع ستارة الوهم عن الخيال ، و يزول حجاب التقييد عن الإطلاق ، وتظهر لك حقيقة قوله تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)(٣) يعلمك سر التسخير وحكمة التدبير ، فتكون لك ما تشاء عند ربك ، و يكون ربك سبحانه وتعالى أقرب إليك من حبل وريدك ، بل وأقرب إليك من كل محيط بك ومشهود لك ، يستجيب لك لاستجابتك له ، و يواجهك بمواجهتك له ، و يقبل عليك بإقبالك عليه سبحانه وتعالى ، وكل ذلك فضل منه سابق . قدر ذلك أزلا وأمدك بالمعونة والتوفيق حتى صرت إنسانا كاملا أو صديقا . وقد ألمعت إليك يا أخى فى الكتب السالفة بشىء من مجاهدة النفس فى الذكر والفكر ، و بينت لك الطريق المستقيم ، وشرحت لك المقامات والأحوال فيما كتبته لك ــ أيها الأخ ــ من الكتب الجامعة لمقامات الأئمة وأحوالهم وعباراتهم وإشاراتهم ، وفقنى الله وإياك لما به نجاة أنفسنا مما يوبقها ، ومنّ الله علىّ وعليك بالعمل بالكتاب والسنة ، وعلمنى الله وإياك علم ما لم نعلم إنه مجيب الدعاء .

---

(١) سورة الزمر آية ٩

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ ــ ٥٧

(٣) سورة الجاثية آية ١٣

النظر فى الإنسان

أُقعِمَت الدفاتر بشرح خواص الإنسان ، فلم يبق طبيب ماهر إلا وشرح حقيقة جسمه وبّين أسرارها ، وفصّل أعضاءه و بين وظائفها وما يحفظ عليها صحتها وما يعيدها لها إن فقدت ، فما من مفصل من المفاصل ولا وريد ولاشريان ولاعضو من الأعضاء العاملة إلا واختص به طبيب ماهر ، حتى صار للسن طبيب خاص ، وللجلد كذلك ، فلم يبق فيلسوف إلا وجعل الإنسان كعبة بحثه ، وأظهر غوامض أسراره ، وقام علماء النفس فبينوا أنواع النفوس وما يحفظ عليها صحتها وما يعيدهاعليها إن فقدت ، وقسموا فضائل النفس ورذائلها وما به ترقى إلى منازل كمالاتها حتى يكون الإنسان إنسانا حقيقيا بمعناه . وكل تلك العلوم مأخوذة من القرآن الشريف، لأن الله سبحانه وتعالى بينها بصريح العبارة ، حيث جعل الانسان خليفة لجنابه العلى ، وصورة مذكرة لحضرته العلية ، ومخلوقا منحه القوة على أن يتحمل الأمانة ، وجعله سبحانه وتعالى إن زكى نفسه وطهرها ووفَّى بعهده وعمل بما أمره يجلس يوم القيامة على كرسى من نور حول العرش فى جوار ربه جلت قدرته وتنزهت ذاته ، وإن ظلم نفسه وخالف أمر ربه وجحد نعمة المنعم هوى فى هاوية البعد ولظى القطيعة وأليم العذاب ، ولما كان هذا المختصر وضع ليقظة القلوب أحببت أن أتكلم على الإنسان بما يناسب هذا المقصد .

الإنسان :

الإنسان هو النوع الوسط بين الملائكة والحيوانات ، فهو بالنسبة لغذائه ونموه وحسه وحركته حيوان . و بالنسبة لإدراكه وقوة تصديقه بالغيب وتخيله الغائب بالمشهود ورقيه فى مراتب العلو حتى يدرك ما وراء المادة و يبلغ درجة أن يأنس بالمفارق مَلَك مقرب ، هذا هو الإنسان . فالإنسان حان الشراب للسالكين ، ودنان الراح للواصلين ، والشراب الطهور للعارفين ، ظهر مبناه وغاب معناه . وإن الإنسان بمعناه لابمبناه . وكم من وحش كاسر وشيطان ماكر وخنزير سفاد فى صورة إنسان . وكم من ملك روحانى وكروبى هائم فى جلال ربه وعالٍ آنس بمعية مولاه فى صورة إنسان . فمن وقف عند الصورة وحكم عليه قال : حيوان . ومن نظر بعين البصيرة إليه قال : مخلوق تخدمه الملائكة ، وولىّ تولاّه الله ، ومحبوب

قرَّبه الله ، وإنسان سخَّر الله له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه . الإنسان صوَّره الله بيده طينة صلصاليَّة ، ونفخ فيه من روحه القدسيَّة ، وأسجد له ملائكته فقربهم بسجوده وعلمهم ، وأبى السجود له إبليس فأقصاه وأبعده لتركه السجود للإنسان . الإنسان قرَّب الله به من قرَّب وأبعد به من أبعد .

الإنسان صوّره الله وهو منيٌّ فى رحم أمه ، فهو المصور لأبيه أوّلا والمصور لكل إنسان ثانيا ، قال الله تعالى : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَٰجِدِينَ)(١) . وقال سبحانه وتعالى : (هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ)(٢) الإنسان جمع الله فيه الضدَّين ، وأقامه حجة على عجز العقول عن اكتناه الغيب . جمع فيه العناصر المختلفة حقائقها المادية ، وبين الروح المجردة الكاملة النورانية ، فألفت الروح العناصْر وهى مفارقة لها ، فسبحان القادر الذى لايعجزه شىء . الإنسان مركب من النفس والبدن ، وهو الوسط وخير الأمور الوسط ، ولذلك كان أهل القرآن خير بنى الإنسان لأنهم أمة وسط . ركَّبه الله فى أحسن صورة روحا وبدنا . وميَّزه بالنطق والعقل سرا وعلنا . زين ظاهره بالحواس والحظ الأوفى ، وجمَّل باطنه بما هو أشرف وأقوى . ومنحه الذكر والفكر والحفظ .

فالإنسان مملكة عظيمة وعالم صغير: النفس سلطان المملكة ، والعقل وزيرها ، والقوى جنودها ، والحس المشترك صاحب بريدها ، والأعضاء خدمها ، والبدن كله محل المملكة ، والحواس تسافر فى جميع الأوقات فى عالمها ، وتلتقط الأخبار الموافقة والمخالفة تعرضها على الحس المشترك الذى هو واسطة بين النفس والحواس ، لأنه بواب المملكة وهو يعرضها على القوة العقلية لتختار ما يوافق وتطرح ما يخالف ، فسبحان من جعل هذا الجسم الصغير عالمًا تنطوى فيه العوالم .

إذا تحققت هذا ياأخى وعلمت أن للإنسان جهات شتى:جهة يكون فيها مُقَرَّب من الله آنس بشهود جماله سبحانه وتعالى ، وجهة يكون بها فى روضات الجنات ، وجهة يكون بها فى أسفل سافلين مع مردة الجِنَّة والشياطين ؛ ونظرت بعين بصيرتك فيما انطوى فى هذا

---

(١) سورة الحجر آية ٢٩

(٢) سورة آل عمران آية ٦

الجسم الصغير من الأسرار والحكم ، ثم جاهدت نفسك أن تنكشف لك أسرار النفس وكيف تعلقها بالبدن ، أمتصلة هى أم منفصلة ؟ وهل هى جوهر أم لا ؟ وأين مكانها منه إن كانت متصلة ؟ وظهرت لك من غرائب أسرارها أنها ليست جوهرا ولاعرضا ، ولا محل لها فى الجسم ، وأنها تعلقت به تعلق تدبير ، فإنك إذا رأيت أنها تقبل صور الكائنات كلها معقولها وغير معقولها ، ماديها ومجردها ، وتحفظ ذلك ولاينمحي بقبول غيره ، ظهر لك أنها ليست جوهرا وليست عرضا لأن العرض لايقوم به غيره ، ثم تدبرت أفعالها الخاصة بها حكمت على نفسك بالعجز عن إدراك حقيقتها ، سر قوله تعالى : (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)(١) . عند ذلك تحققت بعجزك عن إدراك ربك سبحانه وتعالى ، لأنك عجزت عن علم حقيقة مخلوق من مخلوقاته ، فكيف تحيط علما بالخالق ، تنزه وتعالى عن أن تدركه الأبصار أو تحوم حوالى عزته وعظمته الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية .

إذا صرف الإنسان همته ياأخى إلى جهة من تلك الجهات المتقدمة لالتحق بها . فإن وقف همه على حظوظ البهيمية رضى من أمر دنياه بالتغذى وتنقية الفضلات ، وإن صرفها إلى الحيوانية كان إما غضوبا كسبع ، أو أكولا كبقر ، أو شرها كخنزير ، أو جرعا ككلب ، أو حقودا كجمل ، أو متكبرا كنمر ، أو ذا روغان كثعلب ، أو جامعاً لكل تلك الصفات فيكون شيطانا مَريدا وهو فى صورة إنسان .

فلا تغتر ياأخى بالصورة ، فكم من إنسان جميل الصورة ذى هيئة و بزة ومال يعظمه الناس و يكون يوم القيامة أقل من الذر ! . وإن صرف همته إلى الجهة الملكية يكن متوجها إلى العالم الأعلى ولا يرضى بالمنزل الأسفل والمربع الأدنى ، فيكون مرادا بقوله عزوجل : (وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(٢) والله الموفق . و بذلك فضّل كثيرٌ من العلماء الإنسان الكامل على الملائكة ، وذلك لأن الْمَلَكَ روح مجردة والإنسان دائم الجهاد لم يخلص من مقتضيات عناصره ودعوات حظوظه وشهواته مما لاخلاص منه إلا بشق الأنفس ،

(١) سورة الإسراء آية ٨٥

(٢) سورة الإسراء آية ٧٠

. قال الله تعالى : ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١) فأنت أيها الأخ الراغب فيما عند الله تبلغ بجهادك الأكبر درجة تكون بها أفضل من الملائكة لأنك مجاهد وهم ليسوا بمجاهدين .

الفكر فى نفس الإنسان

تقدم الكلام على النفس فى : (معارج المقربين) وشرحنا فيه جملا تتعلق بالنفس الناطقة الملكية ، وألمعنا إلى شيء من أفعالها الخاصة بها إجمالا ترغيبا لطالب المزيد وتعليما للمسترشد نكتفى به عن إعادته فى هذا المختصر ، لأن القصد فيه يقظة القلوب من نوم الغفلة ، وشحذ الفكر ليجول فى هذا العالم الفسيح جولة يرجع منها بقبس الأنوار التى تبين له مناهجه وتزكو بها نفسه ، و يكون بها ممن أثنى الله تعالى عليهم بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٢) . وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣) وغيرها من الآيات التى مدح بها المتفكرين فى آياته وشكرهم وأثنى عليهم ، وحيث أن المقصود البحث عن النفس بحثاً يؤدى إلى الفكر ، فالواجب علىّ أن أتكلم على أنواع النفوس وعلى أفعالها الخاصة بها ، وأبين هل يمكن أن تكون نفسا واحدة مسارعة إلى جناب القدس الأعلى مقبلة على الله سبحانه وتعالى أوْ لا .

إعلم أن النفوس سبعة أنواع : نفس جمادية ، ونفس إبليسية ، ونفس نباتية ، ونفس حيوانية ، ونفس ملكوتية ، وروح قدسية ، ونفس كلية ، و بحثناهنا فى الأنواع التى تكون فى الإنسان .

قوى النفوس :

إعلم ـ أيها الأخ المسارع إلى مغفرة ربك ، الراغب أن تفوز بالنعيم المقيم فى جنات عرضها السموات والأرض كما قال الله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

---

(١) سورة النساء آية ٩٥ .

(٢) سورة الزمر آية ٢١ .

(٣) سورة الجاثية آية ١٣ .

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)(١)ـ أن الإنسان أول ما يخرجه الله تعالى من بطن أمه يكون مجردا عن قوى النفوس كما قال سبحانه وتعالى : (وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(٢) فأول ما يجعل الله له من قوى النفوس القوى الغاذية التى بها يتغذى لأنه كان فى بطن أمه كالنبات يتغذى بالامتصاص ، وليس ذلك يمنع من أن يكون متجمّلا بِقُوَّتَي الحس والحركة ، ثم يجعل الله له قوى الحس بأنواعها ، فيحس بها الملموس مثل الحرارة والبرودة والطعوم والروائح والأصوات والألوان والمبصرات ، ويجعل له قوة الميل فى قلبه فيشتاق إلى ما يحبه أو يكرهه ، ثم يجعل له سبحانه قوة أخرى هى القوة المتخيلة يحفظ بها مارسم فى نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة هذه الحواس لها ، وهذه القوة المتخيلة تركب المحسوسات بعضها على بعض ، وتفصل بعضها عن بعض تركيبا وتفصيلا مختلفا بعضه كاذب و بعضه صادق ، ويجعل الله له فى قلبه قوة ميل إلى ما تخيل أو عنه ، ثم بعد ذلك يجعل الله فيه القوة الناطقة التى هى النفس الإنسانية : (الحقيقة الخاصة للإنسان المميزة له عن بقية أنواع الحيوانات ، وهى التى يمكن أن يعقل بها المعقولات ويميز بين الجميل والقبيح ، و بها يحوز العلوم والصناعات) ثم يمده الله سبحانه بقوة فى قلبه يميل بها إلى ما يعقله و يشتاق إلى أن يتجمل بالحكمة وأسرارها .

أعضاء تلك القوى :

ولكل نوع من تلك القوى أعضاء منها رئيس ومنها مرءوس مسخرة بقدرة الله تعالى وحكمته ، ولسنا فى حاجة إلى تفصيلها وإن كان المريد الصادق يجب أن يشهد الآيات الظاهرة فى نفسه الدالة على حكمة الحكيم القادر وتدبير الصانع المبدع ، ليكون ذلك أدعى إلى كمال معرفته وإخلاصه فى العبادة لربه سبحانه ، وصرف جميع أوقاته فى الاشتغال بشكره سبحانه فأشير إلى ذلك بإلماع خفيف : إعلم ـ ياأخى ـ أن القلب ملك المدينة يرأس ولا يُرأس وتحته رؤساء أتباع له ، فالقوة الغاذية رئيسها فى الفم وخدمها متفرقة فى سائر الأعضاء

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٣ .

(٢) سورة النحل آية ٧٨ .

مثل المعدة والكبد والطحال والأمعاء ، والمثانة التى تخدم الكلية،والكلية التى تخدم الكبد والكبد الذى يخدم القلب ، وعلى هذا تتركب القوة الغاذية . والقوة الحاسة رئيسها القلب وخدمها الحواس الخمس المشهودة عند الجميع المتفرقة قواها فى العينين والأذنين والأنف وفى اللسان وفى الراحتين،وكل عضو من هذه الخمس يدرك ما يخصه فكأنها أصحاب أخبار موكل كل عضو منها بأخبار ناحية من نواحى المملكة . والقوى المتخيلة محلها القلب ليس لها خدم وهى حاكمة على المحسوسات تفرد بعضها عن بعض ، وتركب بعضها إلى بعض بحالة قد تكون موافقة للمحسوس أو مخالفة له . وأما القوة الناطقة فهى الرئيسة على الكل لايرأسها شىء . وأما قوة الميل إلى الشىء أو عنه التى تسمى بالنزوع ، وهى : القوة التى تشتاق إلى الشىء أو تكرهه . و بها تكون الإرادة ، فإن الإرادة ميل إلى ما أدركته أو عنه ، وهذه القوة لها خدم فإنها تتلقى نتائج أفعالها الخاصة إما بالحس أو بالتخيل أو بالقوة الناطقة ، وتحكم فيه بأنه ينبغى أن يؤخذ أو يترك ، والميل قد يكون إلى علم أو عمل أو ترك ، والعمل إما بالبدن جميعه وإما بعضو منه ، فالميل الحقيقى يكون بالقوة النزوعية لأن محلها القلب ، والأعمال بالبدن تكون بقوى مُنْبَثَّةٍ فى جميع أعضاء البدن من القوى الرئيسة ، فسبحان من حير الألباب وأدهش العقول بما أبدعه بقدرته وحكمته ونظمه بإرادته وتدبيره ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١).

ولو أنى فصَّلت لك ياأخى كيف ينزل الطعام فى المعدة ثم تتولى خدمته القوى المنبثة فيها من القادر الحكيم ، و بينت لك أنه سبحانه جعل فى المعدة أنهارا من عسل يصب على ماتأكله من الأملاح مزاجا متناسبا ، وأنهارا من خَلٍّ ، وأخرى من ماء ملح ، وأخرى من ماء حِرِّيفٍ وأخرى من ماء مُرٍّ ، ليعتدل غذاؤك فى معدتك ، وتلك الأنهار تجرى من غدد تصب عند اللزوم ـــ بحكمة وتدبير ـــ المقدار المطلوب بميزان وتدقيق ، بحيث لو نقصت نقطة أو زادت اختل توازن الأمزجة وحصل المرض للجسم . ولو علمت أن الله سبحانه وتعالى جعل للمعدة حركة لا تفتر سواء كنت نائما أو متحركا يصير بها الغذاء قطعة واحدة ولونا واحدا وطعما واحدا سهل الامتصاص والانحدار ، وعلمت كيف جعل الله بين المعدة

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣

وبين الأمعاء من الصمام الذى يفتح عند اللزوم ويقفل عند اللزوم ، فلا يفتح إلا بعد تمام هضم المعدة واشتياق الأمعاء بعد فراغها إلى الطعام ، لتحققت أن الله جعل ملائكته تتولى هذا العمل النافع بتدبير وترتيب ونظام ، ولا لوم عليّ إن قلت ملائكة فإن الْمَلَكَ هو قوة مسخرة بإذن الله تعالى : (لَايَعْصُونَ ٱللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)(١) وهذا النظام العجيب والترتيب الغريب لايكون اتفاقا ، تعالى الله عما يصفه الواصفون .

وهذا نَـزْرٌ يسير من الآيات المتعلقة بالمعدة ، فكيف لو ألمعت إليك بأفعال الأمعاء ومسامّها الشعرية التى تمتص الصالح من الغذاء عند انحداره من المعدة إلى الأمعاء ، وعلمت أن الأمعاء منها ما هو طولك ثمان عشرة مرة ، ومنها ما هو طولك اثنتا عشرة مرة ، وأن الطعام يمر فى كل جزء منها ويمتص منه فى كل جزء من تلك الأجزاء مواد تغاير الأخرى ، وما يمتص تقوم الكلية فتمتص منه المائية فتنقيه من الماء ، ويقوم الطحال فينقيه من الكدر ، وما صفا منه يذهب بقوة الله تعالى إلى الكبد فيطبخه طبخا جيدا ويصبغه بالحمرة ، ثم ينتقل إلى القلب ، وهناك يطهره الله تعالى بالتنفس بواسطة الرئتين ، ثم يصرفه الله سبحانه وتعالى من القلب إلى جميع الأعضاء بحكمة وتدبير وقوة مدبر ، فيصرف إلى العين ما يناسبها من الغذاء وما يصلح الحدقة ، وإلى الأذن كذلك ، وإلى الأنف وإلى بقية الأعضاء بمقادير متناسبة ، بحيث لو كان اتفاقا وتحول ما يغذى الفخذ إلى العين لأصبحت العين ناتئة مفسدة بقوتها مشوهة للوجه ، وأصبح الفخذ كغلاف الزهرة ، فسبحان الحكيم القادر العليم . تنبه أيها الأخ فما خُلِقْتَ عبثا لأنك حملت الأمانة ، وما خُلقت لتكون ترابا لأنك خلقت لتكون أبَدِيَّ الوجود ، فلا تنظر إلى آيات ربك وحِكَمِهِ نظرة الغافل اللاهى الذى لاهمّ له إلا شهوة بطنه وفرجه أو أهل الغواية الذين يجمعون الأموال لكبت الأعداء وإساءة الحساد والعلو فى الأرض بغير الحق ، أو أهل الضلالة المترفين الذين يعتقدون أن هذه الدار لادار بعدها .

---

(١) سورة التحريم آية ٦

آلات العـــــلم

اعـلـم ــ يـاأخـى ــ أن عـلم الشىء قد يكون بالنفس الناطقة وقد يكون بالمتخيلة وقد يـكـون بـالإحساس ، فإذا كنت ــ أيها الأخ ــ ملت إلى تحصيل علم للنفس الناطقة ، فإن ذلك العلم لايمكنك أن تتحصل عليه إلا بقوة أخرى فى الناطقة ، التى نحن فى صددها وفى الحث عليها ، وهـى الـقـوة الفكر ية التى تكون بها الفكرة والرو ية والتأمل ، وهى الضالة الـمـنـشـودة لـنـا . أسـأل الله تـعـالـى أن يمنّ علينا بالشوق إلى علوم النفس الناطقة ، ونمو قوة الـفـكـر ، حـتـى يحصل الاستنباط و يثلج القلب بالإيمان بالغيب ، وإن كان الميل إلى علم شـىء يـدرك بـالإحـسـاس كـان الـذى نـنـاله به فعل مركب من عمل بدنىّ ونفسانىّ ، فإن اشـتـقـنـا إلى رؤ ية شىء احتجنا إلى رفع الأجفان ، فإن كان بعيدا مَشَيْنَا إليه ، وإن كان مستورا رفعنا عنه ستارته بيدنا ، فالإحساس نفسانىّ والحركات بدنية .

وهـكـذا يمـكـنـك ــ أيها الأخ الحكيم المتدبر ــ أن تجول بفكرك جولة فى الآفاق وفى نـفـسـك وفـى الأرض حـتـى يتبين لك الحق ، وعندها تحصل لنفسك البهجة الحقيقية واللذة الحـقـيـقـيـة الـتـى لانسبة بينها و بين الملاذ الحسية بوجه من الوجوه ، وتسرى تلك البهجة من الـنفس الناطقة إلى بقية النفوس والقوى التى جعلها الله فيك ، حتى تكون أيها الأخ ، بكل قوة من قواك مقبلا على الحق ناهجا على الصراط المستقيم ، كما قال الله تعالى : (صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ)(١) وتكون مسلما حقيقيا بكل معانى مادة « أسـلـم » مـن الـتـسـليم والاستسلام والسلام والسلامة والسلم والإسلام ، وتكون على ملة أبـيـك إبراهـيـم عـلـيـه الـسـلام كـمـا وصـاك ر بـك سبحانه وتعالى فيجملك ر بك بحلة : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)(٢) وتتحقق بقوله تعالى : (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)(٣) ويمنحك الله الروح الملكية التى تـقـتـدى بـهـا جميع قواك ، وتتشبه بها بقية النفوس التى قامت بها حقيقتك ، ولديها تتحد تلك

---

(١) سورة الشورى آية ٥٣

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠

(٣) سورة الأنعام آية ٧٩

النفوس فى الوَجْه وتكون كنفس واحدة ، وتكون أيها الأخ مَلَكـًا فى صورة إنسان ، تشرق أنوارك على الملكوت الأعلى بما يصعد إليه من أفعالك الملكية ، وأحوالك النبوية ، وأعمالك الشرعية ، وعقيدتك الحقة ، ولديها تشتاق إلى الموت لا لأنك تموت ولا لأن الموت يكون له سلطان عليك بل لتتصل بـ (ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ)(١) وتفارق المفارق لك من بنى جنسك وإن كانوا مشاكلين لك فى الصورة ، لأن المجانس لك فى الصورة فارقك فى الاعتقاد والقول والعمل والحال ، والمفارق لك فى الصورة وهو عالم الملكوت الأعلى صار مُشَاكِلاً لك فيا تقدم ، قال الله سبحانه وتعالى : (قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)(٢) وقال ﷺ : (الموتُ تُحْفَةُ المؤمِن)(٣) وكان الصحابة وأهل العلم بالله تعالى من التابعين وغيرهم يلقون بأنفسهم على الأعداء عند الجهاد حنينا إلى لقاء الأحبة سيدنا محمد ﷺ وحزبه وفى هذا المقام تُنفخ فيك روح من القدس يمدك الله بها فتكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أسرار هذا المقام :

وأسرار هذا المقام غامضة ، وأحواله خفية ، وعلومه قلبية ، لايمكن الإشارة إلى شىء من ذلك فى مثل هذا المختصر وقد ألمعت إلى هذا المعنى فى الأبيات الآتية :

فِى هَيْكلى سِرُّ غيبٍ لابِتَحْديدٍ ... بحيطةٍ أو حُلولٍ أو بتجريدِ
سِرٌّ عَلِىٌّ عن الإدراكِ ظاهِرُهُ ... يُنْبِى بعلمٍ به قد صحّ توحيدى
بعينِ قلبى أرآهُ وليس له ... كَيْفٌ يُمَثِّلُهُ سرِّى بمشهودى
إذا تجردتُ عن قيدِ العناصرِ فى ... فكِّ الطلاسمِ عن وهمى وترديدى

---

(١) سورة النساء آية ٦٩

(٢) سورة البقرة آية ٩٤ــ ٩٥

(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ووثقه صاحب مجمع الزوائد ٢ / ٣٢٠ .

وعن خيالٍ به المعنى مُمَثَّلَةٌ ... وعن عناصرى الأولى وتقييدى
يلوح فىَّ جمالٌ عينُ صورته ... منزَّةٌ لابدءٍ أو بتجديد
بِهِ أرى الوجهَ مَا وَلَّيْتُ مُشْرِقة ... أنوارهُ لِسُوَيْدَا القلبِ بِشهودى
ياصورةَ الحقِّ والأسرارُ غامضةٌ ... عن العقولِ بِدَرْكٍ أو بتعديد
إليك طال حنينى بعد معرفتى ... هل من شهودٍ بمحض الفضلِ والجود
يانفحةَ القدسِ فى سُورٍ حوى حِكَمًا ... بغيرِ مَزْجٍ وخلْطٍ أو بتشييد
إليكِ قد أَلِهَتْ نفسى وبُغْيَتُها ... عِنْدِيَّةٌ تَمْحُو إطلاقى وتقييدى
حتى أكونَ بلا كون يقيِّدنى ... عن مشهدِ الوجهِ فى أُنْسى وتجريدى
أوَّاهُ لى ساعةٌ لولا العناصرُ قد ... حَجبت لطائفَ قلبى بُحْتُ بعهودى
لكنَّ نفسىَ فى أُنْسى محصَّنةٌ ... بحصنٍ مُتَفَضِّلٍ بالحفظِ وَوَدود
وفى معيةِ فردِ الذَّاتِ سابحةٌ ... فى كوثرِ الحب أو فى حوضِ مورود

* * *

جِلا النفسِ بعد يقينِها بشهودى ... وَرِفْعَتُها عندى بحفظِ حُدودى
وَطُهْرتُها التحقيقُ بالغيبِ عندما ... تُنَاوَلُ راحَ حقيقةِ التوحيد
وبهجتُها مرأى جمالى منزَّها ... بمرآةِ هذا الكونِ لابقيود
لديها هى النفسُ الزكيةُ جُمِّلت ... بسرٍّ فلاحى أو بنورِ شهودى

البحث عن المرشد أولا :

ولا أقف بك إلى هذا الحد من العلم ، ولكنى أحثك أيها الأخ أن تهتم أولا بالبحث عن المرشد الذى منحه الله تعالى العلم به سبحانه وتعالى و بأيامه وآياته وأحكامه ، فإذا ظفرت به وأنست من نفسك حسن الاقتداء والاتباع ، وجعلت لك عملا خاصا ينشرح صدرك إليه ، وأحب أن يكون نفسانيا ، لاأعنى بالنفسانى إلا إخلاص النية وحسن الإرادة فى أعمال البر التى ييسرها الله لك ، إن بلسانك و يدك ، وإن بهما وبما لك ، وإن بهما و بجاهك ، حتى تكون ياأخى جاهدت فى الله بمالك ونفسك مجاهدة تنتج المشاهدة .

أفعال النفس الملكية الخاصة بها :

النـفـس المـلكية أفعالها الخاصة بها اكتساب العلوم الإلٓهية والمعارف الربانية ، والفكر فيما ظهر من الآيات،والاستعداد لليوم الآخر ، واستحضار عظمة العظيم ، والتـدبر فى حكمة الحكـيم ، وقـدرة الـقادر ، ومشاهدة معانى الصفات فى جلى الآيات ، ولذلك فإنها تفر من أفعـال الجسم الخاصة به ، فكلما كان للإنسان شوق إلى أعمال النفس الملكية ، ومنحه الله الهمـة والـتوفـيق ، ومـنـع عـنـه العوائق كلما تزايد فضله ، وكوشف بأسرار الحكمة وصار روحـانـيـا كاملا ، فعليه أن يعتنى بنفسه ، و ينصرف عن الأمور العائقة عن بلوغ كمالاته ، فـإن الإنـسـان قـد يـتـهـاون بـهـذا الأمـر حـتى تعوقه الرذائل والخبائث والحظوظ والشهوات والأطـمـاع والـغـايـات عـمـا خلق له ، و يظن لجهله أن ما هوفيه من الشهرة وكثرة الأموال ونـفـوذ الـكـلـمـة والـتـرف والنعمة والملاذ البدنية أنه هو الكمال النفسانى ، و يفتخر لجهله بكـثـرة المـال ، وَكَذَبَ ، فإن الفخر إنما هو للمال ولجمال بيته وجودة ركائبه وحسن ملبسه وجمال وجـهـه ، ولافـخـر فى هذا كله للمفتخر ، وإنما الفخر للبنَّاء وللجوَّاد والخياط ولأمه الـتـى كـانـت جمـيـلـة الـوجه . وإنما الفخر بالكمالات النفسانية والفضائل الحقيقية التى هى خاصة بالإنسان ، لابمنكح شهىّ وفراش وطىّ وعيش هنىّ وثوب بهىّ ، فإن أدنى الحيوانات مبتهج بكل تلك المعانى أكثر منه :

عليك بالنفس فاستكمل فضائلَها   فأنت بالنفس لابالجسمِ إنسانُ

المجاهدة لنيل الكمالات النفسانية :

إذا نظرت بفكرك فيما ألمعنا إليه من الآيات ، وتحققت أنك لم تخلق عبثا ، وأن أعمالك محصـاة عـلـيـك ، وأن أنـفـاسـك مـعدودة عليك ، ولا ملجأ ولا منجى لك من الله إلا إليه ، وتحـقـقت الحكمة التى لأجلها خلقك الله وسخر لك عوالم مُلْكه ومَلَكُوته ، وأعد لك مقعد صدقـه ، لـتـكـون فى جـواره الـعلى ، قـمت من نومة غفلتك ، ورقدة جهالتك ، و بذلت مافى وسعـك وطـاقـتـك ، لـتنال الغاية القصوى التى ينالها عبد مسلم آمن بالله ورسوله و بالقرآن المـجـيـد ، محتقرا زينة الحياة الدنيا و بهجتها ، فارًّا من غروره وسالكا طريق الاستقامة التى

هى أقرب طريق فيه السلامة والنجاة ، وهوطريق أئمة الهدى ــ الصراط المستقيم ــ الذى بيَّنه لنا رسول الله ﷺ ، ونتجنب الشرور العائقة لنا عن هذا الكمال ، ونفارق الخليل والصديق والصاحب إذا عاقنا عن هذا الكمال،بل والزوجة والولد ، بل ونقلل الأكل والشرب والنوم ونهاجر من الأوطان إن كان فى ذلك نيل الكمالات النفسانية،والفوز بالنعيم الأبدى،وتجريد الفكر للنظر فى الآيات ، وكيف يرضى العاقل أن يبيع النعيم الأبدى بدفع ألم يزول ؟ . فإن كل ما نراه لذة فى هذه الدار هو فى الحقيقة ليس بلذة ، وإنما هو دَفْعُ أَلَم أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنحنى وإخوتى المؤمنين جميعا الخير الحقيقى فى الدنيا والآخرة إنه مجيب الدعاء ، حتى نسارع إلى مقامات القرب والملك الكبير والنعيم الأبدى والسرور الحقيقى ، ونصل إلى قرة العين التى بشرنا الله تعالى بقوله : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)(١).

من هذا تتحقق أن أفضل الأعمال التى تصدر عنك أيها الأخ و بها تتقرب إلى ربك وتنال بها السعادة الحقيقية هى أفعال النفس الملكية الخاصة بها من الفكر فى آلاء الله ، واستنباط ما به الخير من الأفعال ، ومراقبة القريب والشوق إلى جنابه العلىّ ، والاجتهاد فيما يقربك إليه من أعمال البر والتقوى ، ثم تكون أعمال النفوس الأخرى مع الرَّوِيَّةِ والاقتداء بالنفس الملكية والعلم بأن تلك الأعمال موافقة للكتاب والسنة صادرة عن إخلاص وصدق . و بذلك تكون ــ أيها الأخ ــ من أولياء الله تعالى المقربين ، ومن عباده المخلصين ، ومن العارفين الروحانيين الذين يبشرهم تعالى بقوله : (لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)(٢)

سُلَّمُ الإرتقا و بابُ التدانى ... حُسنُ ظنٍّ بالله فى كلِّ شانِ
و يقينٌ به الفؤاد مضىءٌ ... بشموسِ الهدى من القرآنِ
وجهادٌ للنفسِ بعد يقينٍ ... واجتهادٌ فى ذاتِ ذِى الإحسانِ

---

(١) سورة السجدة آية ١٧

(٢) سورة الزخرف آية ٦٨

وَتَخَلَّ عن الغرورِ بمالِ ... وبجاهٍ أو رغبةٍ فى الكيانِ
وتحلَّ بالزهدِ فِى كلِّ فانٍ ... بكمالِ التصديقِ والإيمانِ
واشتغالٌ بطاعةِ الله دوماً ... مع رغب فى الذاتِ لا فى الجنانِ
وفناءٌ عمَّا سوى الله تبدو ... لك منه شمسُ الصفا بالتهانى
والتفاتٌ إليه بالعزمِ رغبا ... فى نوالِ الرضا وفضلِ الحنانِ
كلُّ هذا متابعاً لهدْىِ طه ... فهو حصنُ الواقِ وكهفُ الأمانِ
وهو نورُ الهدى صراطٌ قويمٌ ... من يخالف يَهْوِى إلى النيرانِ
وَحِمَى الله أمرُه وهداهُ ... قولُ طه وفضْلُه بالبيانِ
فاتَّبِعْه تنل رضا اللهِ تحظَى ... بنوالِ الزُّلْفى وبالإحسانِ
أحْيِ سنن النبِيِّ فيكَ بعزمٍ ... وانْشُرَنْها بحكمةِ الفرقانِ
وإلى التَّوْبِ بادِرَنْ أن تخالف ... فى صغيرٍ، وخلِّ عنك التوانى
كلُّ ذنبٍ وإن تراه صغيرا ... فهو نارٌ إن لم تنل غفرانى
صَغَّرَ الذنبَ جاهلٌ بمقامى ... وبفضلى وعزتى وحنانى
هفوةُ العارفينَ أكبرُ ذنبٍ ... فابذل النفسَ تُمنحن رضوانى

كمال النفس

أكمل النفوس نفس المصطفى ﷺ :

إن الله تقدست ذاته وتنزهت صفاته خلق نفس سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ نورا من نوره سبحانه وتعالى منزهة مطهرة ، أكمل النفوس على الإطلاق من الرسل والملائكة ، وأمد نفوس الرسل عليهم الصلاة والسلام من هذا النور المحمدى ، فهى أكمل النفوس بعد نفس سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، طهرها الله تعالى وزكاها وعصمها لأنه سبحانه وتعالى جعل نفوس الأنبياء أئمة لعباده وقدوة لخلقه وأظهر على أيديهم صلوات الله وسلامه عليهم مالا يقدر على إيجاده إلا الله سبحانه وتعالى من عجائب الآيات وغرائب المعجزات ، ولما كانت أنوارهم أفاضها الله تعالى عليهم من نور سيدنا ومولانا محمد ﷺ كما هو صريح القرآن المجيد ، وسر بشائر أسفار الرسل عليهم الصلاة

والسـلام خصوصا ما صرح به سيدنا عيسى بن مريم رواية حوارييه برنابا عنه ﷺ بقوله : (الرسول الذى يأتى من بعدى محمد أتمنى أن أكون حاملا لحذائه) ، ولا أقول ذلك تنقيصا لمقامات رسل الله صلوات الله عليهم،أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، ولكن إظهارا لفضل الله علينا جماعة المسلمين وتحدثا بنعمته علينا ، ودليل ذلك قوله : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)(١) .

نفوس الرسل عليهم السلام :

لست فى مقام التفاضل ولكنى فى مقام الفكر فى النفوس ، فانظر ياأخى إلى النفس التى جعل الله لها الأرض بحرًا لُجّيًّا وأنجاها فى سفينةٍ هى ومن أحبت . وانظر إلى النفس التى جعل الله لها النار روضة من رياض الجنةِ.وإلى النفس التى جعل الله لها العصا ككلمة (كن) فجعلت البحر يبسا،وصارت حية ذات روح تسعى،وفجرت ينابيع الماء العذب من الحجر الصلد . وتفكر فى النفس التى منحها الله الكلمة فأحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص،وخلقت من الطين كهيئة الطير. ثم أقبل بقلبك وقالبك ، واعلم بأن تلك المعجزات آيات للإثبات قد تنتج لمن شهدهاالكمالات وقد لا تنتج . وانظر إلى الروح القدسية التى هدى الله بها بعد الضلالة ، وجمع بها بعد التفرقة ، ونوّر بها بعد الظلمة ، وأحيا بها بعد الموت ، وأعز بها بعد الذل ، وقوى بها بعد الضعف ، ومكّن بها بعد الخوف . تناول ياأخى من صافى هذا الشراب الطهور كيف أقام الله سيدنا ومولانا محمدا ﷺ مقاما لم يقم فيه قبله نبى مرسل ولاملَك مقرب ، وكيف لا وقد أقامه مقام نفسه سبحانه، وذق ذلك من آيات القرآن الحكيم ، فإن هذا المختصر ليس محلا لهذا . أسأل الله تعالى أن يعيننا على شكر النعمة التى أنعم بها علينا بحبيبنا وسيدنا محمد ﷺ .

---

(١) سورة آل عمران آية ٨١ .

نفوس الأولياء :

ومن النفوس الكاملة نفوس الأولياء الذين طهرهم الله وزكاهم ، وجعلهم ورثة لرسله ونجوما فى أفق صراطه المستقيم ، وأظهر بهم غرائب وعجائب ، فكم أحيا بهم قلوبا ميتة ، وهدى بهم نفوسا لقسة ، وكم شفا عند دعائهم من الأمراض ، وأنزل الأمطار وأزال البلاء ونفَّس الكُرب ، وجعل السباع لهم مركبا،والوحوش تأنس بهم،والطير تتساقط عليهم ، وغير ذلك من الآثار العجيبة التى لايقصدون عملها ولكن الله سبحانه وتعالى يكرمهم بها لأنهم أولياؤه المخلصون . و يظهر ذلك على أيديهم ليظهرهم لعباده ولينبه بقدرهم عند خلقه ليحسن الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ، فإذا تفكرت فى تفاوت تلك النفوس وتباينها وفى خصوصياتها،علمت ياأخى قدر وسعة الفضل العظيم وذقت حلاوة التوحيد .

نفوس أهل الفراسة :

وهناك نفوس ياأخى يكشف لك أهلها من وراء الستائر بعض ماجرى به القدر تلويحا لا تصريحا فتشير بما يلوح لها وتبشر ، قال الله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)(١) وقال ﷺ (اتقوا فِراسَةَ المؤمنِ فإنه ينظرُ بنورِ اللهِ)(٢) وكم من بشائر كانت يقينا،ومن إشارات كانت أقوى من التصريحات ! وهى نفوس فاضلة مؤهلة لمقامات الولاية ومنازل العناية ، وتلك النفوس كثيرا ما تستدل بالأحوال الظاهرة على الأمور الباطنة .

نفوس أصحاب القيافة والكهنة وأصحاب العرافة :

ومنها نفوس أصحاب القِيَافَةِ ، والقيافة إما قيافة البشر وإما قيافة الأثر . فقيافة البشر أن تدرك النفس أن هذا المولود ابن فلان أو ابن فلانة ، فيؤتى للرجل منهم بالمولود ومعه عشرون رجلا وعشرون امرأة فيقول هذه أمه وهذا أبوه فيكون كما يقول ، وكم حصلت منهم عجائب . و يكثر هؤلاء القوم فى بنى مدلج . أما قيافة الأثر فتكثر فى بلاد المغرب ،

---

(١) سورة الحجر آية ٧٥

(٢) رواه الترمذى فى كتاب التفسير.

وقد رأيت فى بلاد السودان كثيرا من الناس يقيفون الأثر حتى قد يسرق من الرجل ماله ليلا ، فَيُحْضَرُ الرجل منهم فيمشى معهم حتى يصل إلى المال الضائع ويحضره ، ورأيتهم يعرفون قدم الشاب من الهرم والرجل من المرأة ، ولكن ذلك لا يكون إلا فى الأراضى الرملية التى تظهر فيها الآثار.

ومنها نفوس الكهنة . وهى نفوس تتلقى الروحانيات وتكتسب أحوال الكائنات التى تدل عليها المنامات وغيرها من الحادثات ، ولهم حوادث لاتحصى وغرائب لا تستقصى ، أشهر ذلك ما أخبر به سطيحٌ وشقٌّ الكاهنان من قرب بعثة النبى ﷺ وما يكون من الفتح والنصر له ﷺ .

ومنها نفوس أصحاب الْعَرَافَةِ . وهى نفوس تستدل ببعض الحوادث على بعض لمناسبة بينهما أو مشابهة ، وكثيرا ما أخبروا عن أشياء وافقت الحقيقة ، ولايخلو كل زمان من وجود كثيرين من أهل تلك النفوس .

النفوس المؤثرة :

هذه النفوس لها قوة تأثير فمنها ما يؤثر بالنظر ، فإذا نظر الرجل منهم إلى آخر أو إلى ماله نظر تأثير أضره ذلك ، وقد ينظر أحدهم إلى نفسه أو ولده أو ماله . وتلك النفوس تأثيرها بالانفعال الذى ينتجه الحسد أو التعجب . وقد ورد فى العين أحاديث كثيرة ، وقد وردت الأدعية النبوية والرُّقَى لدفع شر العين . ومن قرأ المعوذتين فى كل يوم صباحا ومساء بعد خواتيم البقرة وقال : (أعوذ بكلمات الله التامات كلِّها من شر ماخلق ، بسم الله الذى لايضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، اللهم صَلِّ على سيدنا محمد الرءوف الرحيم ، وأعذنى من شر كل ذى شر فى الأرض وفى السماء ، ياحفيظ ياسلام ياألله) . حفظه الله من شر العين .

ومن تلك النفوس ؛ النفوس المؤثرة بالتمتمة والعزائم واجتماع الهمة لدفع ضرر أو لجلبه لعدوهم ، ولا يلزم أن تكون تلك النفوس مؤمنة ، بل قد يقع ذلك من المؤمن والكافر ، ومن الرجل والمرأة ، والحر والعبد ، لأنها نفوس مستعدة لذلك ، وربما كان لها ذلك التأثير قبل سن البلوغ ،

و يعرف ذلك بشدة التأثير من المؤلم وظهور الذل والالتجاء إلى الدعاء . ومن تلك النفوس المؤثرة نفوس أهل الطلسمان والتمائم العالمين بطبائع الحروف والإنسان والحيوان ، و بطوالع الأفلاك ؛ ولهم تأثير عجيب فى أعمالهم بقوة تأثيرهم خصوصا على أهل النفوس القابلة للتأثير، و يكون ذلك بعلمها أشد . فكم فرقوا بين الزوج وزوجه ، وجعلوا بعض الناس فى ذهول عن لوازمهم الضرورية ، وأثروا على بعض الناس بإضعاف الخيال ، حتى يرى كأن آتيايأتيه و يتكلم معه ليلا ، أو يتخيل ذلك نهارا . ومن هذه النفوس المؤثرة نفوس الذين يبينون الضائع و يكشفون خبايا الأرض ، فإن لهم تأثيرا عجيبا على بعض النفوس ، حتى يجرد الذى يؤثر عليه من عالم الحس مع يقظته كأنه نائم يسمع ويجيب ويمشى ، وذلك بتأثير نفسانى على قوى النفس الإنسانية . ولم يكن للمسلمين عناية بمثل هذه الأمور التى نهى عنها الإسلام ، ولكن كان يعتنى بها أهل النفوس المؤهلة لها بالفطرة فبقيت آثارها للآن ، ومتى كملت عقيدة التوحيد ، وطَهُرَ الخيال من تمثيل الحقائق بغير حقيقتها ، لا تؤثر تلك النفوس على من اتصف بتلك الصفات . وقد ظهر ببلاد بنى الأصفر تأثير تلك النفوس وهو الذى يسمونه بالنوم المغناطيسى . ومن تلك النفوس نفوس تؤثر بازدواج بعض النغمات ، وأصوات الطبول ، تأثيراً عجيبا يفضى إلى زوال بعض الأمراض كالفالج واللوقة ومبادى النقطة وأمراض من أنواع التشنج ، ولكن أصحاب تلك النفوس لابد أن يكونوا حكماء ليعملوا تلك الأعمال بمقادير متناسبة وفى الأمراض المخصوصة .

وقد ادعى أهل الغواية عمل هذا العمل بحالة مزعجة حتى أفسدوا خيال كثير من الناس ، وأوهموهم أن هناك عفاريت تأتيهم ، وشيوخ تزورهم لا للإستشفاء بل لخديعة الناس وسلب أموالهم ، و يسمونه الآن بالزار ، والضرر به صار عامًّا والمصاب به صار طامّاً ، وما ذلك إلا من استيلاء الجهالة على العامة . وقد كثر بذلك الفساد فى النساء ، حتى صار الرجل يأخذ زوجته بيده و يذهب بها إلى الزار ، وربما صنعه فى بيته ، وقد يكون من أهل الفضل والعلم ، وهذا كله من كيد النساء ــ إن كيدهن عظيم . ومن تلك النفوس:نفوس تؤثر على النفوس لتركيب بعض عقاقير وتآلفها وسرعة الحركة فى ذلك ، وعمل ما يخيل للرائى صورا وأعمالا غريبة ، وأصحاب هذه النفوس يلزم أن يكونوا علماء بخواص العقاقير، أو تلقَّوْا هذا العلم ، و يسمى بعلم النار نجيات وله تأثير غريب فى هذا الباب ، وهذا لابأس

بـه إن لـم يجر فساداً بأن كان المراد بالعمل به إظهار أسرار العقاقير منفردة ومزدوجة ، كما يحصل ذلك فى التراكيب الكيماوية . وأما إن جر إلى فساد بأن يوهم الناس بأن ذلك من فعل العفاريت ، وأن هُنا كنزا يريد فتحه ، أو أنه يمكن أن يحضر العفريت الفلانى يتكلم معه ؛ فإذا حصل منه فساد فمحرم شرعا .

وتأثير النفوس لاينكره إلا من لانفس له فإن الله سبحانه وتعالى كما جعل لكل نبات ولكل معدن ولكل حيوان خواص وتأثيرات ، فإن الله تعالى جمع ذلك فى نفوس الإنسان وأكثر . وكم رأينا من أعمال الحواة والمشعوذين وتأثير نفوس السحرة مالا يصدق به الإنسان إلا برؤيته .

تأثير نفوس أولياء الله الكاملين :

وفى تأثير نفوس أولياء الله الكاملين العجيب الذى ورد فى الكتب السماوية ما فيه البرهان على ذلك ، فإن آصف بن برخيا وَلِىٌّ وأحضر صرح بلقيس فى أقل من لمح البصر ، وإن مريم بنة عمران صدّيقة وكانت تأتيها الفاكهة التى ليست موجودة فى الأرض كل يوم . ونطق الغلام شاهد سيدنا يوسف الصديق . وإكرام الله تعالى للصديق الأكبر سيدنا أبى بكر رضى الله عنه عندما أمر بإرسال الجيش إلى بنى حنيفة وإلى الروم وفارس ، وقام الصحابة جميعا منكرين ذلك ، وقال له سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ يقاتل بالملائكة فالزم بيتك ومحرابك ، فغضب وقال : والله ، لو لم يكن إلا أنى أقاتل منفردا لما قعدت عن الجهاد ، وأثَّر على جميع الصحابة ، فكان ما كان مما لايخفى على مسلم . وما أكرم الله به الفاروق رضى الله عنه وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ ، وفى أثناء الخطبة نادى : « ياسارية الجبل ! » والقصة مشهورة . وَذِكْرُ ما أكرم الله به أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وأتقياء المسلمين إلى وقتنا هذا لا تسعه الأسفار ، وما وهبه الله تعالى للنفوس من الأفعال الخاصة بها روض زاه زاهر تقتطف منه الأفكار المؤهلة لمشاهدة آيات الله ، فسبحان الواسع العليم القادر الحكيم .

نفوسٌ تَعْلَمُ الحوادث الكونية الغائبة :

ومن النفوس المؤثرة نفوسٌ تَعْلَمُ الحوادث الكونية الغائبة عنها بتركيب أعداد وتحليلها ، وتلك الأعداد تجمع من مُجَمَّلِ الطالع الفلكى والسؤال المقصود وتوضع جداول مقسمة على نسبة أصول معلومة لديهم، تنتج الجواب المطلوب نظما أو نثرا وتسمى بعلم اليازرجى، وتلك النفوس لها تأثير عجيب فى تقسيم الأعداد إلى أجزاء متناسبة ، ووضعها فى أوفاق واستخراج أسماء منها، واستحضار قلب صاحب النفس بتلاوة بعض العزائم عليها، فيحصل من ذلك تأثير عجيب على النفوس الأخرى . ومن تلك النفوس نفوس تخط فى الرمل خطوطا مقسمة إلى نقاط ثم تسقطها زوجا زوجا وتركب ما بقى أمهات وتستنتج منها بنات وأوتادا وموازين ، وهناك شكل من هذا يمكن أن يخرج منه ستة عشر حرفا فيه الجواب المطلوب . ومنها ما يؤثر بالحصى ، وقد رأيت ببلاد مصر نساء يستعملن الفول والملح ، وفى بلاد السودان يستعملن الودع ويخبرن بجواب السؤال ، فيحصل ما يقلن ، وذلك من تأثير النفوس . ومنها نفوس تنظر إلى الكف ، فتعلم منه علوما حصلت وتحصل ، وأصحاب هذه النفوس اصطلحوا على أن يجعلوا للخطوط التى فى الكف معانى مخصوصة و يستدلون بها على أشياء . ولو نظرت ياأخى فى بنى الإنسان نظرة متفكر يظهر لك أن لكل فرد منهم مزايا وخصوصيات وعلوما وأسرارا لا يمكن أن تجمع فى واحد ، ولابد أن تكون منتشرة لكل فرد قسطا ، والعلم كله فى العالَم كله ، قال الله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَم نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ فَلا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ)(١) هذه بعض الآيات التى يمكن أن تسطر فى بطون الأوراق .

العلم والذوق :

أما ما يتلقاه المؤمن بعمله بعلم عن الإلهام الإلهى من تصريف القدرة وأسرار الحكمة ، ومعانى التجلى ، وظهور معانى الأسماء ومشاهدة الكائنات قامت بآيات

---

(١) سورة البلد آية ٤ ــ ١٧ .

الصفات ، فذلك لا يتلقى إلا بالإلهام ، لأنه ذوق ، والذوق فوق العلم لأنه شهود ، وليس كل عالم وهب له الذوق ، ولكن كل من وهب له الذوق حصل له العلم ، ولا أريد بالعلم الذى يعمل به المريد فى البداية ما زاد عن الواجب ليورثه الله علم مالم يعلم ، فإن كل مسلم مطالب أن يتعلم ما يجب عليه شرعا ومالا بد له منه مما به تحصيل معاشه و بر والديه وصلة رحمه وتربية أولاده والقيام ببقية الواجبات الشرعية من حج وجهاد وصدقات وتعاون على البر والتقوى ، فإن ذلك كله واجب عند وجود مقتضاه ، فإذا عمل المسلم ما وجب عليه عملا بعلم ورثه الله علم ما لم يعلم .

وإلى هنا أرى أنى جعلت لك نموذجا تنهج عليه فى سيرك بفكرك فى هذا العالم ، واختصرت لك على ما يمكن أن يكون مثالا تزن به ، و بقى علىّ ــ أيها الأخ المخلص ــ أن أبين لك ما يجب عليك لخالقك ومبدعك ولرسله صلوات الله وسلامه عليهم ولجميع الخلق بنسبتهم إليك ، راجيا منك ــ أيها الأخ السائر على الصراط المستقيم ــ أن تجتهد فى العمل بما تعلم وأن تستمد من الله سبحانه وتعالى أن يعينك على ذلك وأن يمن عليك بعلم ما لم تعلم ، وتحقق أيها الأخ البار أنى لم أكتب هذه المواضيع لثقتى بنفسى أنى العالم الحقيقى أو المحيط بعلوم السنة والكتاب،أو لتكون لى المنزلة عند الناس.أو لأجمع به مالاً أدخره ، وإن كنت أعلم من نفسى أنها لا تزال لقسة ، ولكنى أنزلتك ياأخى منزلة نفسى وأحببت لك ما أحبه لها ، ورأيت أكثر أهل زمانى هذا تركوا آداب الدين وفضائله وراء ظهورهم ، وعلوم العلماء المدونة فى كتبهم هجروها،والتفتوا إلى القشور التى وضعها الفرنج مما نسخوه أو مسخوه من كتب سلفنا الصالح ، ورأيت إعجاب أهل زمانى بآداب بنى الأصفر وشعرهم وعلومهم ، ولو أنهم اطلعوا على علوم آبائهم وآداب أسلافهم وحكمة أجدادهم والكنوز الخفية التى كنزها لنا إخواننا الذين سبقونا بالإيمان لميزوا بين الثرى والثريا ، و بين الحق والباطل،فأعاد الله عصر دمشق ، وزمان بغداد ، وأيام الأندلس والمغرب ، وأوقات مصر والعراق ، ونبه الله إخوانى أهل عصرى إلى فتح تلك الكنوز الخفية فى بطون الكتب فى متاحف أور با ومكاتبها من آثار أجدادنا الكرام ،وأسلافنا العلماء العاملين ، إنه مجيب الدعاء.

يا أخى ، ما من علم من علوم الدين أو الأخلاق ، أو النفوس أو القوانين أو المعاملات أو علوم الآداب والمعاشرة والمجالسة أو علوم الصناعة والتجارة والطب والحكمة وعلوم الزراعة والسياسات ، بل وكل علم من العلوم مما يحتاج إليه المجتمع العمرانى ، إلا وأنزله الله تعالى إما مفصلا فى القرآن أو مجملا ، و بينه لنا رسول الله ﷺ بطريق الحكمة النظرية والعملية فى علوم الدين وما يتعلق به ، ونظرياً فى علوم الصناعات والزراعات وغيرهما . وقام أئمة العلماء ففصَّلوا ذلك الإجمال حتى انحصر العلم كله فى جماعة المسلمين ، والفنون كلها والحرف كلها ، فلم يكن خليفة من الخلفاء ولا قاض من القضاة ولا قائد من القواد إلا وهو سابق فى علم أو فن أو صنعة أو حرفة ، فكنت ترى منهم العالم الدينى الذى ورث أسرار الرسل عليهم الصلاة والسلام يستنبط الأحكام بما منحه الله من قوة الاستنباط ، وما منَّ به عليه من الاجتهاد ، وما تفضل به عليه من القياس . وترى الطبيب الماهر الذى كشف أسرار الأعضاء ووظائفها وخواص النباتات ومزاياها وسر تولد المعادن ونموها . وترى منهم العالم الرياضى الذى بلغ به العلم إلى حد حتى وضع علم الجبر المنسوب إلى جابر ، أو وضع علم استخراج قوى العدد المسمى الآن لوغارتم المنسوب للخوارزمى . ومنهم من وقع به العلم اليقين فى علم المعادن حتى وضع قوانين تحليلها وتركيبها وتطهيرها من الأجسام الغريبة وكيف تتولد وتترقى ، حتى أمكنهم أن يوجدوا بعض المعادن بتركيب مواده الأصلية بالنسب الأصلية . ومنهم من استكشف خواص كثير من النباتات والمعادن والحيوانات بالتجارب العملية . ومنهم من بحث فى النظام الشمسى بحث عالم متقن بقوة الفكر والعلم ، حتى علم مقاديرها الحقيقية والنسب بينها ومقدار بعد كل فلك عن الآخر ، وتأثير كل فلك بقدرة الله تعالى على الأجسام الحيوانية والنباتية والمعدنية والجمادية وعلى النفوس . ومنهم من علم تأثيرها الروحانى على بعضها وعلى ماعداها بالرياضة الفكرية والبدنية . ومنهم من اجتهد بعد الرياضة بالحكمة النظرية إلى أن أثبت بالحكمة العملية خطوط الطول والعرض ، ومقادير درجات الأرض وأنواع علوم تخطيطها ، ومزجوا بذلك علم طبقاتها وتفاوت أقاليمها وحاصلات كل إقليم ، وأثبتوا أنواع دوران كل كوكب دورانا حقيقيا — و بالأخص دوران الأرض ومايتولد من ذلك — وأثبتوا قوة التجاذب بين المجموعة الشمسية بما أزال المجهولات العلمية عن تلك الحقائق ، ومحا

أباطيل وخرافات اليونانيين والرومانيين والفراعنة والآشوريين والفينيقيين والبابليين ، و بيضوا ماسود به هؤلاء المتقدمون صحفهم من الأكاذيب على العلم والتاريخ . ومنهم العالم المخترع الذى خدم الصناعات بما منّ الله به عليه من منن الإخلاص فى الدين .

فيسهل عليك أيها الأخ أن تطالع تراجم الصحابة رضوان الله عنهم فى طبقات ابن سعدون وتراجم الأطباء فى طبقات ابن طفيل ، وتراجم الأدباء والأمراء فى تاريخ ابن خلكان ، وتراجم الفقهاء والصناع والمحدثين والمتكلمين والرياضيين والمؤرخين فى كتب التراجم ، لتعلم ياأخى أيدك الله ما أودعه الله من العلوم والأسرار فى القرآن الشريف ، ولتعتقد أن فى الإنسان كنوزا وأمامه مراقى لو فتحت له تلك الكنوز ورقى على تلك المراقى لبلغ من الكمالات ما به تنكشف الحقيقة عن سر تسخير الله له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه .

ثانيا : الشكر وهو الواجب الثانى لله سبحانه وتعالى

الشكرُ فى حالِ الجمالِ ثناءُ ... والشكرُ فى حالِ الجلالِ دعاءُ
والشاكرون همُ العبيدُ تحققوا ... بمرادِ مولاهم وذاكَ صفاء
شهدوا بِعينِ قلوبِهم مولاهُمو ... فرضَوْا به عنهُ فدامَ هناء
ما بين شكرٍ أو دعاءٍ حالُهم ... وهُمو إلى مولاهُمُ فقراء
فالعسرُ يجذبُهم إليهِ تَضَرُّعا ... واليُسْرُ يوصلهم وهم أمناء
لم يُلْهِهِمْ عن ربهم فَقْرٌ ولا ... يشغلْهمُ عنه غِنىً ورخاء
معه نعمْ بقلوبِهم ووجوهُهُم ... بيقينِهم فى ربِّهم نَضْراء
دامت بشائرُهم بكشفِ قلوبهم ... ولهم توالتْ ما بذاك خفاء
دخلوا الحصونَ حصونَ حفظِ وليِّهم ... بملابسِ الحسنى لهُم أضواء
العلمُ هذَّ بهم وزكَّى نفسَهم ... والعلمُ نورٌ للهدى وشفاء

نِعْمَ العبيد لربِّهم صدقوا له | صِدْقَ العبيدِ فدامت الآلاء
دنياهمُ كُشفت لهم فتحقَّقوا | أن السكونَ إلى الدَّنيِّ الداء
والدارُ دارُ نعيمِهِ وشهودِهِ | ظهرتْ فعشقوها فصحَّ وفاء
ولهم جمالُ الحق أشرق نورُهُ | فتحققوا أن الكيانَ هباء
فروا إلى مولاهم بعزائمٍ | والفضلُ من مُولِي الجميل عطاء
الله ربي والحبيبُ محمدٌ | هو قبلتي ووسيلتي وهناء

الواجب الثانى لله تعالى :

هو شكره سبحانه وتعالى وحمده والثناء عليه بالقلب واللسان والجوارح ، واعتقاد أن له سبحانه وتعالى صفات هو وصف بها نفسه سبحانه ، وأثبتها العقل بشهود دلائلها اليقينية ، وانكشفت للأرواح بعد الخلاص من ظلمات الكثافات الكونية ، وهى أنه تعالى حىّ قادر مريد سميع بصير متكلم حكيم واحد أحد فرد صمد ، منزه عن النقائص والأشباه والنظراء والوكيل والوالد والولد والصاحب والزوجة ، قيُّوم كل شىء قريب مجيب منعم وهاب ، ويجب أن نسميه بأسمائه التى وردت فى كتابه العزيز على لسان نبيه ﷺ المثبوته فى النصوص الشرعية . ويجب أن نتدبر معانيها الكمالية بما يليق بجنابه العلىّ من النزاهة والتقديس ، ونفهم أنوارها الظاهرة فى الآثار الكونية المنبئة عن علىّ العظمة وعظيم القدرة والحكمة واللطف والحنان والرحمة والود والنعمة والرأفة وجميل المنة والكرم والفضل والإحسان ، لتشرق أنوار تلك الصفات والأسماء على القلوب فتعمرها بحقيقة الإيمان وكمال اليقين . ويجب أن نؤمن بالملائكة الروحانيين الحافين حول العرش وسكان السموات والسَّفَرَةِ الكرام ، وأمنة الوحى والموكلين بالأمطار والرياح والحفظة والكتبة ، وبمنكر ونكير و بخزنة الجنة وخزنة النار و بالملائكة الكرو بين الهائمين فى جلال العظمة الإلهية ، و بالملائكة العالين و بأنواع من الملائكة لايعلمهم إلا الله تعالى . ويجب أن نصدق بالكتب التى أنزلها الله تعالى على رسله الكرام على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، كأسفار

سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، وتوراة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، وزبور سيدنا داود عليه الصلاة والسلام ، وإنجيل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام .

إجمال الواجب بالنسبة للقرآن :

يجب أن نصدق أن القرآن الكريم مهيمن على جميع الكتب ، وهو كتاب الله وحجته البالغة على جميع الرسل والناس أجمعين ، جمع جميع كتب الله سبحانه وزاد عليها ، وبيَّن ووضّح وأقام الحجة وبيَّن المحجة وشرح الأخلاق والعقائد والعبادات والمعاملات بأمثلة يعقلها العالمون ، وأخبر عن القرون الماضية بعبر وبصائر وتذكرة يتنور بنورها العاقلون ، فأعجز البلغاء وأدهش الفصحاء ، خنع له العقل وسجد له الخيال وانقادت له الأرواح الطاهرة والأنفس الزكية (مَّافَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ)(١) ويجب أن نجعل القرآن إماما متبعا وقاضيا نافذ الأمر والنهى ، نعمل به ، نحل حلاله ونحرم حرامه ونرتله حق تلاوته ، نشاهد فيه أسرار المتكلم سبحانه ، ونتناول منه شراب القدس الطهور ، وتأنس أرواحنا عند تلاوته بمشاهدة الجمال والجلال والكمال الإلهى أنسا بمعنى المعية الحقيقية مع التنزيه ، حتى كأن التالى للقرآن يسمعه من ربه سبحانه . تقشعر الجلود عند ترتيله ، وتلين القلوب عند سماعه ، وتشتاق الأرواح عند تدبره لعالم القدس الأعلى . فالمسلم الحقيقى يحب القرآن ويحب أن يكون عاملا بالقرآن ، ويحب أن يكون العمل بالقرآن أكثر من محبته لنفسه ، لأنه بترك القرآن يخسر نفسه ويتمنى أنه كان ترابا أو لم يكن شيئا مذكورا ، وبالقرآن يفوز بالسعادة الأبدية فى جوار رب العالمين . والمسلم الذى لايغار للقرآن أو يتساهل بأحكام القرآن أولا يسعى فى إعلاء كلمة القرآن ليس بمسلم عند العلماء وإن كان مسلما عند نفسه . وأول بلاء نزل بالمسلمين تساهلهم فى إقامة أحكام القرآن وميلهم إلى الهوى ، حتى صاروا ليسوا أهلا للقرآن ولا لبشائره ولا يأبه الله بهم حتى سلط عليهم الكفار وأذلهم بأذل العالم ، قال تعالى : (وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)(٢) بشرى فى القرآن.

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨

(٢) سورة النساء آية ١٤١

وإنما المؤمن من كان عمله بالقرآن وحاله بالقرآن وماله بالقرآن ونومه وأكله وخلقه بالقرآن ، يحب ما حببه فيه القرآن ومن حببه فيه ، و يعادى من أمره القرآن بمعاداته ولو كان أقرب قريب وأحب حبيب ، يغضب للقرآن و يرضى للقرآن . هذا إجمال الواجب بالنسبة للقرآن ، والمسلم البسيط يعلم تفصيل هذا الإجمال والله الموفق .

التصديق بالرسل واعتقاد أفضلية خاتمهم :

ويجب أن نصدق بالرسل عليهم الصلاة والسلام خصوصا من ذكرهم الله تعالى فى القرآن وأثنى عليهم ، ونعتقد أنهم صادقون أمناء بلغوا الرسالة ونصحوا للناس ، وأن الله أرسلهم لهداية الخلق ليكونوا حجة لله سبحانه على عباده وحجة لعباده يوم القيامة . ويجب أن نعتقد أن سيدنا محمدا ﷺ خاتم رسل الله سبحانه وأفضلهم وأكملهم . بعثه الله على فترة من الرسل فأتم به حقيقة العقيدة ، وأكمل به مكارم الأخلاق وأفضل المعاملات ، علّمنا بعمله وقوله وحاله كل محبوب لله تعالى من القول والعمل والحال والعلم ، ونهانا عن كل ما يكره الله من الأعمال والأقوال والأحوال . فهو الرحمة الحقيقية الواسعة والنعمة العظيمة على الإنس والملائكة والجن والحيوانات ، سنَّ السنن ووضح المناهج ، وأقام الحجة لله على العباد برحمة وحكمة ورأفة وحرص على الناس من الهلاك ، ويجب علينا أن نقتدى بهديه ونتجمل بأخلاقه ونتشبه به ﷺ فى معاملاته وأقواله حتى نفوز برضاء الله الأكبر الذى لاسخط بعده . ومن خالف سنته أو ابتدع بدعة فى دين الله فقد أهلك نفسه وغيره . أعوذ بالله و بوجهه الكريم من مخالفة سنة سيد المرسلين .

الإيمان بالقضاء والقدر:

ويجب أن نؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله سابق إرادته وتدبير حكمته بلا شك ولا ريب ولا بحث عن ذلك ، بل نعتقد حق الاعتقاد أن كل شىء حدث لا بد وأن يكون صدر عن علم الله تعالى به وتقديره له وإرادته ، بحيث يستحيل أن يخلق الله شيئا لايعلم به أو يكون بغير تدبيره ومشيئته وحكمته وقدرته تنزه الله سبحانه وتعالى علوا كبيراً عما يصفه الواصفون . ونؤمن أن كل ماأحدثه الله تعالى هوعدل لحكمة تخفى على الجاهلين . وعلينا

أن نبغض المعصية ولو وقعت منا لأنها منهى عنها ، ونعتقد أنها بقضاء الله وقدره سبحانه ، وأنه يؤاخِذ عليها لأنها مخالفة لأمره ومعصية لسنن رسله ، وليس لنا حجة عليه سبحانه لأنه أمرنا بترك المعاصى على لسان رسوله ﷺ فى كتابه العزيز، وأخفى عنا ما قدَّره علينا ، وعلينا أن نندم ونتوب إليه سبحانه ونسأله العفو والمغفرة لمخالفة الأمر، لا لأنا أوجدنا مالا يقدّره علينا ، أو مالا يعلمه سبحانه وتعالى أو ما أوجدناه بحولنا وقوتنا تنزه الله سبحانه أن يكون له شريك فى إيجاد شىء ما أو معين فى عمل مَّا ، وأنت أيها المدعى ذلك بمن تعمل العمل إذا سلب الله القوة والحول الذى أمدك بهما ؟ انظر إلى الميت ترى جسمه كاملا أمامك ولكنه لايمكنه العمل ولا القول ولم ينقص منه أمامك شىء ، فتأمل واعتقد لتكون من أهل السعادة .

هذا هو الذى نعقد عليه القلب بتسليم وإذعان حتى يكشف الله سبحانه وتعالى لنا حقائق التوحيد ، وتظهر لنا أسرار حكيم قادر وأنوار مريد فاعل مختار وآيات واحد أحد منزه عن الشبيه والمثيل ، فيحصل اليقين الحق الذى هو كمال الإيمان وحقيقة لإيقان . وعلينا أن ننظر إلى تصاريف القضاء ومجارى القدر بعيون القلوب،فنشكر الله تعالى ونخشاه عند إسباغ النعم الدينية والدنيوية ، ونجاهد أنفسنا على أن نحافظ على حقوق الشكر وتأدية الأوامر الإلهية،حتى ننال المزيد من الله تعالى فى الدنيا والسعادة فى الآخرة . ولله در القائل :

إذا كان شُكرى نعمةَ الله نعمةً ... علىّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العُمْرُ
إذا عمّ بالسراء عمّ سرورُها ... وإن خَصَّ بالضراء أعقبها الأجر

ونبتهل إلى الله سبحانه ونتضرع إليه سبحانه أن يمنع عنا ويحفظنا عن معصيته عند متقضيات ذلك ، وأن يتداركنا بخفىّ اللطف عند حصول مالا قبل لنا به من الحوادث ، مع الصبر وحسن الظن بإغاثة الله لنا ، ونكره المعصية ولو وقعت منا ، لابغضا لقضاء الله بل بغضا لعمل يكرهه الله،نهى عنه وإن قدَّره،فقد يقدّر مالا يرضى من القول والعمل . ونتوب إلى الله ونستغفره من الخطايا ، ونسأله التوفيق لما يحبه من القول والحال والعمل ، فيكون

رضانا بما يرضاه الله، لأنه سبحانه قضى وقدر علينا ما يحبه مما هو خير لنا وسعادة ، و يكون بغضنا لما يبغضه الله سبحانه لأنه قضى وقدّر علينا ما نهانا عنه وأخفى عنا قضاءه، فارتكبنا مخالفة أمره بشهواتنا وغفلتنا ، ونكره كل ما خالف الشرع والسنة ، ونجتهد فى إرجاع الأمر إلى الشرع بقدر استطاعتنا باليد و باللسان أو ننكر بقلوبنا ، ونسأل الله محو الباطل مع شدة الكراهة له والبغض لفاعليه ومعاداتهم إن سرّاً وإن جهراً عند المكْنَة ، ولا نتناظر فى هذا الموضوع الذى لايشك فيه أو يبحث فيه إلا مريض القلب بالنفاق بعيداً عن حقيقة التوحيد . وعلينا أن نجدّ فى طلب الخيرات والتسبب لكسب الحلال والغنى بالله عن سؤال الناس ، مع اعتقاد أن الرزاق هو الله ، وأن الأسباب وسائط جعلها الله بينه و بين خلقه وهو سبحانه مسبب الأسباب وميسر الأمور والمعين الوهاب ، ونجدّ فى القربات ببذل المال والجاه وعمل الصالحات ، معتقدين أن الله سبحانه هو الموفق الهادى للصراط المستقيم . ويجب علينا أن نتوسط فى جميع الأحوال فيكون الطمع والخوف والرغبة والرهبة متساوية فى قلوبنا، حتى نكون بين خوف من الله تعالى يحفظنا الله تعالى به من مخالفة أمره ومن ارتكاب الخطايا والغرور بالدنيا والجهل بقدر أنفسنا ، و بين طمع يعيننا الله تعالى به على محبته والإقبال على جنابه العلىّ والتقرب إلى مواطن رضوانه حتى تتوازن قوانا الحسية والروحانية ، والله سبحانه هو الموفق المعين .

وجوب الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الحقيقى الدال على تصديق القلب ونوره وشروق شمس الحق عليه ، حتى يتحقق حق اليقين -بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى- أن القادر الحكيم لم يخلق الخلق عبثا، ولم يتركهم هملا ، ولم يصرفهم فى ملكه و يسخر لهم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه جهلا تنزه وتعالى ، بل اقتضت حكمته أن يبتلى خلقه بالخير والشر فتنة ، وكيف لا وقد أرسل لهم الرسل، و بين لهم الحجج، وضرب لهم الأمثال، وأقام الدلائل على ثبوت يوم الحساب ، وحذرهم وأنذرهم ووعظهم و بشرهم، ومنحهم العقل الذى يعقل الأمثال والحجج و يقبل الدلائل ، وأعدلهم يوما يرجعون فيه إلى جنابه العلى ويحاسبون فيه على النقير والقطمير (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)(١) . (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)(٢) (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِـٱلْحَقِّ) (٣) فتلك الدار الدنيا دار تكليف وتعريف وأحكام وتصريف ، وخلافة عن الرب ومعاملة لجنابه العلىّ ، وهى النشأة الأولى يعيش فيها الإنسان يكدح إلى ربه كدحا فى آلام تغيرات العناصر ، وهموم سطوات تغيرات الفصول ، وغموم الحوادث ومزاحمة البقاء ومنافسة النظراء ومداراة الكبراء ، والحيل فى نوال السلامة ممن لاغنى له عن معاشرته ، وذل الافتقار إلى المساعد من بنى جنسه وأنواع من الحيوانات ، وتعب فى طلب المسكن والملبس والقرينة ، وعناء فى تعليم وتربية الأبناء . إذا صفا نفسا فإنما ذلك لغفلة قلبه عن الحقوق الواجبة عليه ، وإن فرح لحظة فذلك لجهله بما فى الغيب ، إن عوفى فى بدنه أضر به الرزق ، وإن تيسر أفسد عليه صفاءه التنافس ، وإن بلغ المجد اعترته المخاوف من تسليط عدو أو فساد أهل أو مصاب فى حبيب ، فالإنسان فى تلك الدار محاط بسور من البلايا ،ومطالب بالشكر على ما أحاط به من سوابغ النعم التى لاتحصى ، فإنه منعم عليه بنعم من العرش إلى الفرش ، فمن قدمه إلى العرش نعم خاصة بالإنسان وخيرات مسخرة له ، وهو بين ذلك يشغله قليل لايفيده لو ناله عن عظيم النعم المتوالية عليه فى كل نَفَسٍ ، فالمنعَم عليه بالعافية غافل عنها مشغول بجمع المال ، والمنعم عليه بالمال غافل عنه مشغول بشهواته،وهكذا ، فلا تجد إنسانا يشعر بالنعمة التى أنعم الله بها عليه إلا من حفظهم الله واختارهم (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)(٤) فالعاقل البصير يدرك أن تلك الدار الدنيا ، دار سَعْى وكدّ واجتهاد وعمل وسفر للآخرة ، فيتزود منها لما بعدها بكل همة ونشاط ، و يأخذ منها ما يبلغه الدار الآخرة حتى يفوز بدار المقامة ومنزلة الكرامة . فإذا تحقق بذلك وجّه قلبه ووجهه صوب ما يبلغه هذا الخير،لاهيا عما يشغله عن الخير مما فيه العناء والتعب فى الدنيا والألم والعذاب فى الآخرة ، والله سبحانه وتعالى جعل الدار الآخرة دار كرامة من آمنوا بها وعذاب من كذبوا بها ، والإيمان بيوم الحساب أكبر مهذب للنفوس ومطهر لها ، ولوأن الناس صدقوا بيوم الحساب تصديقا حقيقيا لعاشوا فى

---

(١) سورة الزلزلة آية ٧ ـــ ٨

(٢) سورة المؤمنون آية ١١٥

(٣) سورة الدخان آية ٣٨ ـــ ٣٩

(٤) سورة ص آية ٢٤

الدار الدنيا فى سعادة حتى ينتقلوا إلى السعادة الأبدية فى ملكوت الله ومنازل رضوانه الأكبر، ولا تجد قوما نسوا يوم الحساب إلا عبدوا حظوظهم وشهواتهم، وأزلتهم الأهواء وأوبقتهم الحظوظ، وأفسدوا فى الأرض فأهلكوا أنفسهم وغيرهم بما نسوا يوم الحساب ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾(١) .

الدار الآخرة

الدار الآخرة هى النشأة الآخرة التى أعدها الله تعالى لإظهار الفضل الحقيقىّ والرحمة الحقيقية الخالصتين من شوائب القهر والانتقام والجبروت ، فإن كلّ فضل فى الدنيا ورحمة لابد وأن يكونا مشوبين بعناء و بلاء وشدة ومجاهدة للنفس ، أما النعيم والبهجة واللذة فى الدار الآخرة بمعناها الحقيقى لايمكن أن يتصورها العقل ولا أن يتخيله الخيال إلا بنسبة نعيم الدنيا و بهجتها العقليين ولذتها وسعادتها الحسيتين ، و بين تلك المعانى بون شاسع و بعد عظيم لايمكن أن يدرك حقيقة إلا بالمشاهدة والحس . ومن أين للعقل أن يتعقل الغيب عنه إلا بنسبة مّا ، أو للحس أن يدرك حقيقة إلا بقدر مّا؟ فالدار الآخرة ملاذها العقلية فوق كل ما يدركه العقل من الملاذ فى تلك الدار الدنيا ، وملاذها الحسية فوق ما يدرك الحس من ملاذ الدنيا ، وقد تنكشف الحقيقة بوجه مّا لأهل الصدق فتلوح لهم ملاذ الدنيا بالنسبة لملاذ الآخرة كمثال رجل شرب الخمرة حتى فقد شعوره ، ثم دعاه داعى الشهوة فخرج يطلب شهوة النكاح فوقع به السكر على مقبرة مشيدة بها قبر كالحجرة به نساء دُفِنَّ من أيام عليهن الحلىّ والزينة ، و بجوارهن نور كعادة أهل زمنه ، فتخيل له من السكر أنهن أجمل نساء العالم ، وأنهن من بنات الملوك خرجن لتغيير الهواء فى تلك الغيضة ، فأتى أجملهن لباسا وكان فى أكمل لذة وأعظم بهجة يشكر حظه و يثنى على بخته ، وتناول من خمر بجوار الموتى فزاد سكره حتى قهره النوم فالتقى بجوارهن حتى أصبح فوجد ثيابه ملطخة بالقيح والصديد وتحقق من سوء عمله ، فاستقذر العمل و كرهه كراهة شديدة لما يسمع عليه من بهجة النساء وزينتهن ، فكذلك حال لذة الدنيا بالنسبة للآخرة لمن انكشفت له ولو بتصديق الخبر عنها

---

(١) سورة الجاثية آية ٣٤

تصديقا متناسبا بالنسبة للذة الدنيا ، هى كجيفة تلذذ بها الإنسان مسرورا بلذته فرحا بحظوته ، فإن تنبه من غفلته نفر منها نفور الحليم من الحماقة والشجاع من الجبن والتقىّ من الكبائر ، وزهدها زهدا حقيقيا وجعل ميله إليها للضرورة التى لابد منها،كما يستريح المسافر على قلل الجبال وفى غابات السباع لغلبة نومه وشدة تعبه ليقوى على السفر ، حتى إذا وصل موطن الإقامة ومنزلة الكرامة زال عناؤه وكأنه لم ينصب .

فالدار الآخرة هى الدار التى يتحقق العاقل البصير أنه لابد أن يرجع إليها ، و يفهم من الآيات الظاهرة فى الكون والحكمة المشرقة فى نفسه وفى الآفاق أنه لابد من نشأة أخرى تكون فى الآيات،وتظهر فيها الحكمة الخفية من هذه النشأة الأولى. الدار الآخرة يظهر فيها عدل الحكم العدل بحقيقته ومعناه ، وقهر الحكيم القاهر وعزة العزيز القوى،فيحاسب الناس على نعم لاتحصى ومنن لا تستقصى ، فمن وفقه فوفى أكرمه بحقيقة الإكرام ، ومن أضله سبحانه — ولايسأل عما يفعل — فخالف ربه وعصى أمره وعمل عمل المكذبين ، أورده موارد غضبه،وأبعده عن منازل رحمته،وأشهده قدر النعمة عليه والعقوبة على كفره وجحوده ، نعوذ بالله من غضبه وسخطه ، وأسأله سبحانه وتعالى التوفيق لما يحب من القول والعمل والعلم .

لذات الدار الآخرة

لما كانت اللذة هى نيل وإدراك ما هوملائم وخير فى الحقيقة ونفس الأمر ، ولايكون النيل إلا بالحس ، والإدراك لايكون إلا بانكشاف الحقيقة انكشافا حقيقيا يفيد علم اليقين بمنافعها ومزاياها ، فالإدراك بالنفس الناطقة،والنيل للنفس الشهوية والسبعية ، وقد تتفاوت الملاذ بحسب صفاء النفس وتوازن القوى المكونة للإنسان ، فقد يكون إدراك اللذة هوعين اللذة عند أهل النفوس الكاملة ، وتنحط اللذة الأخرى التى هى نيل بالحس فى جانب الملاذ النفسانية ، ولكن لا تكون اللذة لذة حقيقية إلا إذا توفر فيها الإدراك والنيل،كما هو صريح القرآن الكريم من أن لذة الدار الآخرة تشترك فيها النفس والأعضاء،فهى ملاذ معنوية وحسية ، وإن كان بعض الكتب السماوية لم ينبه على الملاذ الحسية فى الدار الآخرة،الأمر الذى جعل بعض من لم تقع بهم عين البصيرة على حقيقة العلم ، ولم يذوقوا

حلاوة الحكمة فى تكوين الإنسان وتركيبه من النفوس ، ينكرون أن النشأة الأولى هى صورة النشأة الأخرى ، وأن الملاذ فى الدنيا هى أمثال لملاذ الدار الآخرة ، ليترقى من المثال إلى الحقيقة ومن الوسيلة إلى المقصد ، وقد توسع كثير ممن لم تنفذ أشعة أنوار قلوبهم من ستائر أوهامهم فتخيلوا صحة آراء القائلين بهذا المذهب جهلا منهم ، ولو أنهم جاهدوا أنفسهم وطهرت لعلّمهم الله علم مالم يعلموا بالعمل بما علموا،قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)(١) وهل شرف الإنسان و بلغ من الكمال ما به أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم إلا بعد أن نفخ الله الروح فى جسده فصار بالجسد مظهرا كاملا لآيات الحق سبحانه وعالَما صغيرا انطوى فيه العالَم الأكبر ؟ فالإنسان لايطلق على النفس المجردة ولا على الجسم المجرد من النفس ، فما بقى إلا أن نعتقد حق الاعتقاد أن الذى يعذب و يثاب هو الإنسان بمعناه ومبناه ، إذ لايطلق إنسان إلا على تلك الحقيقة المركبة من الجسم والنفوس ، والقائل بأن النعيم أو العقاب إنما يكون على النفس فذلك جهل بعجائب القدرة وغرائب الحكمة ، وحبس لنور الفكر الكامل أن ينفذ من أقطار الأوهام،أو يسبح فى لطائف الحكمة ودقائق الآيات،والله سبحانه وتعالى يشرح لتلقى الحكمة صدورنا و يشهدنا ما به تطمئن قلوبنا إنه مجيب الدعاء .

أنواع ملاذ الآخرة

قد بشرنا الله على لسان نبيه وفى تنزيله أنه سبحانه أعد لنا جنانا تجرى من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة ، ومطاعم من أشهى وألذ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وحورا مقصورات فى الخيام كأنهن اللؤلؤ والمرجان ، وولدانا مخلدين يطوفون بأكواب وأباريق كأنهن اللؤلؤ المنثور ، وأنهارا من ماء غير آسن،ومن لبن لم يتغير طعمه،ومن خمر لذة للشاربين ومن عسل مصفى ، و بهجة وسرورا ونضرة وحبورا ، وفوق ذلك من مقامات الكرامة ومنازل الحظوة مالا تفى العبارة بكشفه ، وفوق ذلك رضوان الله الأكبر،والتنعم بمشاهدة وجهه الكريم ، والفوز بمنازلاته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . تلك الأنواع منها ما هو للجسم ومنها

---

(١) سورة الشمس آية ٩ــ ١٠

ماهو للنفس . وللنفس ملاذ أخرى كما قال ﷺ : (فيها مالا عينٌ رأت ، ولاأذنٌ سمعت ، ولاخطرَعلى قلب بشرٍ)(١) . كل ذلك فضل من الله وإحسان عظيم منه جلّت قدرته . فالواجب علينا أن نعقد قلوبنا على التصديق بيوم الحساب ، ونجمع بين الخوف من عدل الحكيم القادر والطمع فى فضل المحسن الوهاب،ونعتقد أنه يكون للجسم والروح معا ، وأن الذى أنشأ النشأة الأولى هو سبحانه وتعالى الذى ينشىء النشأة الآخرة،بل هى أهون عليه سبحانه .

والعقل إذا فهم الفرق بين مرتبة واجب الوجود وفعله سبحانه وأنه ليس كمثله شىء فى كل شىء ذاتا واسما وصفة وفعلا و بين ممكن الوجود ، ولم يجعل ميزانا ينسب به عمل الواجب للممكن،أو يرى الواجب محكوما عليه كما يرى الممكن ، لكان النظرى بدهيا لديه والغيب مشهودا له والآيات واضحة جلية ، ولكن جهل الإنسان بنفسه أداه إلى جهله بر به (قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ)(٢) (نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ)(٣) وقد شرح القرآن الكريم و بيّن الصادق الأمين ﷺ أنواع السعادات فى الدار الآخرة وطرق نوالها،وأنواع العقوبات وحصون التوقى منها ، وما على العاقل سليم القلب إلا أن يتلو القرآن تلاوة متدبر،و يقرأ كلام رسول الله ﷺ قراءة متأمل،فتتكشف له الأسرار ويمحى عن قلبه الرين و يفك القفل عنه و يزول من الأذن الوقر ، لتشرق أنوار البصيرة فتشاهد عوالم الملكوت الأعلى،لترى الجنة ونعيمها والنار وجحيمها علم يقين ، فيفرّ إلى الله مسلما و يقبل عليه فيفوز بالمغفرة والعفو والسعادة والرضوان .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، و بدء الخلق ، والتفسير ، ومسلم فى الإيمان ، والترمذى فى الجنة وفى كتاب التفسير ، وابن ماجه فى الزهد ، وأبوداود فى الرق ، وأحمد فى المسند ٢ /٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٥ /٣٣٤ .

(٢) سورة عبس آية ١٧

(٣) سورة الحشر آية ١٩

الفصـــل الثـــانى
الواجب لرسول الله ﷺ

حكمة إرسال الرسل :

اللهم اعصمنى بحفظك ياحفيظ ، فإنى أتوسل إلى جنابك العلىّ بحبيبك ومصطفاك سيدنا ومولانا محمد ﷺ أن تمدنى بروح منك ونور يستبين لى به الحق ، وتنكشف تلك الأسرار ، حتى أتمكن بحولك وقوتك سبحانك وتوفيقك ومعونتك أن أفهم الحكمة والفضل والرحمة والنعمة التى أكرمتنا بها ببعثة رسلك عليهم الصلاة والسلام ، وأدرك عظيم منتك علينا بالرحمة العظمى والوسيلة العظمى سيدنا ومولانا محمد ﷺ آمين .

قبل أن أبين الواجب علينا لرسول الله ﷺ أفتتح الموضوع بحكمة إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام .

إن الله ذو الفضل العظيم تقدست ذاته وتنزهت أسماؤه وصفاته ، جعل الإنسان عالما وسطا بين عوالم الملك والملكوت ، ومنحه سبحانه من مواهب إحسانه ولطائف آياته وبديع أسراره ما جعله جامعا لكل معانى الكائنات ، فجمع فيه سبحانه معانى الجمادات والنباتات والحيوانات والملائكة المقربين ، وأودع فيه سبحانه قوى نفوس كل رتبة من مراتب الوجود ، فهو كما قررنا فى تعريف الإنسان فيما سبق من الكتب (أساس الطريق) مَلَك وأكمل . وشيطان وأفجر . وحيوان وأجرأ . وقد جعله الله تعالى أكثر احتياجا من كل الأنواع الأخرى ، وأضعف جسما منها،بحيث لايمكن أن يقوم ببعض ضرورياته منفردا إلا بمعاونة لمعاوضة تؤدى إلى معارضة ، ولما كانت الحكمة الإلهية قضت أن يكون الإنسان بحيث يتصرف التصرف المطلق فى جميع الأنواع الأخرى بما تفضل الله به عليه من العقل والإدراك والفكر والروية وكانت ضرورياته ــ مع ما سلط عليه من دواعى الحظ والهوى ــ تدفعه إلى الاستئثار بالملائم له ، تارة لما فيه من القوة الحيوانية ، وآونة لما فيه من القوة الإبليسية ، فإذا تمكنت تلك البواعث على أفراد الإنسان حُرِمَ سعادة الدنيا والآخرة ، وكانت حياته فى الدنيا حياة الوحوش المفترسة بالنسبة للأقوياء ، والحيوانات الداجنة بالنسبة للضعفاء ، فتفضل

الله ــ وهو ذو الفضل العظيم فضلا منه لاوجوبا عليه ــ كما تفضل على الإنسان بمواهبه العلية ، وكما سخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا من فضله ، فأرسل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وأيدهم بالمعجزة الباهرة ، وأنزل عليهم حقائق التوحيد ، وحقيقة العدل فى المعاملة ، وأحكام العبادة ، ونوع العبادات : منها ما يكرر يوميا كالصلوات لدوام استحضار المنعم المتفضل وشكره وتعظيمه وإشعار القلب بجلاله ، ثم أنه سبحانه وتعالى بيَّن أن المطيع ــ مع ما يناله من سعادة الدنيا لقيامه بأحكام الشريعة ــ يفوز بنعيم مقيم يوم القيامة فضلاً منه وكرماً ، وأن المخالف للرسل عليهم الصلاة والسلام العاصى ــ مع ما يناله من الشقاء فى الدنيا ــ يعذب فى نار جهنم عقوبة له ، وبيّن سبحانه حقيقة المعاملة والحقوق فشمل العدل جميع الخلق من بنى الإنسان وغيرهم بتنفيذ أحكام الله سبحانه وتعالى والعمل بوصايا رسله عليهم الصلاة والسلام . فمن نظر إلى تلك الحكمة ، وأقبل مسلما لله وجهه منيبا إليه سبحانه وتعالى ظهر له فضل الله العظيم ورحمته الحقيقية لسعادة بنى الإنسان ونعمته العظمى سبحانه وتعالى على الإنسان بالبهجة الحقيقية ، واللذة يوم الحساب فسبحان ذى الفضل العظيم الحكيم الرحيم المنعم .

نعمة الله علينا ورحمته بالمصطفى ﷺ :

فالله سبحانه وتعالى ظهر بحكمته وفضله ورحمته ونعمته ومنته فى ذات سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، فأنعم علينا برسوله ﷺ على فترة من الرسل .أنقذنا الله تعالى به من الضلالة إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان ، قال سبحانه وتعالى : (هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ)(١) وقال سبحانه وتعالى : (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)(٢) وقال سبحانه : (لَقَدْ جَآءَكُم

(١) سورة الصف آية ٩

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٤

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(١) وقال سبحانه وتعالى : (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا)(٢) وقال سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا)(٣) وقال سبحانه وتعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)(٤) وقال الله تعالى : (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)(٥) وقال تعالى : (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)(٦) أى نعمته علينا بسيدنا محمد ﷺ .

وبسند الإمام البخارى عن عطاء بن يسار قال : (لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوارة ببعض صفته فى القرآن : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب فى الأسواق ، ولايدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الله الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا)(٧) وذكر مثله عن عبدالله بن سلام وكعب الأحبار وفى بعض طرقه عن ابن إسحاق : (ولا صَخِبٌ فى الأسواق ، ولا مُتَزَيِّنٌ بالفحش ، ولا قوَّال لِلخَنَا ، أُسَدِّدُهُ لكلِّ جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينةَ لِباسه ، والبِرَّ شِعارَه ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق والوفا طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملَّته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلِّم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأسمى به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلِّف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس) . وفى حديث آخر أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفته فى التوارة : (عبدى أحمد المختار ، مولده بمكة ومهاجره بالمدينة ـــ وفى رواية : طيبة ـــ أمته الحمَّادون لله على كل حال) (٨)

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨
(٤) سورة آل عمران آية ١٠٣
(٣) سورة الأحزاب آية ٤٥ ـــ ٤٧
(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٧
(٥) سورة المائدة آية ١٥
(٦) سورة إبراهيم آية ٣٤
(٧) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع وأحمد ٢ / ١٧٤ والبخارى بشرح الكرمانى ١٠ / ١٧ .
(٨) رواه الدارمى فى المقدمة

وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ)(١) الآية ، وقد قال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ)(٢) الآية .

هذا وقد نبهنا الله تعالى لمنته علينا بحبيبه وخاتم رسله سيدنا ومولانا محمد، حيث جعله رحمة عامة للمؤمنين رءوفا بهم ﷺ ، ليّن الجانب سَمْحًا سهلا طَلْقًـا بَرًّا لطيفا ، وجعلنا إكرامًا له ﷺ شهداء على الناس يوم القيامة ، فكنا أمة وسطا وخير أمة أخرجت للناس إكراما لحضرته وتعظيما لشأنه ، جمعنا الله به ﷺ بعد التفرقة ، وهدانا به بعد الضلالة ، وأنقذنا سبحانه وتعالى به ﷺ من شفا جرف هار فى نار جهنم ، فأصبحنا ـ بنعمة الله علينا بسيدنا ومولانا محمد ﷺ ـ إخوانا متحابين ، كأننا جسم واحد أو نفس واحدة فى أعضاء متعددة ، كل فرد لكل فرد ككل عضو لكل عضو. فسبحان ذى الفضل العظيم . ظهرت تلك الحقيقة بلامراء جلية لمن علموا وعملوا فكانوا خلفاء الله فى أرضه ، أخضع لهم من خالفهم وأذل لهم من عارضهم ، مكنهم الله سبحانه وتعالى فى الأرض بالحق ، ومنّ عليهم رضوان الله عليهم بما منّ به على أنبيائه من الفرقان والعرفان والقرب والمشاهدة واليقين ، عملوا لله فعمل الله لهم ، تحققوا بمعية الله سبحانه ، فكان الله سبحانه معهم ، ومن كان الله معه لا تدرى نفس مقدار ما يمنّ به عليه ، وما انحرف قوم من المسلمين عن صراطه المستقيم وطريقه القويم إلا أذاقهم الله لباس الجوع والخوف، ومكّنَ منهم عدوهم وأذلهم . أعوذ بوجه الله الكريم من مخالفة سيدنا ومولانا محمد ﷺ .

أنواع الواجب علينا لرسول الله ﷺ :

الحمد لله ثبتت دلائل النبوة ، وقامت الحجة العقلية والنقلية على حقيقة رسالته ﷺ ، وشهدت العيون والقلوب على ما تيقنته من صحة تصديقه ، ولست فى مقام إثبات دلائل الرسالة وسرد الأدلة وشرح المعجزة ، لأن ذلك أمر اعترف به العدو والصديق والمسلم والكافر إذا ألقى السمع وهو شهيد ، إلا من قطعهم العناد عن شهود تلك الشمس المشرقة فى الأفق الصحو، فما علىّ الآن إلا أن أبين الواجب علىّ وعلى كل فرد مسلم ، وتنحصر أنواع الواجب علينا فى تصديقه واتباعه فى سنته، وطاعته ومحبته ومناصحته وتوقيره و برّه ، وفى حكم الصلاة والتسليم عليه ﷺ ، وزيارة قبره ﷺ ، والمودة فى قرابته ﷺ .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩

١ – وجوب التصديق والطاعة والإتباع :

بَدَهِيٌّ أن الخير مقصود لكل عاقل وأن الشر عدو كل عاقل ، وتحقق أن الخير والسعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة لا تنال إلا بطلبها من وجوهها الحقيقية ، وتقرر أن سيدنا ومولانا محمدا هو رسول الله حقا ، وشهدنا أنه هو الرحمة العظمى الرءوف الرحيم بنا ، واعترفت العقول السليمة بذلك ، وشهدنا بالحسّ فى هذه الدنيا أن مخالفته والعمل بغير وصاياه سبب فى شقاء الدنيا وفساد المجتمع الفاضل وهلاك الفرد المخالف ، فالواجب علينا ـــ قياما بالواجب لأنفسنا،لأن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن العالمين ورسوله ﷺ عدو للكافرين والفاسقين والمجرمين ـــ أن نصدق سيدنا ومولانا محمدا ﷺ تصديقا يبلغ من اليقين أن نعتقد أنه هو الرحمة الحقيقية لنا والسعادة الحقيقية لنا ، وأن وصاياه لم تكن إلا الخير لنا الحقيقى الذى هو مقصود العقلاء ، و به لذة الحياة الدنيا والأخرى ، بحيث نتحقق أن مخالفته ﷺ شقاء لأبداننا وذل لنا ، وعذاب لأرواحنا وهلاك لمجموعنا وذهاب لريحنا وفشل لنا . ويجب علينا أن نطيعه ﷺ إطاعة عن تبصرة ، متحققين أن طاعته ﷺ نجاة الأبدان وسعادة الأرواح ، و بها العز فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة ، بحيث أن نجاهد أنفسنا الجهاد الأكبر فى لزوم طاعته ﷺ والعمل بوصاياه حتى تلين ، ولو أن ذلك أدّى إلى مالا يلائم النفس،بل ولو أدى إلى ذهابها أو ذهاب المال والجاه،كل ذلك بيقين حق ولذة وسرور وفرح وأنس ، حتى تلين النفس وتنقاد لسُنَّتِهِ وتتلذذ بعمل أوامره،وتستوحش من كل مخالفة فى صغيرة أو كبيرة .

ويجب علينا أن نحبه ﷺ حبا أشد من حبنا لأنفسنا وأموالنا وأولادنا : حبا يجعلنا نحافظ على سنته ونحيى كلمته،ونتفانى فى ذلك منافسة فى نوال أعلى درجات المحبة فيه ﷺ ، لأننا بذلك نفوز بحقيقة الكمالات وننال أرفع منازل الوصال ، لأننا بحبنا له ﷺ أحببنا أنفسنا،لأننا بمحبته ﷺ المحبة التى تجعلنا نعتقد أنه أولى بنا من أنفسنا وأرحم بنا منها وأرأف وأشفق وأعلم بخيرنا منا ، مع ما كان عليه ﷺ من الخلق العظيم والعاطفة الحقيقية والحكمة البالغة فى إظهار الحق لنا،ودعوتنا للسعادة الحقيقية ، وما تحمله ﷺ فى سبيل نجاتنا وخلاصنا حتى عاتبه الله سبحانه وتعالى عتابا شديداً بقوله سبحانه وتعالى :

(فَــلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)(١) وقوله سبحانه تعالى : (إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللهَ لَايَهْدِى مَن يُضِلُّ)(٢) وقوله سبحانه : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ)(٣) وقوله تعالى : (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ)(٤) وقد تحققنا يقينا سنة الله فى الرسل قبله ﷺ بالتواتر، أن بعضهم دعا على قومه فأهلكهم الله بالطوفان ، وآخرين أغرقهم فى اليم ، ومن الأمم من خسفت بهم الأرض ، ومنهم من مسخوا قردة وخنازير ، ومنهم من أهلكهم بالسنين ، ولم يتحمل نبى من قومه ما تحمله ﷺ من قومه ، فكان ﷺ إذا اشتد به الأمر قال : (رَبِّ اهْدِ قَوْمِى فَإِنَّهُمْ لَايَعْلَمُونَ) فأى عقل سليم ونفس زكية تتمثَّل ما أنعم الله به علينا بهذا الحبيب الأكبر ﷺ ولا تتأله حبا فى ذاته ﷺ ، وعشقا فى أخلاقه ﷺ ، ومحافظة على سنته ﷺ؟

فالسعيد حقا من منحه الله جزيل مننه وعظيم نعمته حتى تمثل هذا السيد ﷺ وعلم بعض ما منَّ الله به علينا،فأنزله ﷺ فى أعلى المراتب من الحب والتعظيم ، وقام مجاهداً نفسه فى العمل بسنته ﷺ هذا من حيث كمالاته ﷺ فكيف إذا تمثلنا ما ننال به من السعادة ﷺ وما نبلغ به من درجة الكمال فى النعيم الجسمانى والسعادة الروحانية ؟ ذلك ما يجعلنا نجعل محبته ﷺ فوق محبتنا لأنفسنا ، ونجعل اتباع سنته ﷺ أولى من لذتنا وحظنا ، نعم قد انكشفت تلك الحقيقة وتجلت لمن منّ الله عليه بنوره من العقل الذى يعقل عن الحق سبحانه أحكامه وحِكمه ، وعن رسوله ﷺ وصاياه وإرشاداته ، وقدر رأفته بنا وحنانته ورحمته بنا ﷺ وإن حجب الحقيقة حجاب الحظ والهوى عن أناسى طالت نومة غفلتهم ورقدة جهالتهم ممن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فإن هؤلاء ليسوا من بنى الإنسان وإن كانوا على صورة الإنسان ، قال الله تعالى : (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(٥) وقال سبحانه : (وَمَا أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ) (٦) وقال سبحانه وتعالى : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّى يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ)(٧) هذا وإن من بعض بنى الإنسان من هم

---

(١) سورة فاطر آية ٨ . (٢) سورة النحل آية ٣٧ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩ . (٤) سورة الشورى اية ٤٨ .
(٥) سورة الفرقان آية ٤٤ . (٦) سورة الروم آية ٥٣ .
(٧) سورة المعارج آية ٤٢ .

على صورة الإنسان وهم شياطين على صورة إنسان ، وهم أهل النفوس الخبيثة المطبوعة على الجحود والإنكار والتشكيك والريب والحسد ، وهم أهل الجدل المارقين عن الحق،ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة لايبصرون إلا فى ظلمة الضلالة ، ولا يفقهون إلا فى ليل الغواية ، ولايسمعون إلا من قرين السوء وداعى الفساد ، كالخفاش لايبصر الشمس ضحوة فى السماء الصافية ، ولايصدق بوجودها ولو أقاموا له ألف حجة ودليل ، لم يكن ذلك لأن الشمس محجوبة عن الأ بصار بل لأنه لايبصر إلّا فى الظلام ، وليس الخفاش حجة لبقية الطيور على أن الشمس ليست موجودة فكيف يكون موتى القلوب حجة لأهل العقول السليمة على ما حرموه من النور؟ فلم يبق لعاقل إلا أن يشكر الله على ما أكرمه به من النور، ووفقه له من العلم والعمل ، ومنَّ به عليه من الإيمان والإسلام .

إذا تقرر ذلك فالواجب على كل مَنْ مَنَّ الله عليه بالإسلام أن يبتدئ بتلقّى ما أوجبه الله عليه من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، و يتعلم سنن رسول الله ﷺ فى كل قول وعمل وحال ، وأخلاقه ﷺ من الصبر والرضا والصدق والأمانة والرحمة والرأفة والحرص على سعادة الخلق أجمعين ، والتواضع والتوكل والشجاعة والنجدة والإقدام والبر والصلة والفضيلة والمروءة والعفة والحكمة والمداراة والعفو والبشاشة والغضب والانتقام والإكرام بحسب مناسبات كل وقت ومقتضياته ، فيغضب حيث يغضب رسول الله و يرضى حيث يرضى ، و ينتقم حيث ينتقم ، و يعفو حيث يعفو حتى يكون عاملا فى سنة رسول الله ﷺ متخلقا بأخلاقه مشابها له ﷺ ، فإذا كملت تلك المعانى علما بمعونة الله،وقام بها عملا بتوفيق الله سبحانه وتعالى،تحقق العبد بكمال الطاعة لرسول الله ﷺ ، والمحبة له ﷺ والبر به والمودة لأقاربه ﷺ و بالصلاة عليه ﷺ ، حتى يكون كاملا فى كل تلك المعانى و يكون من أهل معيته ﷺ الذين وصفهم الله تعالى فى آخر الفتح ولو كان فى القرن الرابع عشر من الهجرة أو أكثر منه .

٢ – وجوب تعلم آدابه ﷺ :

وجوب تعليم آدا :

ومن الواجب علينا لجنابه ﷺ أن نتعلم آدابه ﷺ التى أدَّ به الله تعالى بها فى نفسه ﷺ ومع أهله وجيرانه وأهل المدينة والوفود . وأدابه ﷺ فى التعليم والصلح والإصلاح والأكل والشرب والنوم والمجالسة والمعاشرة والنصيحة والموعظة . وآدابه مع أهل الفضل والنسب والحسب . وآدابه ﷺ مع الفقراء والمرضى . وآدابه فى غزواته ولباسه ومشيه وخصوصا فى صلاته وصيامه وحجه ﷺ وفى حال معيشته ، بل وفى كل ما يحب و يكره . نتعلم ذلك كله من طرقه الصحيحة وأسانيده الحسنة ، ونجاهد أنفسنا الجهاد الأكبر أن نتشبه به ﷺ ، ونسارع إلى التوبة إن قهرتنا النفس على عمل فى غير سنة واضحة ومحجة بينة ، وليس على السنة مَنْ علم بعض الدين وعمل به وترك العلم بما لابدّ له منه ، فبعض الناس ممن يجتهدون فى تعلم أركان الإسلام ويجهلون بقية شعبه و يظنون أنهم يحسنون صنعا ، فيجهلون علوم الأخلاق والمعاملة التى هى الدين ويحسبون أنهم تكملوا فى الإسلام، و بينه و بينهم مراحل .

ولا أخالك أيها القارىء تظن أنى أحتم عليك أن تتعلم أصول الدين وفروعه مما لا بد لك منه وما لا حاجة لك إليه ، فأقول لك إنى لا أعنى أن تتعلم طرق الاختلاف وأصول الاستنباط وعلم الفصل فى القضايا والإفتاء والمواريث وتدبير الجيوش والولايات ، فإن ذلك خاص بمن تعين عليه ، ولكنك أيها القارىء على يقين أنك لا بد لك من معاملة تجب عليك لوالديك وإخوانك وأهلك وأولادك وجيرانك والصناع والتجار والزارع والعمال ، فيجب عليك أن تتعلم الأحكام الشرعية التى يمكنك بها أن تبر والديك وتصل رحمك وتحسن معاشرة أهلك وأولادك ومعاملة جيرانك وخدمك ، بحيث لو جهلت ذلك لعملت فى غير سنة وكنت على غير هدى ، ودخل عليك الحرام من حيث لا تشعر ، و وقعت فيما يغضب من حيث لا تعلم .

طاعة رسول الله عين طاعة الحق سبحانه :

فالواجب علينا جميعا لرسول الله ﷺ أن نجعل كل أعمالنا مؤسسة على السنة قياما بالحقوق الواجبة علينا لجنابه ﷺ ، و بالحقوق الواجبة علينا لأنفسنا حتى نبلغ غاية الكمال الذى أهلنا له، وإلا فنكون أهلكنا أنفسنا بجهلنا ، قال الله تعالى فى وجوب الإيمان به وفرض

طاعته واتباع سنته : (فَـامِنُواْ بِـاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا)(١) وقال سبحانه : (إِنَّا أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُواْ بِـاللَّهِ وَرَسُولِهِ)(٢) وقال سبحانه وتعالى : (فَـامِنُواْ بِـاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ)(٣) وقال سبحانه وتعالى : (وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(٤) وقال سبحانه وتعالى : (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ)(٥) وقال سبحانه وتعالى : (مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)(٦) وقال تعالى : (وَمَا ءَاتَـٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَـانتَهُوا)(٧) وقال سبحانه وتعالى : (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـٰئِكَ ... الآية)(٨) وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)(٩).

يظهر من صريح تلك الآيات أن الله تقدست ذاته جعل طاعة رسوله ﷺ عين طاعته ، وقرن طاعته سبحانه بطاعته ، ووعد جل ذكره على ذلك بجزيل الثواب ، وأنذر من خالف سوء العقاب ، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه ﷺ ، وأجمع المفسرون والأئمة على أن طاعة الرسول ﷺ تتحقق فى التزام السنة والتسليم لما جاء به . سئل سهل بن عبدالله عن شرائع الإسلام فقال بسند البخارى عن أبى هريرة رضى الله تبارك وتعالى عنه يقول : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَطَاعَنِى فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ عَصَى اللهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِى فَقَدْ أَطَاعَنِى ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِى فَقَدْ عَصَانِى »(١٠) هذا وقد ورد فى القرآن الكريم أن الكفار وهم فى الحطمة : (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ)(١١)فتمنوا طاعته ﷺ . وقال ﷺ : « إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَااسْتَطَعْتُمْ » وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كل

---

(١) سورة التغابن آية ٨
(٢) سورة الفتح آية ٨ – ٩
(٣) سورة الأعراف آية ١٥٨
(٤) سورة آل عمران آية ١٣٢
(٥) سورة النور آية ٥٤
(٦) سورة النساء آية ٨٠
(٧) سورة الحشر آية ٧
(٨) سورة النساء آية ٦٩
(٩) سورة النساء آية ٦٤
(١٠) أخرجه البخارى فى باب الاعتصام . والجهاد ، والأحكام ، ومسلم فى باب الإمارة ، والنسائى فى باب البيعة ، وابن ماجه فى المقدمة والجهاد ، وأحمد فى المسند .
(١١) سورة الأحزاب آية ٦٦ .

أمتي يدخلون الجنةَ إلاّ من أبى ، قالوا ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنةَ ، ومن عصاني فقد أبى »(١) وفى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : (مَثَلى ومَثَلُ مابعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : ياقوم إني رأيتُ الجيشَ بعيني ، وإني أنا النذير العُرْيانُ فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأُدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فدهمهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واَتَّبع ماجئتُ به ومثل من عصاني وكذب ماجئت به من الحق » (٢) وفى الحديث الآخر: «مثله كمثل من بنَى دارا وجعل فيها مأدبة و بعث داعيا ، فمن أجاب الداعي دخل الدارَ وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فالدار الجنة ، والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدا فقد أطاع اللهَ ، ومن عصى محمدا فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس »(٣).

٣ – وجوب اتباعه والاقتداء بهديه والعمل بسنته ﷺ :

قال الله تعالى : (قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)(٤) قال سبحانه وتعالى : (فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(٥) وقال الله تعالى : (فَلا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .. الآية إلى قوله تعالى : تسليما)(٦) أى ينقادوا لحكمك . وقال تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ.. الآية)(٧) عن الترمذي : الأسوة فى الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته فى قول أو فعل ، وقال غير واحد من المفسرين بمعناه ، وقيل : هو عتاب للمتخلفين عنه . تلك الآيات القرآنية الشريفة جلية الوضوح بينة المعنى ، دالة على أنه ﷺ النور الحقيقي المضيء لسبل الله ، والصراط المستقيم الموصل إلى حضرة القدس ، وأن أعماله ﷺ وأحواله وأقواله

---

(١) أخرجه البخاري فى باب الاعتصام ، وأحمد فى المسند ٢ / ٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري فى كتاب الرق ، والاعتصام ، ومسلم فى الفضائل .

(٣) أخرجه البخاري فى الاعتصام والترمذي فى الأداب ، والدارمي فى المقدمة .

(٤) سورة آل عمران آية ٣١

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٨

(٦) سورة النساء آية ٦٥

(٧) سورة الأحزاب آية ٢١

ووصاياه هى المعارج التى تعرج عليها الأشباح والأرواح إلى حظائر الملكوت الأعلى ، ولو أن العقل ترك وشأنه متجردا من كل حظ يكسف نوره ، وهوى يطمث بصيرته لانكشفت له حقيقة السعادة فى تلك الدار الدنيا ، وأكمل الخير الحقيقى فى الحياة الباقية الأبدية ممثلة فيما جاء به هذا السيد ، لأن وصاياه ﷺ وهديه القويم وأخلاقه الكريمة كوقاية للعالم الحى من الشرور ، ومراق للنوع الإنسانى إلى أكمل منازل السعادة وأجمل معانى الفضائل ، كيف لا وقد قوَّم الأخلاق المعوجة وكشف سحب الظلمات عن شمس التوحيد ، ومحا غياهب الضلال بنور الدلائل ، حتى سجد العقل معترفا ، وصفى الخيال مغترفا ، ملأ القلوب السليمة حبا لذاته لأن الله صاغها من رحمة ورأفة وحنان ، وليس على ذى اللب إلا المسارعة فى التشبه بجنابه حتى يفوز بقسط وافر من تلك الفضائل الكاملة والمزايا الفاضلة والجزاء العظيم والنعيم المقيم ، وليست النفوس اللاهية عن العمل بهديه وإن غرقت فى يم الغفلة والنسيان بمنكرة هذا الفضل العظيم ولا بجاحدة هذا المقام الجليل ، وربما تمثلته بصيرته فجذبته نسمات هذا الروض الزاهر إلى الإنابة إلى الحق والنزوع عن الباطل والتجافى عن دار الغرور ، وأقبلت بقلب سليم عشقا فى تلك الشمائل وإعجابا بأخلاق تتعشقها الأرواح . ولسنا فى صدد ذكر نبذ من تلك المعانى فقد صارت كالشمس ضحوة فى نهار الصيف .

٤ – وجوب محبته ﷺ ، والآيات والأحاديث الواردة فى ذلك :

قال الله تعالى : (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)(١) هذه الآية الشريفة نور للقلوب المستضيئة بنور اليقين ، لأن الله تعالى جعل كل مؤمن يكون حبه لوالديه وأولاده وإخوته وزوجاته وعشيرته وأمواله أكثر من حبه لرسول الله ﷺ فاسقا ضالا ، وأوعده بأن يتربص حتى يأتى أمر الله . نعوذ بالله أن يكون شىء أحب إلينا من الله ورسوله .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٤

الأحاديث الواردة فى وجوب محبته ﷺ :

بسند الإمام أبى الفضل عِيَاض عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لَايُؤْمِنُ أَحدُكُم حتى أكونَ أحبَّ إليه مِنْ وَلَدِهِ ووالدِهِ وَالناسِ أجمعين »(١) . وعن سيدنا أنس رضى الله عنه:« ثَلاَثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان:أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما،وأن يحبَّ المرء لايحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ فى النار »(٢) . وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال للنبى ﷺ : (لَأَنتَ أَحبُّ إلىَّ مِنْ كلِّ شىءٍ إلاَّ نفسى التى بين جنبىَّ ، فقال له ﷺ :« لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن نَفْسِهِ »فقال له عمر : والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلىّ من نفسى التى بين جنبىّ ، فقال له النبى ﷺ : « آلآنَ يَاعُمَرُ) .

مراتب محبته ﷺ

الحب فى مقام الواصلين :

هذا المقام هو المقام الذى تتفاوت فيه الهمم ، و يتنافس فيه المتنافسون ، وما بلغ عبدٌ مقام قرب إلا بحب لجنابه ﷺ ، و بقدر ما ينكشف للعقل من معانى كمالاته عليه الصلاة والسلام،وما يشرق على القلب من أنوار أسراره تكون المحبة ، فقد تبلغ بالعالم بكمالاته ﷺ مبلغا تتخلل المحبة جميع أعضائه حتى ينصبغ بالحق صبغة تجعله مثلا يمثل تلك المعانى ، وصورة كاملة للحقيقة المحمدية ، حتى يكون منطبعا على الكمال مُجَمَّلاً بالفضائل قولا وخلقا وعملا سرا وعلانية ، ولايزال – فى كل نَفَسٍ – فى مزيد من التجمل بتلك الأسرار،والتحلى بحلل المعانى بانكشاف حِكَمِ الوصايا وأسرار الأحكام وحقيقة الرحمة والرأفة والحرص ، وظهور خير المآل وسعادة الأبد ، فيكون المحب فى هذا المقام كمن انبلجت له شمس تلك الحقيقة مشرقة فى أفقه فوضَّحت له المناهج ، ورفعت عنه الستائر ،

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه البخارى فى كتب الإيمان والإكراه والأدب ، ومسلم فى الإيمان ، والنسائى فى الإيمان وابن ماجه فى كتاب الفقه ، وأحمد فى المس
وفى رواية أخرى عند أبى داود والترمذى وابن ماجه وأحمد : « ثلاث من كن فيه وجد طعم الإيمان ... الحديث » .

وتيقن بقدر ما فاز به من المواهب وما ظفر به من الخيرات ، وتحقق جمال معانى من امده الله على يديه بتلك المنن ، فكانت ذاته محبوبة لكمالاتها الذاتية، ووصاياه وتعاليمه، محبوبه يسارع فى التجمل بها لما يناله من الفضل والرضوان وهو مقام الواصلين .

الحب فى مقام السالكين :

السالك هو من علم زوال الدنيا و بقاء تبعاتها وتيقن بيوم الحساب ، وتحقق أن طريق النجاة من أهوال القيامة هو المحافظة على سنة سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، وتبين بنور العلم أنه ﷺ الواسطة العظمى للوصول إلى النعيم المقيم ، فعشقه ﷺ لما ظهر له أنه سر النجاة و باب الفلاح والسعادة عشقا جعله عاملا بالسنة محافظا عليها ، متحققا أن محافظته هى عين سعادته وفلاحه ، مقبلا بقلبه وظاهره على العمل بالسنة والكتاب ، محبا للعلم والعلماء ملازما لمجالسهم ، لأنه لايتوصل إلى سعادته إلا بالعمل بالسنة ، والسنة لا تنكشف له إلا بصحبة العلماء ، فمحبة هؤلاء محبة لنوال السعادة لأنهم يحبون سيدنا ومولانا رسول الله ، لا لانكشاف كمالاته وعلم مقاماته ﷺ بل لأنه عَلِمَ أن السعادة فى اتباعه ﷺ فأحبه كحب الطفل لوالديه لرؤيته الخير واصلا إليه منهما . وهذا هو الحب الذى به يبلغ المريد درجة الوصول .

الحب الذى يدعيه الأدعياء :

اما الحب الذى يدعيه الأدعياء ولم يتمسكوا بسنته فليس بحب . إذ المحب لمن يحب مطيع . ومن الجهلاء من يكون فى قلبه حب لرسول الله ﷺ ولآل بيته الكرام ، فيشغله ذكر ما منّ الله به على نبيه ﷺ وما أكرم به آل بيته الكرام و يترك التعلم والعلماء ، و يترك العمل بالسنة تركا عن قصد ، و يظن الجاهل أنه على شىء وأنه محب لرسول الله وهو فى الحقيقة مدع مغرور ، لأن حب رسول الله ﷺ هو التحقق بما كان عليه ﷺ والتجمل بالعلم والعمل الموافق للسنة ، لأن مخالفة السنة أو جهل مالابد منه انحراف عن الطريقة المستقيمة ، لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال وليس بعد السنة إلا البدعة المضلة ، فمن يدعى محبة رسول الله ﷺ أومحبة آل بيته الكرام و يترك تعلُّم السنة والعمل بها و يغترُّ بحالته

يخشى عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى . وإن بعض الجهلاء يخدعون العامة فيشغلونهم عن تعلّم السنة والواجب عليهم فى دين الله تعالى ، و يوهمونهم أن هذا هو الطريق الموصل إلى الله تعالى وهم دعاة للشر وابواب لجهنم ، وربما جعلوا الطريق سببا فى اكتساب الأموال فطلبوا الدنيا بعمل الآخرة وهم الذين لعنهم رسول الله ﷺ بقوله صلوات الله عليه : (مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ قالوا : من يارسول الله ؟ قال : من طلب الدنيا بعمل الآخرة) .

وإنما محبة رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا لمن عمل بسنته بعد علمه بها ، وأحب العلماء العاملين بها حبا لرسول الله ﷺ ولو كانوا من الأعاجم ، كما أحب سيدُنا الحسنُ ابن على سيدَنا سلمانَ الفارسى وتلقى عنه العلم ، وأحب أشرافُ بنى هاشم بلالا وصهيبا حبا لرسول الله ﷺ ، وهم آله ﷺ بنص قوله ﷺ : (آلُ مُحَمَّدٍ كُلُّ تقىٍّ) (١) وقوله ﷺ : (سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) . وقوله صلوات الله عليه : (أدخل الإسلامُ بلالا فى نسبى وأخرج الكفرُ أبالهب من نسبى) . فنسبه المتصل ﷺ هو العلم بسنته والعمل بها مع حقيقة التقوى ، و بذلك يتحقق حبه ﷺ بالمتجملين بتلك المعانى .

السنة مقبولة للعقول الكاملة :

ليس على طالب الحق والفوز بالسعادة الأ بدية عسر فى تحصيل أحكام السنة والعمل بها لتيسير ذلك وسهولته على النفوس الزكية ، وقبوله لذى العقول الكاملة ، فإن أخلاقه ﷺ التى كان عليها وأمر بها تهيَّمُ فيها العقولُ وتتعشقها الأنفس ، والعقيدة التى أمر بها ﷺ يطمئن بها القلب و ينشرح لها الصدر و يقبلها بالسرور كل عقل ، والمعاملات التى رغَّب فيها ﷺ هى الأساس الذى عليه سعادة المجتمع الإنسانى ، وصفاء حياته، ورغد عيشته ودوام أنسه ، لأنها تجعل المجتمع كجسم واحد يسعى كل عضو منه لصالح الجميع .

ولولا أنى لم أكن فى مقام بيان السنن ـــ إذ ذلك قد وضحته فى كتاب : (أصول الوصول) وغيره من الكتب لذكرت نموذجا من ذلك . والحمد لله ، فإن وصاياه ﷺ سوت بين بنى الإنسان فى المعاملة حتى صار العدل شاملا كل فرد من الأفراد ، والفضل عاما

---

(١) عند أبى داود فى كتاب الفتن بلفظ : « وإنما أوليائى المتقون » وعند أحمد بلفظ : « إن اولى الناس بى المتقون » . المسند ٥/ ٢٣٥ .

للجميع ، مع ما بيّنه ﷺ من حِكَمِ المعاملات وأسرارها لسعادة الدنيا والآخرة ، وما أوجبه ﷺ على كل مسلم من الأعمال التى بها حفظ صحته وماله وأهله حتى كان المخالف للسنة ينحط عن رتبه الإنسانية ، و ينزل إلى مرتبة الوحوش الضارية ، لأنه بمخالفته للسنة برهن على فساد فكره وفقد عقله ، وكيف لا وقد ترك الخير المحسوس إلى الشر المحسوس ولايفعل ذلك البهيم الأعجم . كل ذلك واضح جليٌّ حتى للصبيان ، فترى الصبى إذا فعل ما يخالف السنة اجتهد أن يخفيه وأنكره ونفاه عن نفسه لعلمه أن ذلك قبيح لا يليق بالإنسان ، فكيف برجل بالغ كمل عقله وتوفرت صحته يخالف السنة و يكون إنسانا حقيقة؟ .

وربما يعترض علىّ معترض قائلا : إنا نرى كثيرا من أهل العقل والفكر يخالفون السنة أو يكفرون بالله تعالى و برسوله ﷺ ، فأجيبه أن دعوى (أن عاقلا يخالف السنة أو يجحد الحكيم الخالق الصانع أو الداعى إلى الخير) لاحجة لك عليها ، فإن العقل إذا قامت له الأدلة ووضحت له الحجة وتبين له المقصود سجد متقبّلا واعتقد جازما ، وأما من ادعيتَ أنهم عقلاء فإن كان مجرد علمهم بجلب الدنيا وتفننهم فى استخدام الآثار الكونية وقيامهم بعظائم الأمور وتأثيرهم بالقوة القاهرة دليل على عقولهم ، فذلك مالا يقول به من جمّله الله بالعقل وكمّله بالنهى وأيده بنور الحجا ، لأنا نرى كثيراً من أنواع الحيوانات تعمل أعمالا تعجز بنى الإنسان بصناعات يجهد الإنسان نفسه فى تلقيها منها . وأمامك العنكبوت وحيلها فى صيد غذائها بما تصنعه من النسيج كالشبكة ، والنحل فى هندسة الأشكال وتنظيم مدينته وإدارة شئون مملكته ودقة صنعه وما يقدمه للإنسان ، والنمل فى حرصه وتنظيم مساكنه بجعل مواطن لخزن الغذاء لايضرها السيول الجارفة ولا تغيرها رطوبة الأرض ولايحبس عنها الهواء ، والكلب فى وفائه وإخلاصه وقيامه بالواجب عليه ، والطيور فى نظام سيرها واتحادها . ولو نظر العاقل إلى ما يقوم به بعض أنواع الحيوانات من الحكمة العملية والحرص والتدبير والتعاون لفضلناه على من تدعى أنهم عقلاء ، وكيف لا وكثير من الحيوانات يفكر فى مستقبله فيحرص على قوته و يعمل له مساكن للصيف والشتاء ، أهذا عن عقل ؟ إنما تلك فطرة فطر الله عليها كل حىّ ليحفظ بها حياته فى المدة التى قدرها الله له .

حقيقة العقل الإنسانى :

وإنما العقل الذى يعتبر أنه عقل إنسانى هو العقل الذى يعقل الكمالات والفضائل ، و يشهد الغائب بالمشهود ، و يدرك الحِكَمَ والأَحْكَامَ ، و يعقل عن الله أحْكَامَهُ سبحانه وتعالى وَحِكَمَهُ ، و يدرك حقيقة نفسه وحقيقة الدنيا وانها دارٌ زائلةٌ ومزرعةٌ للآخرة ، فيعمل فيها ليخلِّص نفسه منها ، ويجدّ لينتقل إلى دار البقاء وقرار السعداء ونزل الأ برار ، هذا وإذا كان العقل الإنسانى نهاية قواه استخدام ما حوله من الكائنات ، كما تستخدم الحيوانات والنباتات جميع ما أحاط بها مما يلائمها بدون أن تدرك الكمالات النفسية ، أو تعلم بقبح القبيح وحسن الحسن ، أو تعتقد بيوم الجزاء والسؤال ، أو تستدل بالنظام المشهود وغريب الحكمة المحسوس وعجيب الصنع الملموس بوجود قادر حكيم مدبِّر صانع ، لأن ما فيها من القوى التى تدرك بها الضار والنافع ليس عقلا إنسانيا بمعناه الحقيقى ، وإنما هى غريزة فطرية وإلهام من الله تعالى ، ولذلك فالله سبحانه وتعالى خلق لكل نوع منها صورة خاصة مؤهلة لمعاونته ، وأعضاء خاصة للغذاء وللمدافعة وللحركة وللتنفس ، فترى الحيوانات المائية والحيوانات الجوية والحيوانات التى تعيش تحت طبقات الأرض وهب الله لها ما به تطيب حياتها وَ يُحْفَظُ نوعها ، وقد نرى كثيرا من الحيوانات ما يتهذب فيبلغ فى إجادة ما أُهِّلَ له مبلغا يكاد يكون عند الإنسان أحب إليه من ماله وأهله كالفرس والكلب والفيل والنسناس والقرد ، فمن يقول إن تلك القوى عقل فهو غير عاقل . فكذلك الإنسان الذى استخدم ما حوله من الكائنات بالقوة الغريزية التى أودعها الله فيه بقدر ضرورياته وكمالاته الحيوية ، ونافس فى نيل الحياة الطيبة فى تلك الدار الدنيا حتى استخدم ما حوله من العناصر المجردة كالنار والهواء والماء والتراب وغيرها كالجمادات والمعادن والنباتات والحيوانات بالتركيب والتحليل والتربية ، واخترع غرائب المخترعات بغير نظر بعيون الفكر إلى الآيات المنبلجة فى تلك الكائنات ، ولا جهاد للنفس فى سبيل المعرفة بالله تعالى ونيل كمالاته النفسانية ، فإنه حيوان كثير الحاجة أدنى من الحيوان الأعجم ، ولو تصرف فى الماء والهواء والنار والتراب بقوة الإلهام الذى جعله الله له آلةً يحفظ بها حياته المدة التى قدرها الله له فى الدنيا ، فإن أضاع عمره فى شهواته الحيوانية وضرورياته الجسمانية تمنى يوم القيامة أن يكون ترابا ، لأنه عاش فى الدنيا عيشة الحيوان ، ويحاسب فى الآخرة حساب الإنسان .

ومن هذا استنتجوا أن الإنسان الذى لم يستعمل عقله حتى يقوى و يسترشد به لتنبلج له أنوار العقيدة الحقة ــ حتى يقول لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، و يصدق بمولانا رسول الله سيدنا محمد و بجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام ــ فليس بعاقل ، بل وليس حيوانا لأنه صار أدنى من الحيوان رتبة ، لأن الحيوان الأعجم يستعمل كل غريزته فيما خلقت له بوجه أكمل . والإنسان الموهوب له العقل الكامل الذى باستعماله يبلغ درجة إلى أن يكون خليفة عن ر به سبحانه وتعالى ، و يبلغ درجة من السعادة القصوى يكون فيها فى روضات الفردوس الأعلى تتولى خدمته الملائكة الروحانيون ، وإن أهمل تلك القوة انحط إلى أسفل سافلين حتى يهوى فى نار جهنم نعوذ بالله من إهمال استعمال العقل ، أما المصدق بالله ورسله المؤمن بيوم الحساب الذى يخالف السنة فهو عندى كالحيوان ، لأنه انقاد لحظّه وشهوته كما ينقاد الحيوان للإنسان فيحمل عليه و يركبه أو يذبحه ليأكل لحمه ، فكذلك الإنسان المخالف للسنة ولو بلغ من العلم بظاهر الحياة الدنيا مبلغا يستخدم فيه حرارة الشمس وزوابع الرياح وتيارات الماء ويخترع فيه ما يعجز الصناع .

وليس قصارى كمال الإنسان بمعناه الحقيقى أن تتوفر لديه أشهى المطاعم وأجمل الملابس ، والخيل المسومة والمساكن المشيدة وألذ المناكح ، فإن الطاووس أجمل ثيابا ، والنحل أنظم مساكن ، والسبع أنفذ كلمة وأجرأ قلبا وأشد جأشا ، والخنزير أشد شبقا واكثر سفاداً ، والحمام أطرب وأرخم صوتا . وإنما هذه كمالات من لاعلم لهم بفضائل النفس ودرجات رقيها ولذتها الروحانية . وكفى الحيوان الذى هو على صورة الإنسان تعسة أن يحرم فى الدنيا ملاذ صورته ، و يعذب فى الآخرة فيكون الجماد خيرا منه والحيوان أفضل منه ، قال الله تعالى مشنّعا عليهم : (و يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)(١) وقال سبحانه وتعالى : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَ يَتَمَتَّعُواْ وَ يُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)(٢) وقال سبحانه وتعالى : (إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(٣) فهم مسئولون سؤال العاقل الكامل ، ومؤاخذون مؤاخذة المفكر البصير ، لأن الله جلت قدرته جعل لهم عقلا يعقل وأرسل لهم

---

(١) سورة محمد آية ١٢

(٢) سورة الحجر آية ٣

(٣) سورة الفرقان آية ٤٤

الرسل عليهم الصلاة والسلام فأقاموا الحجة القاطعة على صدقهم انهم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، و بينوا مناهج الحق وسبل الهدى بيانا تلمسه العقول إذا خلصت من سجن الحظ والهوى وتجردت من درن الأمل ، وعمرهم الله عمراً يتذكر فيه من تذكر ، كل ذلك امدهم الله تعالى به حبًا فى إقبالهم ، فأبت تلك النفوس اللسقة أن تلقى السمع أو يكون لها قلب يتقلب فى جلال وجمال مبدع الكون ، أو بصيرة تخرق سياج الكون حتى تشرق عليها أنوار وميض حظيرة القدس الأعلى ، لتسكن تلك النفوس إلى منفِّسها ، والقلوب إلى مقلِّبها ، والأرواح إلى مروِّحها بطهور راحه وريحان مشاهدته ، كل ذلك تفضل به المتفضل .

وأفضل نعمة أمد بها عباده ، وأكمل مِنَّة تقرب بها إلى أحبابه هى نعمته علينا بحبيبه ﷺ ، الذى جعله رحمة من رحمته ، وأقامه مقامه ﷺ ولم يقم أحداً هذا المقام من عالين وكروبيين وحملة العرش والسفرة الكرام والرسل المقربين عليهم الصلاة والسلام ، وكيف لاوقد قال سبحانه وتعالى : (مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ)(١) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)(٢) وليس بعد التصريح بـ (أَيْدِيهِمْ) - بعد أن وضح فى افتتاح الكلام المقدس أنه يخاطب حبيبه-خفاء على ذى عقل أنه أقامه مقامه حقا ، وأنابه عنه صدقا ، وما ذلك إلا لأنه ﷺ حقيقة ما يحب الله ، وجلىّ ما يريد الله عقيدة وقولا وعملا وحالا ، فمخالفه ﷺ لم يكن مخالفا له صلوات الله وسلامه عليه وإنما هو مخالف لربه ، ظالم لنفسه ، وهو ﷺ فرق بين الحق والباطل فلا يتوهم متوهم أن مخالفا لسنته ﷺ — ولو بلغ من العلم مبلغ إبليس ، ومن السلطة مبلغ فرعون — عاقل ، ولكنها غريزة كغرائز الحيوانات يستعملها كما يستعمل الحيوان الأعجم غريزته وفطرته وليس بعاقل عند العلماء . وقد يغتر بعض من لاعلم له بمن علموا بظاهر من الحياة الدنيا ، و يعتقدون أنهم عقلاء وهم كفار أوعصاة ،و يرى بعض المتمسك بدينه فارا من زهرة الدنيا مستوحشا من ملاذها التى يألفها المغرورون متلذذا بمايتألم منه غيره فيظن المغرور لجهله أن التقى غير عاقل . وما ذاك إلا لجهله بملاذ النفس وكمالاتها ووقوفه عند ملاذ الجسم . فإن الإنسان إذا وقف به الهمّ على مأكل شهى وفراش وَطِيء ومنكح لذيذ فقد أشبه الخنزير فى سفاده ،

---

(١) سورة النساء آية ٨٠

(٢) سورة الفتح آية ١٠

والطاووس فى جماله والنحل فى هندسة عشه ، وكفى به تعسة أن تكون ملاذه لا تتعدى ملاذ الحيوانات العجم ، إنما ملاذ الإنسان روحانية ، وكمالاته ملكوتية ، ونعيمه بمشاهدة آيات ربه وحضوره بمعيته سبحانه وتعالى .

علامات المحبة الصادقة :

قُلْتُ: المحبة الصادقة، لأن الفضائل والكمالات محبوبة للنفوس ، حتى أن مرتكب الرذائل يكره أن تنسب له و يتظاهر بالفضائل ويخاصم من يذكره بقبيح أعماله أمامه أو فى غيبته ، و ينكر على من يعمل الرذائل إنكاراً حقيقيا حتى قد يبلغ به استقباح الرذيلة فى غيره إلى درجة يعاديه فيها ، و يقطع ما بينه و بينه من المواصلات مع أنه واقع فيما يعادى عليه غيره وأكثر ، لأن الإنسان لايقدم على عمل من أعمال الرذائل إلا بدافع يعمى عيون عقله عن شهود قبح الرذيلة ، حتى إذا نفذ القضاء تناسى وقوع تلك الرذيلة من نفسه وأنكر على غيره إذا رآه واقعا فيها ولو عقب وقوعه مباشرة . ولما كان الاقتداء برسول الله ﷺ والتشبه به صلوات الله وسلامه عليه والعمل بسنته ﷺ هو الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية والفوز العظيم ، وكان أكثر أهل الرذائل الذين يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم يدعون أنهم يحبون السنة والعمل بها ، وأنهم يحبون رسول الله ﷺ ملء قلوبهم والحقيقة غير ذلك ، ولذلك أحببت أن أبين علامات المحبة الصادقة ليتميز الصادقون فى المحبة من الأدعياء .

العلامة الأولى :

فأول علامة من علامات محبة رسول الله ﷺ أن يكون المحب عالما بمقاماته ﷺ ، وكمالاته عليه الصلاة والسلام ، مدركا قدر النعمة التى أنعم الله بها علينا ببعثته ﷺ لنا ، فاهما أسرار حكمه ووصاياه صلوات الله وسلامه عليه ، والمعانى التى تتحقق بها المحبة لجنابه ﷺ ، ومشاهداً مكانته من الله سبحانه وتعالى وما اختص الله به ذاته ﷺ من الكمالات والجمالات وجلالة القدر والخصوصيات ، حتى صار أفضل الرسل والملائكة المقربين وفرد ذات الله المخصوص بخالص محبته سبحانه وتعالى . و يتحقق يقينا بالفوز

العظيم والخير الحقيقى والسعادة الأبدية بالمحافظة على سنته ﷺ هذه أكمل علامة يزن المؤمن بها نفسه ، فمن أنس من نفسه بتلك المعانى فقد أهّل لمقام الحب ، واجتباه الله لمراتب الولاية واصطفاه للفوز بالقرب .

العــلامة الثــانية :

علامة المحبة للخير الواصل للمؤمن من حسن اقتدائه برسول الله ﷺ . المؤمن حقيقة هو من صدّق بالغيب وأسلم لله رب العالمين ، وسلم أمره لرسول الله ﷺ ــ الذى هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ــ تسليما عن تبصرة بالإيمان بيوم الحساب ، وتخيل عذاب ذلك اليوم ونعيمه ، وتحقق علم يقين أن النجاة لا تكون إلا بالاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، فأحبه حبا بقدر فوزه ونجاته من أليم العذاب الذى يحصل لمن خالفه ﷺ ، وحبا بقدر فوزه بالسعادة الأبدية والنعيم الحقيقى . فكان حبه لرسول الله ﷺ أعظم من حبه لنفسه ، إذ نفسه بدون اتباعه له ﷺ تجعله مخلدا فى أليم العذاب أعوذ بالله من مخالفة رسول الله ﷺ . وقد يقوى هذا الحب حتى يبلغ بالمحب درجة يتلذذ فيها بأحكام السنة ولو كان حكم السنة لايلائمه أو أدى إلى فقد مال أو نفس ، لأنه لكمال تصديقه بالغيب يرى أن اتباع السنة هو عين السعادة وحقيقة اللذة ، و يشتد التصديق حتى يكون الألم العاجل المؤدى إلى الخير الآجل لذة ، كما شوهد فى كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء بالله تعالى من تحمل الآلام والشدائد والتلذذ بها ، خصوصا عند الجهاد أو عند إحياء السنة . والأمثلة لاتحصى فى كتب السير ، وبمشيئته تعالى سأخصص رسالة خاصة أشرح فيها أحوال أهل المحبة وسيرهم ، وأكشف القناع عن مكنون مواجيدهم ذاكرا تلك الأحوال والمواجيد منسوبة إلى الأفراد الذين اجتباهم الله ، مبينا مآخذ تلك الأحوال من السنة والكتاب تكون طهورا للنفوس وريحانا للقلوب .

العلامة الثالثة :

وهى علامة المريد السالك المؤهل لمشاهد الأبرار وهى من دلائل الخير، أن يكون المسلم مجذوبا بعامل قوى إلى معرفة شمائل رسول الله ﷺ الظاهرة والباطنة ، شغفا بعلم معجزاته ﷺ وتعليم سننه صلوات الله وسلامه عليه ، مع الغيرة على السنة والحب فى إحيائها وبغض البدعة ، والمسارعة إلى سماع مذاكرة العلماء والتودد إلى الأتقياء والأنس بالفقراء والتسليم لأهل الأحوال ، مع العمل بالسنة والكتاب فى نفسه بدون أن يكون فى قلبه غل لمؤمن ولا حقد عليه . حتى تكون همته فى تزكية نفسه ومحو لقسها ، فيكون إذا رأى الجاهل المسيىء تباعد عن عمله وحاله ، وهذه العلامة إذا ظهرت فى المبتدىء دلت على عناية الله به .

وبقى علامات المحبوب لرسول الله ﷺ ، ولسنا فى مقام بيانها لأنها من علوم المقربين وأسرار اليقين ، وإنما أتكلم فى هذه الرسالة بالعلوم التى تكون بها يقظة المسلم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، حتى يكون بها مسلما كاملا مريداً صادقا . وبالإجمال فالمحب لرسول الله ﷺ عامل بسنته متجمل بهديه ﷺ ، ولايتصف بالمحبة الحقيقية إلا من علم مالابد منه من السنة والكتاب وعمل بعلمه مخلصا ، وإلا فهو دعىّ غرّه الغرور وخدعته نفسه . أسأل الله تعالى أن يمنحنا جميعا الحب الخالص لذاته العلية ولذات رسوله ﷺ ، ويعيننا على مابه نكون محبوبين لجنابه العلىّ ولرسوله ﷺ .

الصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ

رسول الله ﷺ هو النعمة العامة :

بَدَهِىٌّ أن شكر المنعم أوجبه الشرع والعقل ، ويتفاوت هذا الواجب بالنسبة لتفاوت النعم ، فشكر من أنعم عليك بطعام يوم أو بثوب ليس كشكر من أنعم عليك بقوت سنة . ولما كانت النعمة علينا برسول الله ﷺ لايمكن أن يحصيها الحاسبون ، وكيف لا وقد قال الله تعالى : (وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(١) . وقال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)(٢) فنعمة الله تعالى علينا لايمكن حصرها ، لأنها نعمة علينا فى الدنيا بائتلاف قلوبنا الأمر الذى به صرنا إخوانا متحابين ، بل أعضاء لجسد واحد يعمل كل عضو لمنفعة المجموع ، حتى بذلك دان لنا الخلق وحصلت لنا لذة الحياة وطيب المعيشة ، وتلك النعمة كلية لاتحصى مقدماتها وأسبابها ولاتحصر فوائدها وخيراتها ، وليست تلك النعمة خاصة بمن صدّقه ﷺ من المسلمين ، ولكنها عامة لكل الخلق من الإنس والجن والملائكة والحيوانات والنباتات .

نعمة الله على الملائكة :

أما الملائكة فإن الله سبحانه وتعالى أنعم عليهم برسول الله ﷺ بما أثنى عليهم فى كتابه العزيز كلٌّ بحسب مقامه الذى أقامه فيه ، فقال سبحانه فى أمناء الوحى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)(٣) وقوله تعالى : (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ)(٤) وقال الله تعالى فى الثناء على حملة العرش ومن حوله من الملائكة : (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)(٥) .

وقال سبحانه وتعالى فى الثناء على جميع الملائكة : (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ)(٦) وآيات أخرى لاتحصى فى الثناء على الملائكة عليهم السلام لم تكن إلا فى القرآن الذى أنزله الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ ، مما به تروحت تلك الأرواح الطاهرة وحصل لها الأنس والبهجة والسكون إلى جناب القدس الأعلى بعد أن كانت الرهبة غالبة على الرغبة ، فحصل التوسط

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧

(٣) سورة التكوير آية ١٩ ـ ٢١

(٤) سورة عبس آية ١١ ـ ١٦

(٥) سورة غافر آية ٧

(٦) سورة البقرة ٩٧ ـ ٩٨

الذى به تدوم لذة الأرواح المجردة . هذه أجل نعمة أنعم الله بها بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ على الملائكة مما يمكن أن يبين فى مثل هذا المختصر الذى وضع ليقظة المؤمن من نوم الغفلة ورقدة الجهالة .

فأما النعم الخاصة بالمواجهة والمؤانسة بالقدس الأعلى والنيابة عن الحق سبحانه وتعالى فى التبليغ والإرشاد فهذا علم لاينبغى كشفه بالعبارة للعامة،ولاتحبيره على صفحات الأوراق .

النعمة على المجتمع الإنسانى :

أما النعمة التى أنعم الله بها على الإنسان برسوله وحبيبه ﷺ لافرق بين مسلمهم وكافرهم،فما فطره الله عليه ﷺ من الرحمة والشفقة وحب العدل والمساواة ، وما بيَّنه ﷺ لنا من حسن المعاملة و بذل السلام والإحسان ، حتى جعل لأهل الذمة ماللمسلمين من الحقوق ، وحظر على كل مسلم أن يظلم أو يجهل ، وأوجب على كل مسلم الرحمة على جميع الخلق ، فأصبح المجتمع الإنسانى فى تقدم ورقىّ ومزيد من الحضارة والعمران وتبادل التجارة والعلوم ، وعم الأمن جميع الناس . ولم يجعل ميزة بين أنواع الإنسان ، بل لافرق بين عربىّ وعجمىّ إلا بالفضائل ومكارم الأخلاق والخوف من الله تعالى . ومن تتبع سير الخلفاء الراشدين العاملين بوصاياه ﷺ بعد أن أخضعوا كسرى وقيصر وفتحوا أكثر الممالك كيف انتشرت الحضارة وظهر العدل بأجلى مظاهره وساد الأمن والأمان ، واستوى النصرانى المصرى الفقير الصعلوك بأمير مصر العربى الشريف القرشى يوم لطم القبطى أمير مصر بمشهد الحج الأكبر انتصارا للعدل ، وإظهارا للمساواة بأمر أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب . علم أن النعمة برسول الله ﷺ نال منها كل فرد من بنى الإنسان قسطا وافرا لافرق بين مؤمن وكافر ، وإنما خص المؤمن بالسعادة الأبدية يوم الجزاء الأكبر ، فكانت النعمة به على المسلم فى الدنيا والآخرة أشمل ولغيره خاصة بالدنيا .

النعمة على الحيوانات :

أما نعمته على الحيوانات فما بينه فى وصاياه ﷺ من الحث على الرحمة بالحيوانات كقوله ﷺ (مَن لَّايَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ)(١) وقوله ﷺ : (إِنَّ ٱللَّهَ كَتَبَ ٱلإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَاشْحَذُوا الْمُدْيَةَ وَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ)(٢) وأحاديث كثيرة فى الحث على حسن العناية بذواب الحمل وغيرها . وقد وردأنه ﷺ كان قافلا من غزوة ، فخرجت حية فبادرها بعض الصحابة لقتلها فلم يتمكنوا من قتلها ، فلما رجعوا سألهم ﷺ فأخبروه فقال : (وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا)(٣) فجعل قتلها شرًّا . فترى المسلم حقيقة يرحم الحيوانات بأجمعها حتى إذا هم بقتل المؤذى منها اجتهد أن يكون قتله له برحمة حتى لا يعذبه . وهذه الوصايا نعم عامة على جميع الحيوانات .

نعمة الله على النباتات :

أما نعمة الله به ﷺ على النباتات ، فإنه ﷺ غرس النخل بيده ، وحث على غرس الأشجار وعلى العناية بسقياها ، وأخبر ﷺ أن أجرها لايحصى فظلها أجر وثمرها أجر ، وورقها للحيوانات أجر ، وجذعها للاستعمال أجر ، كل ذلك يجعل الإنسان يعتنى بسقيا النباتات حتى صار المسلمون يتنافسون فى الزراعة،ومعلوم أن النبات حىٌّ حياة تناسبه يحس بالمرض إذا لم يباشر بالماء و يبست المادة التى يتغذى منها .

فنعمة الله عليه برسول الله ﷺ ظاهرة جلية هذا سر قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ) (٤) والعالم كل ما سوى الله.**٥وجوب الصلاة على المصطفى ﷺ** والنعمة به ﷺ على المسلم لا تحصى ولا تعد ، وشكر النعمة واجب شرعا وعقلا فيجب على كل مسلم شرعا أن يصلى و يسلم عليه ﷺ

(١) أخرجه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى الفضائل ، وأبو داود فى الأدب ، والترمذى فى البر ، وأحمد فى المسند .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصيد ، وأبوداود فى الأضاحى ، والترمذى فى الدية ، والنسائى فى الأضاحى ، وابن ماجه فى الذبائح ، والدارمى فى الأضاحى .

(٣) أخرجه النسائى فى المناسك ، وأحمد فى المسند ١/٣٨٥ـــ ٤٥٦ ، ٤٥٨ وفى رواية أخرى عندهما : (وقاها الله شركم و وقاكم شرها) .

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٧

وجوبا عينيا ، وإن رأى ذلك بعض العلماء مندوبا فإنه ليس على إطلاقه عندهم،ولكن ذلك كالنطق بالشهادتين ، فإنه يتعين مرة واحدة،ولكنى أرجح قول القائلين بالوجوب تكرارا وخصوصا فى التشهد الأخير من الصلاة كما رأى ذلك سيدنا الإمام الشافعى رضى الله عنه . وأن الأمر فى قوله لا إله إلا الله إنما يراد به الدخول فى الإسلام ، والواجب علم لا إله إلا الله علما ينتقش فى النفس و ينعقد عليه القلب حتى تحصل المراقبة فى كل لحظة وَنَفَسٍ ، قال تعالى : (فَـٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)(١) فأوجب علم لا إله إلا الله . وإجماع الامة على فرضية الصلاة عليه ﷺ فى العمر مرة لاخلاف فيه، وإنما الخلاف فى تكرارها هل هو واجب أو مندوب . فأوجبه الشافعى فى التشهد الأخير. وقال القاضى أبو بكر بن بُكير: افترض الله على خلقه أن يصلوا عليه و يسلموا تسليما ولم يجعل ذلك بوقت معلوم ، فالواجب أن يكثر المرء منها ولايغفل عنها . وقال مالك بن أنس : تاركها فى التشهد الأخير مسيء . وأوجب الشافعى على تاركها فى التشهد الأخير إعادتها . وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان ، وكان محمد بن المواز يراها فريضة فى الصلاة . وفى الحديث الشريف : (لَاصَلَاةَ لِمَن لَّمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) وإن ضعف الرواة هذا الحديث . وقال الإمام أبو جعفر بن محمد بن علىّ زين العابدين بن الحسين رضى الله عنه : لو صلَّيْتُ صلاة لم أُصَلِّ فيها على النبى ﷺ وعلى أهل بيته لرأيت أنها لا تتم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الدعاء والصلاة معلق بين السماء والأرض فلا يصعد إلى السماء منه شيء حتى يصلى الداعى على النبى ﷺ .

المواطن التى تتأكد فيها الصلاة على النبى ﷺ :

ومن المواطن التى تتأكد فيها الصلاة على النبى ﷺ الدعاء ، روى أن الدعاء محجوب حتى يصلى الداعى على النبى ﷺ . وقال ﷺ : (لَا تَجْعَلُونِى كَقَدَحِ الراكِب ، فَإِنَّ الراكِبَ يمْلأُ قَدحهُ ثُمَّ يَضَعُهُ وَ يرْفَعُ مَتَاعَهُ ، فَإِن ٱحْتَاجَ إلى شَرَابٍ شَرِبَ أَوْ لِوضُوءٍ تَوَضَّأَ وَإلاَّ هَرَاقَهُ (أَوْ أَهْرَقَهُ) وَلكِنِ ٱجْعَلُونِى فِى أَوَّلِ الدُّعَاءِ وَوَسَطِهِ وَآخِرِهِ) (٢).

---

(١) سورة هود آية ١٤ .

(٢) وعند الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لايصعد حتى يصلى علىّ فلا تجعلونى كغمر الراكب ، صلوا علىّ أول الدعاء وأوسطه وآخره) تيسير الوصول إلى جامع الأصول حديث الرسول للزبيدى ٥٩/٢ .

وتتأكد عند ذكره ﷺ وسماع اسمه أو الكتابة أو عند الأذان ، قال ﷺ : (رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ)(١) وتتأكد كثرة الصلاة يوم الجمعة . وتتأكد الصلاة عليه والسلام عند دخول المسجد ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ)(٢) فإن لم يكن فى البيت أحد فقل : السلام على النبى ورحمة الله وبركاته . قال ابن عباس : المراد بالبيوت هنا المساجد . و يظهر من تأويله إطلاق الآية هنا وتقييد الأخرى وهى قوله تعالى : (لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا)(٣) الآية.فقوله هنا : (تَسْتَأْنِسُواْ) وقوله فى الآية الأولى : (فَسَلِّمُواْ) دليل على أن الآية الأولى للمساجد . وتتأكد حال الصلاة على الجنائز،وفى افتتاح الرسائل وإن لم يكن عليه الصدر الأول ، ولكن أجمعت الأمة عليه فى أوائل القرن الثانى عملا بقوله ﷺ : (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلْ ٱلْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَادَامَ ٱسْمِي فِي ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابِ)(٤).

كيفية الصلاة عليه ﷺ :

من المعلوم أن أوامره ﷺ العامة تقتضى أن تكون بقدر المبتدئين الذين ينبغى أن يكون الأدب حصنا لهم من الغلو أو التفريط ، ولما كانت السنن العامة ينبغى أن تكون مفاتيح للقلوب وحصونا للعقول ، حتى إذا عمل العامل بما علمه منحه الله علم مالم يعلم ليكون ذلك بابا من أبواب الفضل ، ومعراجا من معارج القرب ، وسرا من أسرار المزيد . كانت الصلاة التى أمرنا بها رسول الله ﷺ التى أمرنا أن نصلى عليه بها ﷺ دالة على كمال التواضع ، حافظة للقلوب عن التفاضل والاشتغال بذكر خصوصية الأنبياء ، والالتفات بذكر التفاضل بينهم ، حتى يعكف الهم على ذكر الواحد الأحد ، و يتوجه القلب إلى

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات وأحمد بن حنبل فى المسند ٢٥٤/٢ .

(٢) سورة النور آية ٦١

(٣) سورة النور آية ٢٧

(٤) ومن رواية أحمد : «من صلى عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى عليَّ » . المسند ٤٤٥/٣ ، ٤٤٦ .

جناب القدس الأعلى ، و يتوجه الخيال إلى معانى القدس الأعلى ، خالية مما تنزعج منه القلوب حتى إذا توجه القلب بكمال الإخلاص كوشف بحقائق المقامات المحمدية ، و واجهه الله بأسرار المنازل ، وصوفى بما يشرح صدره و يطلق لسانه بصلوات على رسول الله ﷺ تناسب قدر قربه ، وتوافق مقام حبه ، ولذلك فبالسند عن سلامة الكندى : كان أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب يعلمنا الصلاة على النبى ﷺ يقول : اللهم داحى المدحوات ، و بارىء المسموكات ، وجبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها ، اجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفة تحننك على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيشات الأ باطيل ، كما حُمّل فاضطلع بأمرك لطاعتك ، مستوفزا فى مرضاتك واعيا لوحيك حافظا لعهدك ماضيا على نفاذ أمرك ، حتى أورى قبسا لقابس آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم ، وأبهج موضحات الأعلام ونائرات الأحكام ومنيرات الإسلام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، و بعيثك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة اللهم أفسح له فى عدنك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك مُهَنِّئَات له غير مكدرات من فوز ثوابك المحلول ، وجزيل عطائك المعلول ، اللهم أعل على بناء الناس بناه ، وأكرم مثواه لديك ونزله ، وأتم له نوره وأجره من ابتعاثك له مقبول الشهادة ومرضىّ المقالة ، ذا منطق عدل وخطة فصل و برهان عظيم .

وعنه أيضا فى الصلاة على النبى ﷺ : إن الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ، لبيك اللهم ربى وسعديك ، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما سبح لك من شىء يارب العالمين ، على محمد بن عبدالله خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وإمام المتقين ورسول رب العالمين ، الشاهد البشير الداعى إليك بإذنك السراج المنير وعليه السلام . وعن سيدنا عبدالله بن مسعود : اللهم اجعل صلواتك و بركاتك ورحمتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير ورسول الرحمة ، اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأ ولون والآخرون ، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، و بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

فضل الصلاة على النبى ﷺ :

لما كان الترغيب فى الصلاة على النبى ﷺ لايكون إلا للمريد الذى لا يقع به العلم على عين اليقين ، ولم تنكشف له حجب الوهم والخيال عن المكانة المحمدية ، ولم يذق من صافى راح المعرفة ذوقا يتحقق به بقدره وقدر النعمة التى أنعم الله بها عليه على يده صلوات الله وسلامه عليه ، كان ولابد للمريد من ذكر مايقوى رغبته فى الصلاة على النبى ولا يكون ذلك إلا من الحديث الشريف ، والأحاديث فى ذلك لا تحصى عدًّا . منها : عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صلاةً صَلَّى اللهُ عليه عَشْرَ صَلَوَاتٍ ، وَحطَّ عشرَ خَطيئاتٍ ، ورفَع له عشر درجات) وفى رواية : (وَكَتَبَ له عَشْرَ حَسَنَاتٍ)(١) . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : (أَوْلَى الناسِ بى يوَم القيامةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً)(٢) . وعن أبى طلحة : دخلت على النبى ﷺ فرأيت من بشره وطلاقته مالم أره فسألته فقال : (وَمَا يمنعُنِي وقد خرج جبريلُ آنفا فأتانى ببشارة مِنْ ربِّى عزَّ وَجَلَّ ان الله تعالى بعثنى إليك أُبَشِّرَكَ أنه ليس أحدٌ من أُمَّتِكَ يُصَلِّى عليك إلاَّ صَلَّى اللهُ وملائكتهُ عليه بها عَشْراً) والأحاديث الواردة فى فضل الصلاة على النبى ﷺ كثيرة ، والمريد الصادق إذا أشرقت عليه أنوار القرب انجذب بعامل الحب فتلذذ بالصلاة على النبى ﷺ ، لذة تجعل نفسه تبتهج بالصلاة عليه ﷺ بهجة تنسيه ما عداها من العطايا،لأنه يكون آنسا بمشاهدة جماله ﷺ فرحا بما كوشف به من مقاماته العلية . وكيف لا وشكر النعمة واجب شرعا وعقلا . وأجل نعمة لله علينا نعمته سبحانه علينا بسيدنا ومولانا محمد ﷺ ونعمته علينا باتباعه ﷺ والعمل بسنته صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك فإن أكثر العارفين يمنحهم الله تعالى من سوابغ إحسانه حقيقة حب فى قلوبهم لما كوشفوا به من مقامات رسول الله ﷺ فتنطلق ألسنتهم بجمل من الصلاة عليه ﷺ تكشف الستار عن مقام كل عارف ومقدار عوارفه ، وتلك الجمل تكون كراح للأرواح ، وطهرة لنفوس من تلاها بعده . وفضل الصلاة عليه ﷺ ظاهر فى الدنيا قبل الآخرة ، فإن تكرار الصلاة على النبى ﷺ يزكى

---

(١) وعند أحمد بن حنبل «من صلى على صلاة صلى الله وملائكته عليه سبعين صلاة» المسند ٢/١٧٢ — ١٨٧ .
(٢) أخرجه الترمذى فى باب الوتر.

النفس ، ويجمل لطائف القلب ، و ييسر خيرى الدنيا والآخرة ، وقد شهدت ذلك بنفسى فى نفسى وفى غيرى ، ولا برهان أقوى من التجربة ، وفقنى الله وإخوانى جميعا للمحافظة على السنة ومنحنا حب رسول الله ﷺ .

فضل زيارة النبىّ ﷺ

مايستحسن عند الزيارة :

هذا الموضوع أكتب فيه لأهل التسليم ممن وفقهم الله تعالى للعمل بوصاياه ﷺ ومعرفة قدر النعمة به ﷺ المؤمنين حقا ، لأنه عمل ينتجه الإيمان الكامل . وإنى والحمد لله على يقين أن كل مسلم يحن لزيارة قبر النبى ﷺ ينمو فى كل نفس ، ولكنى أبين الآداب التى تأدب بها الصحابة رضوان الله عنهم والتابعون وأئمة الخير ممن يقتدى بهديهم مبينا ذلك بأسانيده ، وأستحسن كما استحسن أهلُ العلم كالإمام مالك وغيره أن يقول المتوجه إلى المدينة : توجهت لزيارة النبى ﷺ أو للسلام على النبى ﷺ و يقول عند رجوعه : زرت النبى ﷺ ، أو سلمت على النبى ﷺ ولايقول زرت قبر النبى ﷺ والذى أراه فى استحسان هذا المذهب لأن الناس لم يتوجهوا لزيارة القبر كما يتوجه الناس لزيارة القبور، لأن زيارة القبور للعظة والاعتبار وللدعاء لأهلها والاستغفار لهم ، ولكن المزور هنا هو النبى ﷺ فيجب أن يميز الناس بين الزيارتين . وهذا أدب أدّب الله به أهل العلم وكيف لا والمتوجه إلى المدينة يشهد مواطن تنزل الوحى ، وأماكن جلوسه ﷺ ومواضع وضع قدمه الشريف ، وَأُفُقًا بورك برفع صوته ﷺ فيه بالقرآن والعلم والأمر والنهى ، وروضة ثبت أنها روضة من رياض الجنة ، وحظيرة بوركت بمس جسده الشريف ، ولذلك فقد ثبت أنه يجب ضرب أكباد الإبل إلى تلك الأماكن .

آداب الصحابة والسلف فى الزيارة :

أما آداب الصحابة والسلف فى الزيارة فأبين كما ورد رضوان الله عنهم : عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ : (من زار قبرى وجبت له شفاعتى)(١) .

(١) أخرجه أحمد فى المسند ١٠٨/٤ .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (من زارنى فى المدينة مُحْتَسِبًا كان فى جوارى وكنت له شفيعا يوم القيامة)(١) . وفى حديث آخر : (من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى) . وكره مالك أن يقال : زرنا قبر النبى ﷺ . وقال ابن أبى فديك : سمعت بعض من أدركت يقول : بلغنا أنه من وقف عند قبر النبى ﷺ فتلا هذه الآية (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا)(٢) ثم قال صلى الله عليك وسلم يامحمد ، من يقولها سبعين مرة ناداه مَلَكٌ : صلى الله عليك يافلان ولم تسقط لك حاجة . وقال بعضهم : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبى ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلم على النبى ﷺ ثم انصرف . وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر رأيته مائة مرة وأكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبى ﷺ ، السلام على أبى بكر ، السلام على أبى ثم ينصرف . ورؤى ابن عمر واضعا يده على مقعد النبى ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه . وعن ابن قسيط والعتبى : كان أصحاب النبى ﷺ إذا خلا المسجد جسوا رمانة المنبر التى تلى القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون . وقال القاضى أبوالوليد الباجى : وعندى أنه يدعو للنبى ﷺ بلفظ الصلاة ولأ بى بكر وعمر . وقال ابن حبيب : و يقول إذا دخل مسجد الرسول : باسم الله وسلام على رسول الله ، السلام علينا من ربنا وصلى الله وملائكته على محمد ، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك وجنتك واحفظنى من الشيطان الرجيم . ثم اقصد إلى الروضة وهى ما بين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر تحمد الله فيها وتسأله تمام ما خرجت إليه والعون عليه ، وإن كانت ركعتان فى غير الروضة أجزأتاك وفى الروضة أفضل . وقال ﷺ : (ما بين منبرى و بيتى روضة من رياض الجنة ومنبرى على ترعة من ترع الجنة) . ثم تقف بالقبر متواضعا متوقراً فتصلى عليه وتثنى بما يحضرك ، وتسلم على أبى بكر وعمر وتدعولهما ، وأكثر من الصلاة فى مسجد النبى ﷺ بالليل والنهار ولا تدع أن تأتى مسجد قباءو قبور الشهداء . وقال مالك فى كتاب محمد : و يسلم على النبى ﷺ إذا دخل وخرج يعنى بالمدينة وفيما بين ذلك قال محمد : وإذا خرج جعل آخر عهده الوقوف بالقبر وكذلك من خرج مسافراً . وروى ابن وهب عن فاطمة بنت النبى ﷺ أن النبى ﷺ قال (إذا

---

(١) وعند الترمذى فى المناقب ومالك فى الموطأ وأحمد : « إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » المسند ١٨١/١ ، ١١٣/٢ ، ٢٩/٣ ، ١٠/٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

دخلتِ المسجد فَصَلِّى على النبى ﷺ وقولى : اللهم اغفر لى ذنبى وافتح لى أبوابَ رحمتِك ، وإذا خرجت فصلى على النبى ﷺ وقولى : اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبوابَ فضلِك) .

هذا ما كان عليه أئمة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وما ورد فى ذلك عن رسول الله ﷺ وعمل الصحابة هو النور الذى يجب على كل مسلم أن يقتدى به فى زيارة النبى ﷺ وفى السلام عليه .

شهود أهل الحب الواهين :

على أنى لا أنكر على أهل الحب الواهين الذين انجذبت قلوبهم إلى حضرة المعية المحمدية إذا سطعت أنوار بصائرهم فأخفت مشهد الأ بصار ، فشهدوا بالروح عند دخول المسجد النبوى ما مثله الخيال الصافى من كدرات الأهواء ، واستحضره القلب المطمئن من معانى المكانة المحمدية ، فحصل الخشوع المزِّق لأغشية القلب حتى يصرخ الصارخ ، و يصعق الصاعق ، و يغنى المغنى ، و يهتز الواجد ، و يبكى العاشق ، و يتمثل الواصل ، فمنهم من يمد يده مسلّماً ، ومنهم من ينحنى مقبّلا ، ومنهم من يلتمس مخاطبا ، ومنهم من يشكو مشاهدا ، ومنهم من يقبل البشرى ، ومنهم من يسمع . كل ذلك مسلّم لأهله مقبول منهم ، لأن مقامات المحبة تتفاوت حتى تنزل السكينة وتحصل الطمأنينة ولديها يكون المؤمن وسطا . وقد سبق لك تفاوت أعمال أصحاب رسول الله ﷺ فى زيارته صلوات الله وسلامه عليه مما سبق لك من أعمالهم رضى الله عنهم ، ومن تدبر قول الإمام مالك رضى الله عنه أنه يكره أن يقول : زرت قبر رسول الله ﷺ ، ويجب أن يقال : زرت رسول الله ﷺ يظهر له جلية هذا الأمر ، وإنما ينكر على أهل المحبة من لم يقرأ علومهم ومن لم يتعلم أسرارهم ، ومن جهل شيئا عاداه .

٦- تعظيم عترته الشريفة صلى الله عليه وسلم

مودة آل بيته الشريف :

قال الله تعالى : (قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰ)(١) هذه الآية الشريفة وإن أوّلها بعضُ العلماء بأن رسول الله ﷺ له قرابة فى كل قبيلة من قبائل العرب ،

---

(١) سورة الشورى آية ٢٣ .

وأن الله سبحانه وتعالى أمر بصلة الرحم وَوُدّ ذوى القربى ، ورسول الله ﷺ أوصل الناس لِرَحِمِهِ فيذكّر العرب بأن لايقطعوا قرابته ﷺ ، ولكن بعض المحققين أوّلها إلى مودة آل بيته الشريف . ومن المعلوم أن آل بيته ﷺ هم السيدة الزهراء عليها السلام ، وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين وسيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسيدنا جعفر الطيار وسيدنا العباس بن عبدالمطلب وسيدنا الحمزة وسيدنا عقيل بن أبى طالب .

حق أهل البيت فى عنق كل مسلم :

ففى عنق كل مسلم حق لأهل البيت ، وهذا الحق هو احترامهم وتعظيمهم ومساعدتهم ماداموا متصفين بصفات أهل البيت ، لأنهم يمثلون حقيقة هذا النسب المقدس . فهم الأئمة والهداة وهم السادة المقتدى بعملهم ، وليسوا معصومين فعلينا أن نستر زلاتهم ونخفى عوراتهم ونعينهم ماداموا على الحق ، ونخلص لهم فى النصيحة ونجتهد فى تعليمهم وإرشادهم وردهم عن كل ما يخالف جدهم ﷺ ، فإن قَبِلوا فهم أهل البيت ، وإن أبوا إلا مخالفة السنة والكتاب وجب علينا أن لانعينهم على ذلك وأن ننفر منهم تأديبا لهم لاعقوبة ، وعلينا أن نبين لهم سنن رسول الله ﷺ ونذكّرهم بأنهم أولى الناس بالتمسك بها ، وأحق الناس بإحيائها ، ولانعتقد أن ذلك يغضب رسول الله ﷺ ولا أن ذلك يضرنا بشيء ، بل نتيقن أن ذلك يرضى رسول الله ﷺ خصوصا إذا أنتجت أعمالنا الثمرة المطلوبة ، فإن ذلك شيء يسر رسول الله ﷺ ، و يكون عملنا هذا تقربا إلى رسول الله ﷺ من بذل أموالنا وأولادنا لهم .

المخالف ليس منهم إنما ذلك دَعِيّ ينتسب إلى غير أبيه :

يقول ﷺ : « أَبْقَيْتُ فيكم ثقلين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وأهل بيتى » .

فأهل بيت رسول الله ﷺ هم أنجم الهدى الذين أبقاهم رسول الله ﷺ ليبينوا لنا كتاب الله ، وليجددوا لنا سنن رسول الله ﷺ ، ومن خالف ذلك فليس منهم وإنما ذلك دَعِيٌّ ينتسب إلى غير أبيه ، وإنا أصبحنا فى زمان يمكن كل إنسان أن يدعى تلك الدعوة و يأخذ بها حجة مسجلة يبرزها إن عورض فى قوله وعمله المخالف للسنة ، فيخشاه الجهلاء

الذين يجهلون السنة . أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يعظمون السنة وأهلها ، ويعظمون أهل بيت رسول الله ﷺ القائمين لإحياء سنته ﷺ ، وأن يمنّ علينا بالعفو والعافية والخير الحقيقيّ فى الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

دعائم الإيمان ودعائم الكفر

لما بينت جملا من الواجب لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ من شعب الإيمان ، أحببت أن أورد إجمالا دعائم الإيمان ودعائم الكفر ، نعوذ بالله منه؛ليكون المؤمن على بصيرة فى أمره متوقيا شر مايضعف الإيمان أو يزيله ، متحريا كل ما من شأنه أن يكون مزيدا فى الإيمان .

دعائم الإيمان :

سئل أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه عن دعائم الإيمان فقال : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد .

والصبر منها على أربع شعب : على الشوق . والشفق . والزهد . والترقب . فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات . ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات . ومن زهد فى الدنيا استهان بالمصيبات . ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات .

واليقين منها على أربع شعب : على تبصرة الفطنة . وتأوّل الحكمة . وموعظة العبرة . وسنة الأولين . فمن تبصر فى الفطنة تبينت له الحكمة .ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة . ومن عرف العبرة فكأنما كان فى الأولين .

والعدل منها على أربع شعب : على غائص الفهم. وغور العلم . وزهرة الحكم . ورساخة الحلم . فمن فهم علم غور العلم . ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم . ومن حلم لم يفرط فى أمره وعاش فى الناس حميدا .

والجهاد منها على أربع شعب : على الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر . والصدق فى المواطن . وشنآن الفاسقين . فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين . ومن نهى عن المنكر

أرغم أنوف الكافرين . ومن صدق فى المواطن قضى ما عليه . ومن شنىء الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة .

دعائم الكفر:

وقال عليه السلام : الكفر على أربع دعائم : على التعمق . والتنازع . والزيغ . والشقاق . فمن تعمق لم ينب إلى الحق . ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق . ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة وسكر سكر الضلالة . ومن شاقّ وعرت عليه طرقه وأعضل عليه أمره وضاق عليه مخرجه .

والشك على أربع شعب : على التمارى والهول والتردد والاستسلام . فمن جعل المراء دينا لم يصبح ليله . ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه . ومن تردد فى الريب وطئته سنابك الشياطين. ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما .

الاستغفار من الذنوب

يحسن هنا أن أبين حقيقة الاستغفار، قال سيدنا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان . أولها الندم على ما مضى . والثانى العزم على ترك العود إليه أبدا . والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة . والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها . والخامس أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد . والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول : أستغفر الله . هذا ما قرره أمير المؤمنين سيدنا علىّ بن أبى طالب فى الاستغفار وقد ذكرته فى هذا الموضع بعد ذكر دعائم الإيمان ودعائم الكفر والعياذ بالله تعالى، ترغيبا لى ولإخوانى المؤمنين فى التوبة التى لايغلق بابها عن الإنسان مادام حيا يرزق، ومن استعصت عليه نفسه جاهدها حتى تلين له ، وأكبر دعائم الجهاد مخالفتها.وقد بينت أنواع رياضة النفس فى الكتب السابقة والعاقل لايعدم معرفة طرق تزكية نفسه .

الباب الثالث
الإمامة
الفصل الأول
تعريف الإمامة وصفة الإمام

تعريف الإمامة :

هى عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص لرسول الله ﷺ فى إقامة الأحكام الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة . هذا الموضوع يشتمل على مباحث :

المبحث الأول : فى وجوب نصب الإمام :

أوجبه الإمامية والإسماعيلية على الله تعالى والمعتزلة والزيدية أوجباه علينا عقلا . وأهل السنة أوجبوه علينا سمعا ولم يوجبه الخوارج مطلقا .

وأريد أن أذكر بيان وجوبه علينا سمعا وعدم وجوبه على الله تعالى ، أما الأول : فلأن نصب الإمام لدفع ضرر لايندفع إلا به ، لأن البلد إذا خلا عن رئيس قاهر يأمر بالطاعات وينهى عن المعاصى ويدرأ بأس الظلمة عن المستضعفين استحوذ عليهم الشيطان ، وفشى فيهم الفسوق والعصيان وشاع الهرج والمرج . ودفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان واجب بإجماع الأنبياء واتفاق العقلاء ، فإن قيل : يحتمل مفاسد أيضا إذ ربما يستنكف الناس عن طاعته فيزداد الفساد ، أو يستولى عليهم فيظلمهم ، أو يحتاج لدفع المعارض ونقوية الرياسة إلى مزيد مال فيغتصبه منهم . قلنا احتمالات مرجوحة وترك الخير لأجل الشر القليل شر كثير. وأما الثانى : وهو عدم وجوبه على الله تعالى فلما بينا فيما سبق من كتبنا أنه لايجب عليه شيء بل هو الموجب لكل شيء . قال : احتجت الإمامية بأن نصب الإمام لطف ، لأنه إذا كان للناس إمام كان حال المكلف إلى قبول الطاعات والاحتراز عن المعاصى أقرب مما إذا لم يوجد ، واللطف على الله واجب قياسا على الممكن . والجواب بعد تسليم المقدمات الباطلة : إن اللطف الذى ذكرتموه إنما يحصل بوجود إمام قاهر يرجى ثوابه ويخشى عذابه وأنتم لا توجبونه . كيف ولم يتيسر من عهد النبوة إلى أيامنا إمام على ما وصفتموه .

صفة الإمام عند من أوجب تنصيبه عقلا :

قول من أوجب تنصيب الإمام عقلا فى صفته :

الأولى : أن يكون مجتهدا فى أصول الدين وفروعه ليتمكن من إيراد الدلائل وحل الشكوك والحكم والفتوى فى الوقائع ، الثانية : أن يكون ذا رأى وتدبير يدبر الحرب والقلم وسائر الأمور السياسية ، الثالثة : أن يكون شجاعا لايجبن عن قيام بالحرب ولايضعف قلبه عن إقامة الحد ، وَجَمْعٌ تساهلوا فى الصفات الثلاث وقالوا : ينيب من كان موصوفا بها ، الرابعة : أن يكون عدلا لأنه متصرف فى رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم ، الخامسة ، والسادسة : العقل والبلوغ ، السابعة : الذكورة ، فإنهن ناقصات عقل ودين ، الثامنة : الحرية لأن العبد مستحقر بين الناس مشتغل بخدمة السيد ، التاسعة : كونه قرشيا خلافا للخوارج وجمع من المعتزلة لقوله ﷺ : (الأئمة من قريش)(١) واللام فى الجمع للعموم حيث لاعهد فقوله الأئمة للعموم . وقوله ﷺ : (الولاة من قريش ما أطاعوا الله واستقاموا)(٢).

القول فى عصمة الإمام :

قال : ولايشترط فيهم العصمة خلافا للإسماعيلية والإثنا عشرية ، و ينقض مذهبهم صحة إمامة أبى بكر رضى الله عنه . والأمة اجتمعت على كونه غير واجب العصمة ولا أقول أنه غير معصوم . احتج المشترطون للعصمة فى الإمام بأن وجه الحاجة إليه : إما أن المعارف الإلهية لا تعلم إلا منه كما هو مذهب أصحاب التعليم.أو تعليم الواجبات العقلية . أو تقريب الخلق إلى الطاعات كما هو مذهب الإثنا عشرية ، وذلك لايحصل إلا إذا كان الإمام معصوماً . و بأن احتياج الناس إلى الإمام لجواز الخطأ عليهم ولو جاز الخطأ عليه لاحتاج إلى إمام آخر . ولقوله : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ١٢٩/٣ ، ١٨٣ ، ٤٢١/٤ .

(٢) ومن رواية أخرى عن علىّ رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إن الأمراء من قريش ثلاثة ماأقاموا بثلاث ، ماحكموا فعدلوا ، وما عاهدوا فوفوا ، وما استرحموا فرحموا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . رواه أبو يعلى على ماق مجمع الزوائد ١٩١/٥ . وعند أحمد : « استقيموا لقريش مااستقاموا لكم » المسند ٢٧٧/٥ .

عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ)(١) وأجيب عن الأول بمنع المقدمات وعن الثالث بأن الآية تدل على أن شرط الإمام أن لايكون مشتغلا بالذنوب التى تنفك بها العدالة لا أن يكون معصوما .

صفة الإمام العادل :

كتب عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله : اعلم ياأمير المؤمنين أن الله تعالى جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العدل ياأمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى و يذودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع و يكنفها من أذى الحر والقر . والإمام العدل ياأمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا و يعلمهم كبارا ، و يكتسب لهم فى حياته و يدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل ياأمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلا ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والإمام العدل ياأمير المؤمنين وصى اليتامى وخازن المساكين يربى صغيرهم ويمون كبيرهم . والإمام العدل ياأمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده . والإمام العدل ياأمير المؤمنين هو القائم بين الله و بين عباده يسمع كلام الله و يُسْمِعُهم ، و ينظر إلى الله و يريهم ، و ينقاد إلى الله و يقودهم ، فلا تكن ياأمير المؤمنين فيما ملّكَكَ الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرّق ماله . واعلم ياأمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر ياأمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه يطول فيه ثواؤك ، و يفارقك أحباؤك يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا فتزود له بما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته و بنيه ، واذكر

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٤ .

يـاأمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن ياأمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل لاتحكم ياأمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لايرقبون فى مؤمن إلًّا ولاذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك . ولايغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، و يأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك ، لا تنظر إلى قدرتك اليوم . ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحى القيوم . إنى ياأمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولوا النهى من قبلى فلم آلك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدو ية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته .

قول علماء النفس فى صفة الإمام العادل :

هو الرئيس الذى لايرأسه إنسان آخر أصلا ، والإمام الحاكم بالسو ية الذى يخلف صاحب الشريعة ﷺ فى حفظ المساواة ، ولا تتحقق تلك المنزلة المقدسة منزلة الخلافة عن الرب سبحانه وتعالى وعن رسوله ﷺ إلا لمن فطر على تلك الخصال : أحدها أن يكون تام الأعضاء يمكن كل عضو أن يقوم بما خلق له بسهولة . الثانية : أن يكون جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له فيلقاه بفهمه على ما يقصده القائل وعلى حسب الأمر فى نفسه . ثم أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه ؛ وفى الجملة لايكاد ينساه . وأن يكون جيد الفطنة ذكيا إذا رأى الشىء بأدنى دليل فطن له على الجهة التى دل عليها . وأن يكون حسن العبارة يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة . وأن يكون محبا للتعليم والإستفادة منقاداً لهما سهل القبول ، لايؤلمه تعب التعليم ولا يؤذيه الكد الذى يناله منه . ثم أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح متجنبا للعب مبغضا للّذات الكائنة عن هذه . وأن يكون محبا للصدق وأهله مبغضا للكذب وأهله . وأن يكون كبير النفس محبا للكرامة تكبر نفسه عن كل ما يشين من الأمور وتسمو نفسه إلى الأ رفع منها . وأن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده . وأن يكون محبا للعدل وأهله مبغضا للجور

والظلم وأهلهما ، يعطى النَّصف من نفسه وأهله ومن غيره ويحث عليه و يؤتى من حل به الجور، و يكون مؤاتيا لكل مايراه حسنا وجميلا . وأن يكون عدلا غير صعب القياد ولا جموحا ولا لجوجا ، إذا دعى إلى الجور وإلى القبيح نفر وامتنع . وأن يكون قوى العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل جسورا عليه مقداما غير خائف ولاضعيف . واجتماع هذه كلها فى إنسان واحد عسر ، فلذلك لايوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس فإن وجد مثل هذا ثم حصلت فيه بعد أن يكبر تلك الشرائط الستة المذكورة بعد أو الخمسة منها دون الأنداد من جهة القوة المتخيلة كان هو الإمام الأعظم وإن اتفق أن لايوجد مثله فى وقت من الأوقات كان الإمام القائم بالأمر رئيس أهل الشورى الذين يمثلون جميع تلك الصفات حتى يقوموا بتنفيذ الأحكام الشرعية مع ملاحظة الاقتداء بالأئمة الهادين الذين جملهم الله بجمال تلك الصفات .

ويجب أن يكون الإمام الأعظم المنفرد بالاجتهاد والاستنباط والحكم فيما لم يكن له نظير فى السنن ، وهو الذى اجتمعت فيه من مولده وصباه تلك الشرائط المتقدمة . و يكون بعد كبره فيه ستة شرائط : أحدها: أن يكون حكيما. الثاني : أن يكون عالما حافظا للشرائع والسنن والسير التى دبرها الأولون محتذيا بأفعاله كلها حذو السنن الماضية لأئمة الشريعة بتمامها . الثالث : أن يكون له جودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف فيه شريعة ، و يكون فيما يستنبطه من ذلك محتذيا حذو الأئمة الأولين . الرابع:يكون له جودة رؤية وقوة استنباط فى الحوادث التى يقتضيها الوقت الحاضر من الأمور والحوادث التى تحدث ، مما لم يكن فى زمن أئمة الهدى المقتدى بهم صريح حكم فيها ، و يكون متحريا بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المسلمين وأهل ذمتهم . والخامس:أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى العمل بالشريعة وسنن الأئمة الراشدين قبله ، وإلى التى استنبط بعدهم مما احتذى فيه حذوهم . السادس:أن يكون له جودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب ، وذلك أن يكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسية .

فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشروط ولكن وجد اثنان أحدهما حكيم والثانى فيه هذه الشرائط الباقية كان أحدهما رئيساً والثانى مشيراً لجماعة المسلمين ، فإذا تفرقت هذه فى جماعة وكانت الحكمة فى واحد والثانية فى واحد والثالثة فى واحد والرابعة فى

واحد والخامسة فى واحد والسادسة فى واحد وكانوا متلائمين كان أحدهم إماما والبقية مشيرين ، فمتى اتفق فى وقت ما أن الحكمة فقدت وفقد معها سائر الشروط كان الرئيس القائم بأمر الأمة ليس إماما واستعد المجتمع للهلاك ، فإن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف إليه الإمامة لم تلبث الجماعة إلا ريثما تتقهقر وتغلب على أمرها ، و يسارع الأجانب فى استعبادها ومحو فضائلها وسلب أموالها ، والله سبحانه وتعالى يحفظ المسلمين من أئمة الجهالة وقادة الضلالة إنه مجيب الدعاء آمين . (وأرى) أن الإمام الأعظم لا يخص ذاته بشىء من الخيرات أكثر مما يعطى غيره كما ورد فى الخبر أن الخلافة تطهر الإنسان .

انتخاب الإمام :

ينتخب العامة لمنصب الخلافة العامة من كان شريفا فى حسبه ونسبه ، و بعض العامة يؤهل لذلك من كان كثير المال ، وأما أهل العقل فإنهم يؤهلون لذلك من كان حكيما فاضلا ، فإن الحكمة والفضيلة هما اللتان تنال بهما الرياسات والسيادات الحقيقية ، والمؤهل للخلافة العامة لا يخفى على أحد ، والله يوفق المسلمين لخيرى الدنيا والآخرة و يدفع عنا جميعاً شرور أنفسنا وشرور الأشرار .

الفصل الثانى

الواجب على الإمام والواجب له

الواجب على الإمام الأعظم :

الإمام الأعظم خليفة رسول الله ﷺ وعليه أعظم واجب لأنه مطالب بحقوق بقدر ما على الأمة بأسرها ، وكيف لا وهو مطالب بإقامة حدود الله تعالى و بتنفيذ أحكام الله ودفع المظالم عن المسلمين وأهل الذمة ، وحفظ الثغور وإحياء الأفراد بمادتى العلم والضرورى والكمالىّ للحياة ، فهو مسئول أمام الله تعالى وأمام رسوله ﷺ وأمام كل فرد من أفراد الأمة بحقوق توجب عليه اليقظة والسهر والجد والدأب وطرح حظوظ نفسه وشهواته وراءه ، حتى يكون خليفة لرسول الله ﷺ ممثلا لجنابه ﷺ ، ويجب عليه أن يسوق كل إنسان نحو سعادته التى تخصه ثم يقسم عنايته بالناس ونظره لهم إلى قسمين : أحدهما فى تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية . والآخر فى تسديدهم نحو الصناعات والأعمال الحسية ، وإذا سددهم نحو السعادة الفكرية بدأ بهم من الغاية الأخيرة على طريق التحليل ، ووقف بهم عند القوى التى ذكرناها ، وإذا سددهم نحو السعادة العملية بدأ بهم من عند هذه القوى وانتهى بهم إلى تلك الغاية ، حتى يكون كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية آمنا على دمه وماله وعرضه ، ساعيا بقوتيه البدنية والفكرية فى نوال السعادة والخير الحقيقىّ ، مجدًّا فى طاعة الله ورسوله،وطاعة أولى الأمر المتجملين بصفات رسول الله ﷺ رحمة وكرما وعطفا واستقامة وتقوى وعلما وعملا . فيتمتع كل مسلم بالحرية التى لايخاف فيها إلا ذنبه ، ولايخشى فيها إلا ربه ، يبذل الفضل من ماله وجاهه وعلمه لإخوته المؤمنين اقتداء بالإمام الأعظم ، وتشبها بولاة الأمر ، فيكون وقت كل فرد بين شغل الصناعات المفيدة للمسلمين والزراعات المعينة لهم ، واختراع ما لابد منه من الآلات الحربية ومعدات النقل وفنون الطب المخففة لآلام المجاهدين ، وكشف أسرار الكائنات مما به راحة المجتمع الإسلامى ، لأن قلوب المسلمين صفت بالإمام الأعظم من السخائم وطهرت النفوس من الرذائل حتى حصل التآلف والتحابب والتعاطف والتراحم ، وشعر كل فرد بقدر الواجب عليه لإخوته المؤمنين . كل ذلك بعد القيام بما أوجبه الله تعالى والعمل بما سنه رسول الله ﷺ . و يكون هذا كله سعيا وراء سعادة الدنيا والآخرة ، وحفظا للدين وصيانة لجماعة المسلمين . كل

تلك النعم يفيضها الله على المؤمنين و يزيدهم من فضله عزة لهم فى قلوب أعدائهم ورهبة فى نفوس جيرانهم ، ويحصل المزيد بدخول الناس أفواجا أفواجا فى دين الله لما يرونه من الخير والسعادة والعزة لمن تمسك بدين الإسلام فتكون تلك الحالة كداع يدعو جميع الأديان الأخرى إلى دين الإسلام ، و يكون الفضل فى ذلك كله للإمام الأعظم الذى جاهد نفسه فى ذات الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا . ومثل هذا الإمام لايشك مسلم فى أن طاعته طاعة لله ورسوله ، ومعصيته معصية لله ورسوله ، والخروج عليه كفر ، وإخفاء النصيحة عنه ضلال .

لذة الإمام الأعظم :

لذة الإمام الأعظم تكون روحانية أكثر منها جسمانية ، فإنه يتلذذ بما يرى عليه المسلمين من العلم والعمل والصناعات والفنون والزراعات وما يراه لهم من الشرف والحرية والثروة والتمكين فى الأرض بالحق ، والتآلف وروابط الإخاء وحسن طاعتهم له ومسارعتهم فيما يرضيه ، وحبهم له وثنائهم عليه ودعائهم له بالقلوب والألسنة . و يتلذذ براحة ضميره وأمنه على نفسه فى كل حال وكل مكان ، لأن كل مسلم حريص على حياته يتمنى أن يفديه بنفسه وماله وأهله فيمشى فى الأسواق منفرداً ، ويجلس فى المسجد وحيدا ، و يسافر بلاخادم ولا زاد ولا حارس يحرسه ، لأنه يجد فى كل بلد وفى كل مكان أولاداً بررة وحفدة يعظمونه . و يتلذذ بتنفيذ أمره ورهبة أعدائه منه وتملقهم له وخوفهم من سطوته بما يفد عليه من وفودهم الحاملة لكتب الخنوع والذل وهدايا التودد . و يتلذذ بما يناله من نصرة جيوشه وسعة مملكته وإذلال خصومه ، وتوفير أموال بيت المال من الغنائم وعشور تجارات الأجانب ومحصولات المدن وخزن الأموال التى فى بيت كل مسلم المعدة لطلبه عند مقتضى ذلك عن سماح نفس ورغب فى رضوان الله الأكبر . و يتلذذ بما ينعم الله به عليه من القربات التى يقوم بها بإعلاء الكلمة وأمن الطرق ودفع المضار وإقامة الحدود ، وعمارة المساجد ومعاهد العلم وانتشار الفنون والصناعات والحرف ، وتعضيد القائمين بها حتى تكون الأمة بأجمعها كبيت واحد هو لهم كأب وهم له أبناء يسعى كل فرد فى خير المجتمع .

مثال الإمام الأعظم :

مثَّل العلماءُ الإمامَ الأعظم بالقلب فى الجسد فقالوا : كما أن العضو الرئيسى فى البدن هو أكمل أعضائه وأتمها فى نفسه وفيما يخصه وله من كل ما يشاركه فيه عضو آخر من الأعمال أفضلها . ودونه أيضا أعضاء أخرى رئيسة لما دونها ورياستها دون رياسة الأول وهى تحت رياسة الأول تَرْأس وتُرْأس . كذلك الإمام الأعظم هو أكمل أجزاء المسلمين فيما يخصه وله من كل ما شارك غيره أفضله ودونه قوم مرءوسون منه و يرأسون آخرين . وكما أن القلب يتكون أوّلا ثم يكون هو السبب فى أن يكون سائر أعضاء البدن والسبب فى أن تحصل لها قواها وأن تترتب مراتبها ، فإذا اختل منها عضو كان هو المرفد له ما يزيل عنه ذلك الاختلال ، كذلك الخليفة الأعظم ينبغي أن يكون هو أوّلا ثم يكون هو السبب فى أن يتمتع المجتمع بالعدل والمساواة وإقامة الشريعة والسبب فى أن تحصل الملكات الإرادية وأن تترتب مراتبها . وإن اختل منها جزء كان هو العامل على إزالة اختلاله . وكما أن الأعضاء التى تقرب من العضو الرئيس تقوم بالأفعال التى هى على حسب غرض الرئيس الأوّل مما هو شرف ، وما هو دونها من الأعضاء يقوم عاملا بما هو دون ذلك فى الشرف إلى أن ينتهى إلى الأعضاء التى تقوم بالأخس من الأعمال . كذلك الأجزاء التى تقرب فى الرياسة من الإمام الأعظم تقوم بأعمال إرادية هى أشرف لأنها منفذة لإرادة الرئيس مباشرة ، وهكذا كل عامل يبعد عن الإمام يقوم بأعمال إرادية هى أخس من أعمال من هم أقرب للإمام إلى أن تنتهى إلى عمال يقومون بأخس الأعمال وهم البعيدون عن الإمام كأهل المهن المحتقرة ، والمكتسبون بالأعمال المرذولة . وخسة الأفعال ربما كانت بخسة موضوعاتها . فإن كانت الأفعال لاغنى عنها مثل فعل المثانة وفعل الأمعاء السفلى فى البدن مع خسة موضوعاتها فإنها عظيمة . وربما كانت خسة الأعمال لقلة فائدتها أو لسهولتها كذلك فى المجتمع الإسلامى ، وكذلك كل جملة كانت أجزاؤها مؤتلفة منتظمة مرتبطة فإن لها رئيسا حاله من سائر الأجزاء هذه الحال .

الواجب للإمام على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم :

تقدم أن الواجب على الإمام أعظم واجب لعظم مسئوليته ، ولأن زلته زلة العالم بأجمعه وبخطئه يوقع المسلمين فى الخطأ . وقلّ أن يأتى الشر لجماعة المسلمين إلا من قِبَل إمامهم ؛ وذلك قد يكون للتساهل فى حدود الله وفى إقامة شعائره فيجرأ أهل النفوس اللقسة على ارتكاب المحرمات ، فهو المؤاخذ على خطأ نفسه وخطأ العامة سواء أحدثه فقلدوه فيه أو علمه وتهاون فى المؤاخذة عليه . وكما أن الواجب عليه عظيم ومسئوليته أعظم فقد أوجب الله سبحانه وتعالى وأوجب رسول الله ﷺ على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم للإمام واجبات ، وحذرنا من الإهمال فى القيام بها ، فإنه كما تحصل المضرة لجماعة المسلمين بإهمال الإمام فقد تكون المضرة أعظم بمخالفة أمره والتهاون بشأنه ، فإن ذلك ربما فرق كلمة الجماعة وأكثر الأحزاب فى المسلمين ومكن منهم عدوهم الشيطان الرجيم ، وأدخل بينهم الدسائس والمفاسد من أعدائهم الكافرين . والحوادث السابقة عبرة للمعتبر قال الله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ)(١) والذى عليه أكثر المفسرين أن أولى الأمر منا هو الإمام ونوابه ولاة الأمور . وإن كان بعض المفسرين أوّل ذلك بأهل العلم فقهاء القلوب وهذا لا يمنع ، فإنه تقدم لنا أن الإمام ونوابه يلزم أن يكونوا علماء فقهاء فتكون طاعتهم واجبة من جهة الفقه والعلم ولازمه من جهة الولاية . وقال الله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ)(٢) .

بين لنا الله سبحانه وتعالى أن أولياءنا هم العلماء ، لأن تلك الصفات التى ذكرها الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى : (ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ) الآية . تعيّن أنهم علماء فقهاء لأن إقامة الصلاة لا تتحقق إلا من العالم الراسخ . ومن تدبر قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ)(٣)

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) سورة المائدة آية ٥٤ ــ ٥٦

(٣) سورة الماعون آية ٤

علم معنى إقامة الصلاة . وقوله سبحانه : (وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ)(١) يظهر من هذه الآية حقيقة الزكاة الشاملة لتزكية النفس وزكاة المال كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ)(٢) أى لتزكية أنفسهم وتقييد تأدية الزكاة بالركوع يرجح هذا المعنى . وإنما يزكى نفسه من عرفها ومن عرف نفسه عرف ربه . فهؤلاء الأئمة جعل الله طاعتهم طاعة لجنابه العلىّ ولرسوله ﷺ ، ومخالفتهم مخالفة لله ولرسوله ﷺ وكفى بذلك إثما . فالواجب على كل مسلم أن يطيع الله ورسوله وولاة الأمر وأن تكون طاعته لولاة الأمر عن حب خالص لخير المسلمين جميعا وإخلاص فى النصيحة لهم ، و يتحقق أنه بطاعته لولاة الأمر، ونصيحته لهم كأنه أحسن إلى نفسه وإلى إخوته المؤمنين فى الدنيا ، وفاز برضاء الله سبحانه ورضاء رسوله ﷺ و بالنعيم الأبدى ، واقتدى بأئمة الخير، وجدد سنة رسول الله ﷺ ، وكان إماما لمن يأتى بعده لأن الأبناء يقلدون الآباء .

ولما كان القائمون بالأمر رجالا منا جماعة المسلمين لم تثبت عصمتهم ، ولكن لهم اجتهاد فيما لم يرد عنه نص صريح فى الشريعة ولانظائر له فى عمل أئمة الهدى ، بقدر وضوح الدلالة وطمأنينة القلوب والتحرى أن يكون أقرب إلى الحق ، والدلائل الشرعية إما إقرار أو شهادة أو قرائن دالة فما على كل مسلم قضى عليه وال من ولاة المسلمين بما هو برىء منه بعد اجتهاده فى الحكم إلا إن يتلقى ذلك راضيا بقضاء الله داعيا لمن حكم عليه أن يوفقه الله للصواب ، وإذا أداه اجتهاده إلى عمل ما يضر بصالح الأفراد أو الأمة فالأولى أن يتلقوا هذا الأمر بتسليم لقضاء الله وقدره ، و بدعاء للأمير أن يبين الله له الحق فى كل أعماله رحمة بالمسلمين واجتماعا لقلوبهم على إمامهم ، والاجتهاد من جماعة المسلمين فى نصيحة الأمير بطرقها المقبولة و وسائلها المؤدية للخير العام من غير تنفير ولا تفرقة ، حتى لو ظهر أن الأمير يقصد المضرة فعلى المسلم أن يحسن ظنه مفوضا أمره لله خشية من تفرقة الجماعة والتشنيع على الإمام ، لأن ذلك يؤدى إلى التحزب والخروج عليه فيكون المسلمون عاملين على إضعاف قوتهم وذهاب سلطانهم وتسليط عدوهم عليهم ، و بذلك تهمل أحكام الله وتتعدى حدوده سبحانه وتعالى . وكيف لا و بخروج بعض المسلمين على بعض هلاك للنفوس وضياع للأموال وخراب للعمران ومحو للصناعات النافعة والعلوم المفيدة ، و بذلك

---

(١) سورة المائدة آية ٥٥

(٢) سورة المؤمنون آية ٤

تتمكن الأعداء فيكون جماعة المسلمين أذلاء بعد العز . ومن تدبر هذا واستحضر قدر ما ينال الإسلام والمسلمين من عمله يجب أن يكون للمسلمين سلطان قوى ولو ضرب ظهره وأخذ ماله . ومعلوم أن فى عزة جماعة المسلمين وقوتهم ومنعتهم وقوة سلطانهم عز لكل فرد من أفراد المسلمين أين كانوا وكيف كانوا ، ووسعة لأرزاق كل فرد وإعلاء لكلمة الله ولسنة رسول الله ﷺ .

كل مسلم مطالب بسلامة جماعة المسلمين :

ولا لوم علىّ إذا قلت إن كل فرد من أفراد المسلمين مطالب بسلامة جماعة المسلمين وسلامة كل فرد منهم بقدر استطاعته ، ولقائل أن يقول : كيف يمكن كل فرد أن يقوم بهذا الواجب ؟ فأقول له : إن معظم النار من مستصغر الشرر ، فلو أن كل فرد حمل أحوال إخوته وأميره على الأجمل منها وسد أبواب الفتن من جهته ، وإذا علم بفتنة غاب عنها ولم يشهدها أو اجتهد فى إطفاء نارها ما أصاب جماعة المسلمين ما أصابهم . قال رسول الله ﷺ : (كلٌّ واحدٍ من المسلمين على ثغرٍ من ثغور الإسلام ، فإذا تهاون إخوانُك فاشدد ، لئلا يأتى العدوُّ من قِبَلِك)(١) وليس الأمر ببعيد فإن مثال الإمام الأعظم مع جماعة المسلمين كعائلة لها رئيس ، فإن كان الرئيس شفيقا مدبراً حكيما واقتدى به أفراد العائلة صفت حياتهم وارتفع شأنهم وتجدد مجدهم ، وإن كان الرئيس غير حكيم ولا مدبر أمكن أفراد العائلة أن يخففوا شروره و يدفعوا مضاره عنهم بحكمة وروية ونصح بدون مخالفة ولا تنفير، فإن خرجوا عليه ونفروه هدم المجد و بدد الأموال واستعان برياسته على إذلالهم ، ولم يمض زمن إلا و يصبحون جميعا أذلاء فقراء وقد تقدم مثل لذلك بالقلب والجسد . فعلى كل مسلم أن يتحقق أنه بغضبه وسعيه فى الانتقام ساع فى إهلاك نفسه وأهله ومحو مجده وعزه . وليست الحوادث التى تحدث بين العائلات ورئيسها التى بها تصبح الديار بلاقع والعز ذلا والغنى فقراً والهدى ضلالا بقليلة أمام المتأمل البصير.

فالواجب علينا جميعا أن نسعى بإخلاص وصدق فيما به عز جماعة المسلمين وسعادتهم وقوة سلطانهم ، معتقدين أن ذلك عز لكل فرد وشهرة لصناعاتنا وزراعاتنا و بلادنا وشرف لنا عند أعدائنا .

---

(١) وفى رواية أبى داود (كتاب الجهاد) والدارمى (سير) والموطأ (فى الجهاد) : « فإذا تهاون أخوك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك » .

وإنى أرى كثيرا منا قد منّ الله عليهم بمواهب العقول أو بالوسعة فى الرزق أو بالقوة فى الجسم لايهمهم همّ المسلمين بل حظ كل واحد منهم قاصر على نيل حظوظه وشهواته ، فتراه لايهتم بغير ذلك ولو أضيعت حدود الله وأهملت سننه سبحانه وتعالى وتُركت شعائره وضعفت جماعة المسلمين ، و يظن المغرور لجهله أنه متلذذ متنعم . وربما أعان على هدم السنة ومحو الفضائل الإسلامية ، ولايعلم أن ذلك هو عين الذل والفقر والهلاك الأكبر فى الدنيا والآخرة . قال رسول الله ﷺ : (من لايهمه همّ المسلمين فليس منهم) وقال ﷺ : (مَنْ سَنَّ سنة حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً)(١) وبمعناه : (مَنْ سَنَّ سنةً سيئةً) فإياك أيها الأخ البار وفقنى الله وإياك لما يُحب أن تجلب لنفسك خيرا قليلا فتفتح به على المسلمين شرا كثيرا ، أو تدفع عن نفسك شرا قليلا فتجلب به على المسلمين شرا كثيرا ، وكن ياأخى يقظا مشددا على حماية ثغرك الذى أنت عليه من الإسلام وإن أهمل جميع إخوانك ، حتى تكون قد قمت بالواجب عليك لله تعالى ولرسوله ﷺ ولإخوتك المؤمنين ولأ ولى الأمر منا .

صبر المظلوم خير من أن يكون سببا فى فساد المجتمع :

وتدبر أن رئيس عائلة لو أنه طمع فى مال فرد من العائلة وصبر المظلوم راضيا فإن هذا الرئيس قد تأخذه الشفقة عليه و يشفق عليه إخوانه فيعطفون عليه جميعا وتدوم الألفة والجماعة و يبقى للعائلة مجدها وعزها و يهابها جيرانها . ولكن إذا قام الفرد حنقا واستعان ببقية الأفراد على نصرته وأخذ حقه من الظالم ، و بث فيهم أن هذا الظالم سيعاملهم بتلك المعاملة وأنه لابدّ من بذل المجهود فى إذلاله وخذلانه ، فإما أن يتحدوا على ذلك فيكيدون لرئيسهم و يكيد لهم فما يمضى زمن إلا و يهلكون جميعا و يرجعون أذلاء ، وإما أن يكونوا ضعفاء فيستعينون بجيرانهم الذين ينتهزون تلك الفرصة ليضعفوا قوة العائلة و يستولوا على ثروتها ومجدها ، و يظهرون لهم المساعدة والرحمة ، و يقبحون عمل رئيسهم و يبغضونهم فيه ويمدونهم بالمال والجاه لإذلال الرئيس ، حتى تصبح العائلة كأنها لم تكن ، فهكذا جماعة المسلمين .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب العلم ، والزكاة ، والنسائى فى كتاب الزكاة ، وأحمد فى المسند ٣٥٧/٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ .

وأعلم ياأخى أيدك الله وإياى أن كثيرا من الناس يبذلون مواهبهم فى جلب الخير لأنفسهم بواسطة الأمراء والرؤساء ، و يعتقدون أن الخير لايصل إليهم إلا إذا تمكنوا من قلوب الرؤساء وصارت لهم الكلمة النافذة لديهم ، فإذا تمكنوا من أغراضهم سلطوا الأمراء على أعدائهم وعلى أهل الفضل ممن يخشون على أنفسهم من فضلهم ، وعلى من يحسدونه ممن يحبهم الأمراء ، فيفسدون أخلاق الأمراء ويملئون صدورهم وغرا على أهل النصيحة والرأى حتى يفسدوا بين الراعى والرعية ، فيبيت الأمير يكيد لأفاضل أمته وأفاضل أمته يحذرون منه ، وهؤلاء من أشرار الناس ، وهم الأمراض المفسدة للجسد الإسلامى فاحذر ياأخى أن تكون منهم ، وتحقق أنك إن عشت فقيراً تجوع يوما وتشبع يوماً خير لك من أن تكون سببا فى فساد المجتمع الإسلامى . وجاهد نفسك أيها الأخ خشية أن تغرك الدنيا فتبيع الفضيلة بالرذيلة ، والهداية بالضلالة ، والآخرة بالدنيا ، وتحقق صدق قوله ﷺ : (من أعان ظالما سلطه الله عليه) .

واعلم أيها الأخ البار أن كثيرا ممن لم يؤمنوا بيوم الحساب يستعينون على قضاء شهواتهم الدنيوية بالكذب و بإخوان السوء الذين يشهدون لهم بالزور ، حتى يضطر أعداؤهم أن يقابلوهم بالمثل ، فينتشر الزور والبهتان بين جماعة المسلمين وتتفرق الكلمة ، و يصبح المسلمون مشغولين بأذية بعضهم بعضا ، وأعداؤهم فى استعداد لهم وفى انتهاز فرصة غفلتهم .

هذا وإن كان ولىُّ الأمر واجبا عليه أن يكون يقظا متحريا من الوقوع فى شبكة الأشرار وصحبة الخبثاء ، ولكن أهل الجهالة والضلالة والخبث يجملون ظاهرهم بصفات الأتقياء البررة وهم ذئاب أشرار ، والوالى يحكم بالظاهر فلا لوم عليه إلا إذا كان شريرا مثلهم ، وإن كان الواجب عليه أن ينفر من الأشرار المتجملين ظاهرا عندما تظهر منهم بادرة الخيانة و يبعدهم عنه ، ولايكون ذلك إلا بتوفيق من الله وحسن معونة منه سبحانه وتعالى والله ولى المتقين . ومن فهم قوله سبحانه وتعالى : (قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ) إلى قوله تعالى : (وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ)(١) وقوله تعالى : (وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ) إلى قوله سبحانه وتعالى : (فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)(٢) وقوله تعالى : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ ــ ٢٨ .

(٢) سورة المائدة آية ٤٩ ــ ٥١ .

فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا)(١) وقوله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)(٢) من فهم تلك الآيات وكان يؤمن بيوم الحساب تصغر فى عينه الدنيا وتحتقر، ويفر من نعيمها الزائل وحظها الفانى، ويقبل بقلبه وقالبه على ما ينال به الخير العظيم فى الدنيا والآخرة. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا الفضل الذى به تأليف القلوب وإعلاء الكلمة وإحياء السنة وخير الدنيا والآخرة إنه مجيب الدعاء.

الإيمان بيوم الحساب :

من نوّر الله قلبه بالفقه ففقه أسرار تلك الآيات ونظائرها فى كتاب الله تعالى، علم كيف يتحفظ من التشبه بالشياطين ومن الاقتداء بأهل النفوس اللقسة، وجاهد نفسه حتى تزكو وعكف على الحق ولو كان مرا عليها.

ولو أن كل أخ من إخواننا المؤمنين فى كل البلاد تيقظ قلبه من نومة الغفلة ورقدة الجهالة واستحضر هول يوم الجزاء، وتحقق أن نعيم هذه الدار آلام وشقاء، وأن حلالها حساب وحرامها عقاب ولذتها آلام، كما قال تعالى : (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)(٣) وهذه الآية دالة على أن من أراد الدنيا بأن عكف عليها يعجل الله له فيها ما قدره له أزلا بدون أن يناله منها إلا ماسبق له فى علم الله بدون زيادة ولا نقص، وتكون إرادته لها دليلا على عدم إيمانه بيوم الحساب، وعدم الإيمان بيوم الحساب موجب لعمى القلب عن خوف مقام الرب والرغبة فيما عنده، فيئول ذلك إلى خسران الدين والدنيا والآخرة، ولذلك فقد حكم الله عليه بأن جعل له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. أما مذموما فلانكشاف النعم التى أنعم الله بها عليه من الإيجاد والإمداد والمنن التى منّ بها عليه من بعثة الرسل وورثتهم وإقامة الحجة على ذلك، والفضل العظيم الذى تفضل به عليه من تسخير ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه له، وكفرانه بكل تلك النعم ونسيانه للمنعم جل وعلا.

---

(١) سورة الإسراء آية ١٦.

(٢) سورة النساء آية ٦٥.

(٣) سورة الإسراء آية ١٨.

كل تلك النقم والبلايا لم تصبه إلا بنسيان يوم الحساب ، ولم يتمكن الشيطان الرجيم لعنة الله عليه من قلب المسلم حتى يجعله أتبع له من ظله إلا بنسيانه يوم الحساب . فكن ياأخى يقظ القلب . وعلى كل أخ من إخواننا منحهم الله روح القدس وودهم الله بكمال التصديق بيوم الحساب أن يجعل أكبر همه استحضار هول ذلك اليوم مستحضرا بقلبه مدلول قوله تعالى : (ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ)(١) وأن ينبه جميع إخواننا وفقهم الله إلى الاستعداد له ماداموا لم يبلغوا درجة الرهبة والرغبة بأن كانوا فى مقام القبض والبسط أو الخوف والرجاء ، حتى يقوم كل أخ من إخواننا بما أوجبه الله تعالى عليه وأوجبه رسوله ﷺ مما هو خير لكل فرد من أفراد المسلمين ، بل وخير لكل حىّ ، حتى يكون كل أخ ساعيا فى خير كل أخ ، وكل أخ لكل أخ كعضو متمم لجسد . وبذلك يتحقق قوله سبحانه وتعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)(٢) وكن ياأخى منحك الله العناية وإخواننا على يقين أن أشرار الخلق إذا شهدوا أهل الحق فى عزة انخذلوا أمامهم ، وتستروا عن المظاهرة بشرورهم ، وتكلفوا أن يتشبهوا ولو ظاهرا بأهل الخير. وقد يكون هذا التكليف بعد هذا طبيعة فيكون المجتمع الإسلامى كما قال الله تعالى : (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا)(٣) وبانخذال أهل الباطل وظهور أهل الحق تقل أوتنمحى المفاسد ، وتكون الهفوة كبيرة يتحاشاها أهل المفاسد أن تقع منهم . ولكن إذا ظهر أهل الضلال على أهل الحق تصير السنة بدعة ، والكبائر محاسن مألوفة ، والقربات خرافات ، والصلاح بلها وحماقة ، والفجور شرفا ورفعة ، و ينكر المعروف و يعرف المنكر نعوذ بالله من ظهور أهل الباطل على أهل الحق .

واعلم يا أخى أرشدنى الله وإياك للطريقة المستقيمة التى يكون إمامنا فيها سيدنا رسول الله ﷺ أن الأخ إذا صدّق بيوم الحساب سهل عليه الرجوع إلى الحق ، وهان عليه العمل به ، وخف على قلبه الاعتراف بجهله وحمقه ومخالفته ولو كان فى ذلك رجمه أو قطع يده أو ضياع شرفه وماله ومنزلته ، لأنه يبيع الفانى بالباقى والدنىء بالعلى ، و يتلذذ بذلك لذة من

---

(١) سورة الجاثية آية ٣٤ .

(٢) سورة المنافقون آية ٨ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٢٤ ــ ٢٥ .

نـال ووصـل وفاز واتصل ، فيكون أحيا فضيلة الصدق وجدد سنة الحق وصار إماما للمتقين بعده ، يقتدى به الصالحون و يأتم به المرشدون . وإذا لم يؤمن بيوم الحساب استصغر كبائره واستعظم صغائر غيره ، واغتر بنفسه حتى يعتقد أنه خير موجود يتجمل ظاهراً أمام الناس و يأتـى بأقبح القبائح فى خلوته ولا يخاف الرقيب الحسيب سر قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) (١).

وجوب طاعة الأمير:

تقدم ذكر الواجب للأمير على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم وذكر الآيات القرآنية المتضمنة ذلك . وأحب أن أورد ما ورد من الأحاديث الصحيحة فى هذا الموضوع ثم أردفها بما ورد من الأحاديث الحسنة لتنجلى الحقيقة واضحة للعمل بها :

قال رسول الله ﷺ : (من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعص الأمير فقد عصانى ، وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه و يُتَّقَى به ، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا ، وإن قال بغيره فإن عليه منه وزرا)(٢).

قال رسول الله ﷺ (إن أُمِّر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا)(٣). وقال ﷺ : (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة)(٤)

---

(١) سورة الحديد آية ٤ .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة فى كتاب الإمارة .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة ، والحج ، والترمذى فى الجهاد ، وابن ماجه فى الجهاد وأحمد فى المسند ٤/١٧٠ ، ٥/٥٨١ ، ٦/٤٠٤ ، ٤٠٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة ، والأذان ، والأحكام ومناقب الأنصار ، ومسلم فى كتاب الإمارة والحج ، والترمذى فى كتاب الفتن ، وابن ماجه فى الجهاد .

لاطاعة للأمير فى معصية الله :

هـذا الحكم الشرعى يجب أن تنكشف حقيقته وتظهر خفاياه ، وقبل أن نورد الأحاديث الصحيحة فى هذا الموضوع نبين ما يجب على المسلم إذا أمره الأمير بمعصية الله تعالى وبمخالفة سنة رسول الله ﷺ فيما يعتقد و يعلم . معلوم أن أحدا من الناس لايعتقد أنه أحاط بالسنة إلا إذا كان مدعيا ، والعلم كله فى جماعة المسلمين كلهم ، وقد تقدم أن الأمير يجب أن يكون أعلم الجماعة وأن يكون أهل خاصته علماء حكماء ، فقد يأمر الأمير واحدا من المسلمين بأمر من السنة عند الأمير ومن طاعة الله عنده وهو عند المأمور من معصية الله ومن مخالفة السنة ، وقد يأمره بما هو معصية ومخالفة قصدا فالواجب على المسلم فى هذا الحال أن يلاطف الأمير ملاطفة تجعله واثقا بإخلاصه له و يكتم أسراره ، وأنه يفديه بماله و ولده من مضار الدنيا والآخرة ، حتى إذا أنس الأمير به قال له : إنى على قدر علمى أعتقد أن هذا العمل معصية لله تعالى ومخالفة لسنة رسوله ﷺ ، وإنى أعيذ الأمير بالله من هذا فهل لذلك وجه شرعى ، فيبين له الأمير. كما إذا كان فى جهاد فأمر الأمير فرقة من جيشه بالهزيمة أمام العدوّ والهزيمة من أمام العدو من الكبائر إلا برخصة شرعية ، فعلى الأمير أن يبين له وجه ذلك . وكما لو أمره الأمير بقتل إنسان يعلم أنه تقىّ صالح وقد علم الأمير بعيونه أنه عين للعدو أو رأس للخوارج أو يسعى فى الأرض بالفساد ، وعلى المأمور أن يسأل الأمير وعلى الأمير إذا علم منه كتم السر أن يبين له ذلك أو يقيله . كما إذا أمر الأمير مسلما بالكذب فى وقت الجهاد وكان المسلم لايعلم أن الكذب فى وقت الجهاد قد يباح ، وعليه أن يسأل الأمير وعلى الأمير أن يبين له وجه ذلك . وقد ورد فى السنة أن رسول الله ﷺ أمر بقتل رجل فوجدوه يصلى ، وأمر بهدم مسجد الضرار على من فيه ، وأمر سيدنا أبابكر الصديق بقتل رجل سرق ، ورخص بعد فتح خيبر لرجل من المهاجرين أن يتكلم فيه ﷺ لخلاص ماله من مكة وكل ذلك من السنة .

والأمير خليفة رسول الله ﷺ إلا إذا أمر بمعصية لاتحتمل التأو يل بوجه من الوجوه فالواجب على المأمور أن لايطيعه ، وعليه عند ذلك أن لايبيح هذا السر لجماعة المسلمين خشية من تفرقة الكلمة ، ولكن عليه أن يظهر له الطاعة إذا كان فى حالة غضب وحدة ، ثم ينتهز فرصة زوال حدته و يذكره بأيام الله و بعاقبة معصية الله فيراجعه ولو بلغ ذلك أنه يأمر

بقتله، فيكون من خيار الشهداء لأنه قام بالواجب لله تعالى ولرسوله ﷺ ولولىّ الأمر، فإن أطاعه فى معصية الله أغضب الله تعالى وأغضب رسول الله ﷺ، وأعان الظالم وسعى فى زوال الإمارة عن الأمير، واستحق سخط الله تعالى وسلط الله الأمير عليه، وإن خالفه وخرج مشيعا تلك الفاحشة أمام المسلمين حتى أوجد فى المسلمين روح الخروج عليه ومحاربته كان كمن فتح باب شر على المسلمين، وليس من ضرب ظهرك وأخذ مالك أمرك بمعصية الله ولكن عصى الله فيك، فعليك أن تستر هذا ستراً لعورات المسلمين وحفظا لقلوبهم من التفرقة. وفى هذا الإجمال تفصيل لذى اللب. قال ﷺ: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة)(١) وقال ﷺ: (لاطاعة فى معصية، إنما الطاعة فى المعروف)(٢) وعن عبادة بن الصامت قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لاننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم)(٣). وفى رواية: (على أن لاننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا [أى مجاهرا به] عندكم من الله فيه برهان).

لاطاعة على المسلم للأمير إلا فيما استطاع:

عن ابن عمر رضى الله تبارك وتعالى عنهما قال: (كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: « فيما استطعتم »)(٤) يظهر من هذا الحديث الشريف تقرير أصل من أصول الدين، وهو أن شرط القيام بتأدية كل حكم من أحكام الشرع القدرة على

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام، ومسلم فى الإمارة، وأبو داود فى الجهاد، والترمذى فى الجهاد، والنسائى فى البيعة، وابن ماجه فى الجهاد، وأحمد فى المسند ١٧٠/٢.

(٢) أخرجه البخارى فى الآحاد، ومسلم فى الإمارة، وأبوداود فى الجهاد، والنسائى فى البيعة، وأحمد فى المسند ٩٤/١، ٤٠٩، ٤٢٦/٤، ٤٢٧، ٦٦/٥، ٦٧، ٧٠.

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة، والنسائى فى البيعة، وابن ماجه فى الجهاد، ومالك فى الجهاد، وأحمد فى المسند ٣١٤/٥، ٤٠٣/٦.

(٤) أخرجه البخارى فى الأحكام، والفتن، ومسلم فى الإمارة والنسائى فى البيعة، وابن ماجه فى الجهاد، ومالك فى البيعة، وأحمد فى المسند ٦٢/٢، ٨١، ١٢٠/٣، ٥١/٤، ٣١٤/٥.

عمله سر قوله سبحانه وتعالى : (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)(١) فلو أن الأمير أمر مسلما بما لاقدرة له عليه وخالف أمره يكون مطيعا لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ولكن يجب عليه أن لايجعل ذلك سببا لاشاعة الشر بين المسلمين على إمامهم .

مفارقة الجماعة مفارقة للدين والخروج على الإمام خروج من الدين :

قال رسول الله ﷺ : (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية)(٢) . وقال أبوهريرة رضى الله عنه : (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو لعصبية أو ينصرعصبية فقتل ، قتل قتلة جاهلية ،ومن خرج على أمتى بسيفه يضرب برّها وفاجرَها ، ولايتحاشى من مؤمنِها ، ولايفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه) .

الصبر على الإمام الظلوم خير من فتنة تدوم :

عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قال رسول الله ﷺ : (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم و يصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم و يبغضونكم ، وتلعنونهم و يلعنونكم ، قال : قلنا : يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، إلا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله فليكره مايأتى من معصية الله ، ولاينزعن يدا من طاعة الله)(٣) .

عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ (يكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون ، فمن أنكر فقد بَرىء ومن كره فقد سَلِم ، ولكن من رضى وتابع ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلُّوا.لا ، ما صلُّوا)(٤) يعنى من كره بقلبه وأنكر بلسانه . عن عبدالله بن عمر رضى الله

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٢) أخرجه النسائى فى كتاب التحريم . وورد هذا الحديث بروايات أخرى عند البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى ، وأحمد .

(٣) أخرجه مسلم فى كتابه الإمارة ، والترمذى فى كتاب التفسير ، والدارمى فى الرق .

(٤) أخرجه مسلم فى الإمارة ، وأبوداود فى السنة ، والترمذى فى الفتن وأحمد ٢٩٥/٦ . وعند الطبرانى عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخيار عمالكم وشرارهم ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : خيارهم خيارهم لكم ، من تحبونهم ويحبونكم وتدعون الله لهم و يدعون الله لكم ، وشرارهم شرارهم لكم من تبغضونهم و يبغضونكم وتدعون الله عليهم و يدعون الله عليكم . فقالوا : ألا نقاتلهم يارسول الله ؟ قال : لا .. دعوهم ماصاموا وصلوا » مجمع الزوائد ٢٢٤/٥ .

تبارك وتعالى عنهما قال : قال لنا رسول الله ﷺ : (إنكم سترون بعدى أثرة وأمورا تنكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم) (١) قال : وسأل سلمة بن يزيد الجعفى رسول الله ﷺ فقال : (يانبىَّ الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعوننا حقنا فما تأمرنا ؟ قال : (اسمعوا وأطيعوا فإن عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم) هذه الأحاديث الصحيحة وإن اختلفت ألفاظها فقد اتحدت مدلولاتها ، وإن كان فى كل حديث من أسرار الحكمة مالا تفى العبارة بها إلا أننا نأخذ منها حُكما شرعيا فى موضوعنا هذا وهو أن الواجب على كل فرد منا وعلى جماعتنا الصبر على جفوة الإمام وهفواته ، والابتهال إلى الله أن يصلح أحواله ومستقبله ، أو أن يريح المسلمين من شره من غير أن يُفتح باب من أبواب الشر عليهم ، ولم يكن ذلك كلهَ إلا خشية أن يقوم بعض أفراد المسلمين أو جماعتهم برد الإمام عن ظلمه بالقوة فيقابلهم بالمثل فيزول سلطان المسلمين ، و يتمكن منهم أعداؤهم .

وصبر المسلمين على جفوة الإمام وظلمه مع حفظ دينهم ودنياهم إجمالا ، ومع أن الإمام منهم ولو كان ظالما غاشما يؤدى إلى زوال الشر عن المسلمين ، إما بتوبة الإمام ورجوعه إلى الحق عندما يذكره الأتقياء أو بموته وتولية غيره فيتغير الحال بتغيره ، وإذا لم يصبروا عليه وخرجوا عليه فإنه يدافع عن نفسه بما لديه من القوة فتسل سيوف المسلمين على المسلمين ، وفى ذلك ما فيه من غضب رب العالمين ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، وتكون النتيجة التجاء أحدهما إلى عدو غشاش يعين أحدهما على الآخر حتى يتمكن من جماعة المسلمين فيمحو معالم الدين ، و يغير سنن المسلمين ، وربما قهرهم على الكفر بعد الإيمان بالقوة التى تجعلهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، أو يغير مدنيتهم المؤسسة على الكتاب والسنة وحضارتهم القائمة على الحق والعدل والمساواة كما بين فى سنن الأئمة الهادين ، بمدنية المدن الضالة الفاسقة وحضارة المدن الجاهلية الماحقة .

وليست الحوادث التى حدثت بين الإمام والأمة فأنتجت تلك النتائج الضارة و بدلت معالم الحق وأنواره بظلمات الباطل وأضراره والفضيلة الشرعية بالرذائل البهيمية الشيطانية بقليلة ، كل هذا الأمر العظيم نتج من أمر صغير هو عدم صبر المسلم على جفوة الأمير وعدم

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٣٨٤/١ ، ٣٨٧ ، ٤٣٣ والبخارى فى المناقب ، والفتن ، ومسلم فى الإمارة ، والترمذى فى كتاب الفتن .

تواضع الإمام وإعطائه الحق من نفسه لرعيته ، ولكن ترك الصبر من المسلم وإعجاب الإمام برأيه واتباعه هواه وإطاعته الشح صيرت الملك صعلوكا مملوكا ، والرعية العزيزة بإمامها همجا رعاعا ، ولذلك فقد حذرنا رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة من عدم الصبر على الإمام ، ونهانا عن الخروج عليه ، وأمرنا بالدعاء له ليدوم سلطان المسلمين وتبقى كلمة الله هي العليا : فانظر ياأخي بعين البصير الناقد في هذا الأمر الخطير، وإياك أن تدفعك العزة بالإثم فتستعظم الجفوة من الإمام أو الأذية منه في نفسك أو مالك أو ولدك ، فينفخ فيك شيطان الغرور فتسعى في تمزيق جماعة المسلمين وإضعاف سلطانهم ، وتسعى في الاستنصار بغير المسلمين والاستعانة بغير المؤمنين ، أو تجعل لك عصبة ممن لاخلاق لهم أهل المطامع في الدنيا والشوق إلى الرياسات ، وتقوم فتخرج على الإمام . وقد علمت ياأخي أن الخوارج كلاب النار، فالواجب علينا جماعة المسلمين أن نتمسك بقول رسول الله ﷺ ، وأن نصبر على جفوة الأمراء ، حتى إذا صبرنا ودعونا الله تعالى نظر الله إلينا فولى الأمور خيارنا ، قال الله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنفُسِهِمْ)(١) وقال ﷺ : (كما تكونوا يُوَلَّ عليكم) . وفي هذه الأحاديث المتقدمة من غوامض الحكمة مالا يسعه هذا المختصر إذ ليست من مقاصده ، وستأتي الإشارة إليها في كتاب آخر إن شاء الله تعالى ، والله سبحانه أسأل أن يجعلنا جميعا من أهل الخير والفلاح ، وأن يجدد بنا السنة و يعلي بنا الكلمة إنه مجيب الدعاء .

الخروج من طاعة السلطان خروج عن المحجة ورفض البيعة رفض للإيمان :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لاحجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيّ ، وأنه لانبيّ بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : فُوا بيْعَةَ الأوّل فالأوّل ، أعطوهم حقهم فإن الله تعالى سائلهم عما استرعاهم)(٣).

(١) سورة الرعد آية ١١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، ومسلم في الإمارة وابن ماجه في الجهاد ، وأحمد في المسند ٢٩٧/٢ .

هذان الحديثان الصحيحان يعيّنان على كل مسلم أن لايخرج عن بيعة الإمام وأن لايعيش نَفَساً بدون بيعة الإمام ، فإن الخروج عن طاعة الإمام ورفض البيعة مخالفة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ ، وفتح لأ بواب الشرور على المسلمين ، وإيقاد لنيران العداوة والبغضاء ، ومحاربة لله ولرسوله . وليس من مسلم يؤمن بالله ورسوله و يؤمن بيوم الحساب يسعى فى مضرة فرد واحد من أفراد المسلمين لينفع نفسه ، فكيف يسعى فى محو الإسلام والمسلمين ؟ أسأل الله تعالى أن يحفظنا من التفرقة ومن الخروج من الطاعة والخروج على الجماعة . وفى الحديث الحسن قال رسول الله ﷺ : (آمركم بخمس : بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)(١) وقال ﷺ : (من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله)(٢).

الإمام لايكون إلا واحدا شرعا :

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) . وقال ﷺ : (إنه سيكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)(٣) . وقال ﷺ : (من أتاكم وأمْرُكُم جميعٌ على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم و يفرق جماعتكم فاقتلوه) وقال عليه الصلاة والسلام : (من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)(٤).

---

(١) عند النسائى وكتاب التحريم بلفظ : «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ... الحديث» وله روايات أخرى بلفظ : «من فارق الجماعة شبرا مات ميتة الجاهلية» البخارى فى كتاب الفتن ، والأحكام ، ومسلم فى الإمارة وأبوداود فى السنة ، والترمذى فى الأدب ، والدارمى فى السير، وأحمد فى المسند ١/٢٧٥ ، ٤/١٣٠ ، ٥/١٨٠ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ، وأحمد ٥/٤٢ ، ٤٩ .

(٣) وعند أحمد بلفظ : (فمن رأيتموه يفرق بين أمة محمد ﷺ وهم جميع فاقتلوه» المسند ٤/٣٤١ .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة ، وأبوداود فى الفتن ، والنسائى فى البيعة ، وابن ماجه فى الفتن وأحمد فى المسند ٢/١٦١ ، ١٩١ .

هذه الأحاديث الصحيحة تبين لنا ما يجب العمل به فيما إذا ظهر من ينازع فى الخلافة أو يدعيها لنفسه بعد تنصيب الإمام واجتماع كلمة المسلمين عليه ، وتعين علينا جماعة المسلمين أن نقتل الآخر إذا توفرت تلك الشروط ، ومنه يظهر أن من أعان الخارج كان مثله يجب قتله حدًّا . وأما من خرج ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله أو معينا لعدو كافر ليوليه الإمارة أو لعصبية وانتقام قتل كفرا . ولايعلم قدر المفاسد والمضار التى تحصل لجماعة المسلمين بالإهمال فى قتله إلا الله سبحانه وتعالى . فالواجب علينا جميعا أن تنفذ أحكام الله ورسوله بكل شدة ، ولا تأخذنا رأفة فى دين الله على الفاسقين الخوارج ، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يودنا بوده الذى وَدَّ به أهل محبته .

إنما يُوَقَّرُ مَنْ أُكْرِهَ عليها لا من طلبها :

لو أن جماعة المسلمين سلكوا مسلك الأئمة الهداة فى اختيار الإمام كما فعل سيدنا ومولانا أبو بكر الصديق إذ اختار سيدنا ومولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، و بين لهم بالدلائل البرهانية وجه اختياره له حتى اطمأنت القلوب ، وكما جعلها عمر بن الخطاب لعدد من الصحابة شورى بينهم وجعل ابنه من أهل الشورى وليست له الإمامة ، وكما أجمع أهل الشورى على إمامة سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو كاره لها ، لدام الأمر على ما كان عليه ، ولانتشر الإسلام حتى دخل فيه جميع سكان الأرض . ولكن الإمامة صارت حظا فى النفوس يختص به الرجل ولده أو أخاه ، و يقهر جماعة المسلمين على البيعة له ، فيكون القائم بالأمر معتقداً أن المسلمين لم يرضوا له إلا بالقهر فيتحرز منهم ويخشى على نفسه من غدرهم و يشغل وقته بالكيد لهم ، حتى يتمكن منه عدوه على غرة منه . وقد سرى هذا البلاء حتى أصبحت وظائف القضاء وحماية الثغور وقيادة الجيوش وإمارة الخراج تطلب ببذل المال والجاه والعرض والدين ، فيتعلم الولد من صغره ليكون قاضيا فى كبره ، و يشب ومعه تلك الغاية فيسعى لنوالها من الأمير برمى القائم بها أو بالتشنيع عليه أو بالكذب عليه ، أو بدعوى أنه عدو للأمير، حتى يتولى هذا المنصب جاهلا بقدر تبعاته ، ويحكم فى دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بحظه ، فما يتلذذ بالرياسة إلا ريثما يسلط الله عليه آخر ينتقم الله به منه ، و ينتقم الله من الظالم بالظالم وهذا عقابه العاجل له فى الدنيا وفى الآخرة عذاب شديد . فالواجب على إمام المسلمين وعلى جماعتهم أن لايولوا ولاية قضاء أو جباية أو

حماية ثغور أو إمارة جيوش إلامَن كان أهلاً ومحلا ، وأكره عليها وفرّ منها خوفا من الله تعالى أن لايحسن القيام بها ، كما حصل ذلك لأئمة السلف الصالح ، فكم ضُرِبَ عالم وكم عُذِّبَ تقيّ ليتولى وفر منها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة)(١) وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال ﷺ : (ياأبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها)(٢) وقال ﷺ : (ياأباذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تُؤَمَّرَنَّ على اثنين ولا تُوَلَّيَنَّ مال يتيم) .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : دخلت على النبى ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقالا : أمِّرْنَا على بعض ماولاّك الله ، فقال : (إنَّا واللهِ لانولى على هذا العمل أحدًا سأله ولاأحداً حرص عليه)(٣) وقال ﷺ : (لانستعمل على عملنا من أراده)(٤) وقال ﷺ : (تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه)(٥) . وقال ﷺ : (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)(٦) وقال ﷺ : (ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلاحَرَّمَ الله عليه الجنة)(٧) . وقال ﷺ : (ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام ، والنسائى فى البيعة ، والقضاء ، وأحمد فى المسند ٤٤٨/٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة ، وأحمد ١٧٣/٥ ، ٢٦٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام ومسلم فى الإمارة .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الإمارة ، والردة ، ومسلم فى الإمارة ، وأبوداود فى الأقضية والحدود ، وأحمد فى المسند ٤٠٩/٤ .

(٥) أخرجه البخارى فى المناقب ، وأحمد فى المسند ٤١٨/٢ مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب الجمعة والجنائز والقراض والوصايا والعتق والنكاح ومسلم فى كتاب الإمارة ، وأبوداود فى الإمارة ، والترمذى فى الجهاد ، وأحمد فى المسند ٥/٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١١١ .

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام ، ومسلم فى الإيمان والإمارة .

بنصيحة لم يجد رائحة الجنة)(١). وقال ﷺ : (إن شر الرعاة الحطمة)(٢). وقال ﷺ : **(اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به) (٣)**

سعادة الإمام المقسط :

معلوم أن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء فلا نبىّ بعده يسوس الناس ، ولكن الله تعالى منّ على جماعة المسلمين بأن أبقى فيهم أسرار النبوة وورّثهم أنوارها ، وأقام لرسول الله ﷺ أبدالا يقومون بحجة الله ويجددون سنة رسول الله ﷺ منهم الإمام الأعظم ، فإذا كملت معانيه وصحت مبانيه كان هو الصورة المحمدية الكاملة والخليفة الحقيقى لرسول الله ﷺ ، وخليفة ربنا سبحانه وتعالى فى أرضه ، وهى أشرف المقامات بعد الرسالة وأجل المنازل بعد النبوة ؛ بها طهارة النفس وتزكيتها والمنافسة فى نوال القرب من حضرة القدس ، والحظوة لدى رسول الله ﷺ ، حتى قد يبلغ درجة من الكمالات النفسية إلى أن تكون مخالفة أمره من أكبر الكبائر لأنه قام مقام رسول الله ﷺ ، و يكون اجتهاده حقا واستنباطه حقا وعمله سنة يقتدى بها ، فلا يعلم إلا الله ما أخفى له من قرة أعين وما أعده الله له من عظيم الفضل وجزيل الثواب . قال رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح : (إن المقسطين عند الله على منابرَ من نور عن يمين الرحمٰن ـــ وكلتا يديه يمين ـــ الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا)(٤).

تحرز الإمام من بطانة السوء :

اعلم ياأخى منحنى الله وإياك الإخلاص لذاته والصدق فى معاملته سبحانه ، أن الخليفة لادنيا إلا عنده ولادين إلا به ، والناس قسمان : طالب دنيا وطالب دين . وأشد

---

(١) أخرجه البخارى فى الأحكام ، ومسلم فى الإيمان والإمارة ، والدارمى فى الرق ، وأحمد فى المسند ٢/١٥ ، ٥/٢٥ ، ٢٧ .
(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة ، وأحمد فى المسند ٥/٦٤ .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ٦/٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٤) أخرجه مسلم فى الإمارة ، والنسائى فى آداب القضاة وأحمد فى المسند ٢/١٦٠ .

الناس طمعا فى الدنيا لا يطلبها إلا عند الإمام، وأشد الناس حرصا على الدين لايطلبه إلا بالإمام. ولذلك ترى أشد الناس حرصاً على الدنيا يبذلون النفس والنفيس فى التقرب منه، وأحرص الناس على الدين يهتمون بشأنه للنصيحة وتجديد السنة وإعلاء الكلمة به. ومعلوم أن أهل الدنيا يتجملون للسلطان بما يحب إن بالدين وإن بالدنيا فيخفى عليه أهل الحق، فربما ظن الخير فى أهل الشر فأفسدوا عليه ملكه وفتحوا عليه أبواب الفتن والشرور، وربما ظن الشر فى أهل الخير فأبعد عن نفسه الخير، وكل ذلك من عدم رويته فى الأمور وبحثه عن خفايا كل أمر، وجهله بمقاصد أهل الشرور الذين يسمعونه ما يحب، ويعينونه على ما يهوى، ويظهرون له الحب فى ذاته والسعى فى تقوية سلطانه فيغتر بهم وينفر من أهل النصيحة المخلصين، فيكون عاقبة ذلك فساد الراعى والرعية وتفرقة الجماعة. وأما إذا كان السلطان حذراً يقظاً أبعد أهل المطامع الأشرار وقرب الحكماء الأخيار واقتدى بهم، فصلح الراعى والرعية وكان الله مع الجميع وأغدق نعمه وفضله، قال رسول الله ﷺ: (مابَعَثَ الله من نبىّ ولااستخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضُّه عليه، والمعصوم مَنْ عَصَمَهُ الله).

هول يوم القيامة على السلطان المخالف:

قال ﷺ: (ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا حتى يفك عنه العدل أو يوبقه الجور). وقال ﷺ: (ويل للأمراء، ويل للعرفاء، ويل للأمناء، لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ يومَ القيامة أن نواصيهم معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا)(١). وقال ﷺ: (إن العرافة حق ولابد للناس من عرفاء، ولكن العرفاء فى النار)(٢). وقال ﷺ لكعب بن عذرة: (أعيذك بالله من إمارة السفهاء، قال: وما ذاك يارسول الله؟ قال: أمراء سيكونون من بعدى من دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليسوا منى ولست منهم ولم يَرِدُوا علىّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم، وأولئك يَرِدُونَ علىّ الحوض). إذا كان المصدق لهم بكذبهم المعين لهم ليس من رسول الله ولا يرد عليه الحوض

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٣٥٢/٢.
(٢) أخرجه أبوداود فى كتاب الإمارة.

فكيف بنفس الأمراء . أعوذ بالله من إمارة تبعد عن الله ورسوله ﷺ . عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ ضرب على منكبيه ثم قال : (أفلحت يامقدام إن مت ولم تكن أميرا ولا كاتبا ولاعريفا)(١) عن عقبة بن عامر قال : قال النبى ﷺ : (إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا ــ و يروى وأبعدهم منه مجلسا ــ إمام جائر)(٢) .

آداب عمومية للراعى والرعية وردت فى أحاديث حِسَانٍ :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن ــ و يروى ومن لزم السلطان افتتن ــ وما ازداد عبد من السلطان دُنُوًّا إلا ازداد من الله بعدا)(٣) . وعن عقبة بن عامر قال : قال النبى ﷺ : (لايدخل الجنة صاحب مَكْس)(٤) . يعنى الذى يعشر الناس . وقال ﷺ : (أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر)(٥) . وعن أبى إمامه الباهلى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم)(٦) . وعن معاو ية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنك إذا اتبعت عورات الناس أفسدتهم)(٧) . عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كيف أنتم وأئمة من بعدى يستأثرون بهذا الفىء ؟ قلت : أما والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى ثم أضرب به حتى ألقاك ، قال ﷺ : أوَلا أدلك على خير من ذلك ؟ تصبر حتى تلقانى)(٨) .

---

(١) أخرجه أبوداود فى الإمارة ، وأحمد فى المسند ١٣٣/٤ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب البر ، وأحمد فى المسند ١٨٥/٢ ، ٢٣/٣ .

(٣) أخرجه أبوداود فى كتاب الأضاحى ، والترمذى فى الفتن ، والنسائى فى السير ، وأحمد فى المسند ٣٥٧/١ .

(٤) أخرجه أبوداود فى كتاب الإمارة ، والدارمى فى الزكاة ، وأحمد فى المسند ١٤٣/٤ ، ١٥٠ .

(٥) أخرجه أبوداود فى كتاب الملاحم والترمذى فى كتاب الفتن ، وابن ماجه فى الفتن ، وأحمد فى المسند ١٩/٣ .

(٦) أخرجه أبوداود فى كتاب الأدب .

(٧) أخرجه أبوداود فى كتاب الأدب .

(٨) أخرجه أبوداود فى السنة ، وأحمد فى المسند ١٨٠/٥ .

الفصل الثالث
الواجبات العامة

أولا : واجبات العلماء

أيها العلماء الحكماء الأتقياء أنتم ورثة رسول الله ﷺ ، وسرج الدنيا ومصابيح الآخرة ، يأمن الناس يوم القيامة وتخافون لأنكم مسئولون ، و يفزع الناس فى الدنيا وأنتم حصون الأمن لأنكم النور المبين للهدى الماحى للضلال . الملوك ملوك على الناس وأنتم ملوك عليهم إليكم يرجعون و بكم يقتدون وبمشوراتكم يعملون ، فعظموا العلم بالزهد فى الدنيا وتحقيرها والرغبة فى الآخرة والعمل لها ، ولا تتشوفوا إلى السيادة الفانية والرياسة المفسدة وارضوا بالقليل من الدنيا لتتمكنوا من عمل الخير العام للمسلمين . فإنكم إذا عظمتم الله ورسوله وعظمتم شعائر الله سبحانه ، وأقبلتم بكليتكم على الحق محقرين لزهرة الدنيا و بهجتها ، جملكم الله بحلل العزة والجلال والهيبة والوقار ، فخضعت لكم الأمراء وأطاعتكم الرعية ، فكنتم حجة الله على عباده ، بكم تعلو كلمته وتجدد سننه . وإذا غرتكم الدنيا وقادكم الحظ والهوى هوى بكم إلى هوة الذل ، فخلت الأرض من قائم لله بحجة ، وعملتم بالرأى والهوى فضللتم وأضللتم وهلكتم وأهلكتم وكان إثم ذلك عليكم . فاحفظوا الله يحفظكم احفظوا الله تجدوه أمامكم . كونوا مع الله تروا الله معكم .

واقتدوا بإخوانكم العلماء الذين سبقوكم بالإيمان فإنهم كتبوا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعظونه ويحذرونه ، وكان من تعلمون مكانته من الله ورسوله ﷺ فمدحهم وأثنى عليهم . وهكذا كان العالم من أمة محمد ﷺ فى السلف ينطق بالحق أمام الخليفة لايخشى فى الله لومة لائم ، فكان سيدنا عمر بن الخطاب يعارض سيدنا أبابكر . وكان المسلم يقف أمام عمر رضى الله عنه و يقول له : لو انحرفت عن السنة لقطعنا رأسك . وكانت العالمة من النساء تدخل على سيدنا معاو ية فتتكلم معه حتى تبكيه . وكتب محمد بن سهل لأمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما يعظه مشددا . ووقف ابن جريج أمام أبى جعفر المنصور فذمه وشنع عليه ورماه بالظلم والجور ، وفضيل بن عياض رضى الله عنه كلم أمير المؤمنين هارون حتى أبكاه . وكان العلماء فى كل عصر أمراء على الملوك يسعى الملك إليهم صاغرا . حتى صار العلم آلة لجمع الدنيا ووسيلة للسيادة وسلّما للرياسة ، وكيف لاوكان

السلف رضوان الله عنهم يضربون على الولاية و يفرون منها ، و يرضى العالم أن يكون خوّاصا أو خرّازا لِيُجْهَلَ عند الأمراء خوفا على نفسه من الفتنة ، وأصبحنا وطالب العلم يفتتح طلبه بنية أن يكون قاضيا أو واليا أو قائدا ، ولذلك دُرست آثار السنة وخفيت طريق الهداية ، كل ذلك لإهمال العلماء فى واجباتهم وتهاونهم فى القيام بما فرض عليهم .

وقد كاد النور أن يطفأ لولا بقية ثقة بالله ، وأمل فى البقية الباقية من صالح عباد الله تعالى .

فياأيها العلماء لورضيتم بالفقر فى الدنيا لِتُحْيُوا سنن الله تعالى أغناكم الله فى الدنيا والآخرة ، ولو زهدتم فى الدنيا لتجددوا سنن رسول الله ﷺ أقبلت عليكم الدنيا صاغرة ، فقوموا بواجبكم وارفعوا أصواتكم بالنصيحة لخاصة المسلمين وعامتهم ولأ ولى الأمر منكم ، وإن منعوكم ذلك فاكتبوا لهم معتصمين بالله ، معتقدين أن رضاء الله خير من الدنيا وما فيها ، فإن فى ذلك عز للمسلمين وقوة لسلطانهم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة ، واحذروا قوله تعالى : (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)(١) وتجملوا بحقيقة قوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟)(٢) واعلموا أن جهادكم أكبر من جهاد الجيوش الفاتحة ، وما يستفيده المسلمون منكم خير من غنائم الأكاسرة والقياصرة ، والله يوفقنا لما يحبه و يرضاه من العلم والعمل آمين .

ثانيا : واجبات التجار

أيها التجار أنتم أمناء الله فى أرضه ، والجالبون الخير لعباده ، وكنوز المسلمين عند الحاجة ، وحصونهم عند الداعى ، تجلبون لهم النافع من الميرة والذخيرة وضروريات الحياة وكمالياتها مما أباحه الله سبحانه ، وتصدّرون ما زاد عنهم إلى البلاد الأخرى لتنمية أموالهم ، وأنتم رواد الإسلام وناشروا أنواره بين الأمم الذين لم يهدهم الله لدينه . بكم تنتشر فضائل الإسلام وتحمى ثغوره ، وتعلم كمالاته بما جملكم الله به من الصدق والأمانة

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٣ .

(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .

والوفاء ، وما منحكم الله من الحب لدينه والرغبة فى تذكير الخلق لفضائله . و بكم يعلم أمراء المسلمين أسرار داخلية الأمم الأخرى وعوائدهم وأخلاقهم والوجوه التى يؤلفهم بها الأمير أو يفاجئهم . فإذا شغلكم حظ العاجلة عما أوجبه الله عليكم من الحقوق أبدلتم الوفاء بالغدر ، والأمانة بالخيانة ، والصدق بالكذب ، والنصيحة بالغش ، والاشتغال بنشر فضائل الدين بحب غير المسلمين ومدحهم ، فيسلب الله البركة من أيدى من يتصفون بتلك الصفات و يذهب الصناعة من بلادهم ، ويجعل ذلك فى أيدى أعدائهم تعجيلا للعقوبة منهم فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . فاسترجعوا أيها التجار مجدكم القديم ، وعاهدوا الله ورسوله ﷺ أن تقوموا بالواجب عليكم لإخوانكم المسلمين ، وتجعلوا التجارة تجارة رابحة لن تبور تنالون بها سعادة الدنيا والآخرة ، ولايكون ذلك إلا بالإخلاص لله ورسوله ﷺ والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم والعمل لتقوية سلطان المسلمين ، والله سبحانه يجملنا بواسع فضله ويمنحنا الهداية إلى الصراط المستقيم .

ثالثا : واجبات الصناع

أنتم الأيدى العاملة لخير المسلمين . أبدانكم متعبة لسعادتهم ، وأفكاركم مشغولة لراحتهم ينامون وأنتم تسهرون ، و يستريحون وأنتم تتعبون ، و يفرحون بالرياسات والفتوحات والغنائم وأنتم فى أعمالكم دائبون ، ولو تفكر السلطان على سريره والأمير على منصته والوالى على رعيته والتاجر فى بهجته والمزارع فى روضته والمسافر فى البر والبحر فى راحته ، والعالم بين كتابه ومحبرته ، والمثرى فى شاهق قصره ، لتحقق أن تلك النعمة أنعم الله بها على الكل على يدك أيها الصانع المسكين تتعب فكرك لتخترع مابه راحة أمتك وإعلاء كلمة ربك وإحياء سنة نبيك ونمو ثروة إخوانك ، وتتعب يديك و بدنك لتقيهم ضرر الحر والبرد ، فأنت ولاشك نعمة الله على المسلمين لخير الدنيا والآخرة . أَحَلُّ الرزقِ رِزْقُكَ وأطيب الطعام طعامك ، سيأتى عليك يوم يخاف الناس وأنت آمن ، ويحزن الناس وأنت فرح ، و يعذب الناس وأنت متنعم ، ولايكون ذلك إلا إذا أسهرت طرفك فيما نَفْعُهُ عامٌّ وخيرُه عامٌّ للدين والدنيا مما به قوة السلطان وضعف الأعداء وثروة الإخوان وراحة الأ بدان . فاعملْ فعملُك لله ، واجتهد ولا تهمل فى عملك فإن إهمالك فى عملك وتهاونك بإتقانه يذهب عزة المسلمين ويمكن منهم أعداءهم ، ويجعل إخوانك المسلمين يرغبون فى صنائع أعدائهم فيحبونهم و يقلدونهم

و يرغبون فيهم ، فيكون ذلك ضياعا لسلطان المسلمين ولأموالهم وفسادا فى الدين . فأتقن عملك وانصح ، واجتهد أن ترغب إخوانك فى صنائع بلادهم بما تخترعه وما تتقنه والله وليى ووليُّك وهو حسبى ونعم الوكيل . وكما أقامك الله عاملا بما به حفظ ثغور المسلمين وطيب حياتهم ، فاجعل لك أيها الصانع وقتا تشكر فيه ربك على ما منّ عليك به من الأعمال النافعة لجميع إخوانك المسلمين ، وتجالس فيه أهل العلم والتقوى لتنال سعادة الدنيا والآخرة . ولكنك ياأخى إذا كنت بياض نهارك بين الصناع ، وفى وقت فضائك فى مجتمعات اللهو والغفلة أو مع زوجتك وأولادك ، ولم تجالس العلماء وأهل التقوى الذين تتعلم منهم الإخلاص فى العمل وحسن النية فى أعمال الدنيا لله رب العالمين ، حتى تكون صناعاتك التى تعملها للدنيا نافعة لك يوم القيامة فتفوز بسعادة الدنيا والآخرة جميعا ، كانت تلك المنافع العامة التى تقدمها لجماعة المسلمين لاأجر لها يوم القيامة . لأن ثواب يوم القيامة إنما يكون لعمل قصد به وجه الله تعالى ، ولايقصد العامل وجه الله تعالى إلا إذا كان عالما ، والله سبحانه وتعالى يمنح الصناع الرغبة فى العلم النافع .

رابعا : واجبات المزارعين

أيها الفلاح أنت الذى يخرج الله على يدك خبايا الأرض وخفى كنوزها مما به غذاء الأبدان الحية وما به الأثاث والزينة والرياش . أقامك الله مقام العامل لنفع الكائنات الحية من أنواع النباتات والحيوانات ، ولولاك أيها المسكين لجاعت الأبدان وفترت الأفكار . فما من زينة ظهرت ولا آلة اخترعت ولا أمن استتب ولا معارف ولا علوم نشرت ولافنون شهرت ولا مساجد شيدت لعبادة الله ولا لذة فرح بها إلا بعد الراحة من الجوع والعرى ، ولاراحة منهما إلا بعملك الذى أقامك الله فيه وأمدك بالقوة المعينة لك عليه ، فأنت مصدر كل خير وراحة وهناءة لجماعة المسلمين ، إذا قمت بواجبك حق قيامك توفرت العدة والعدد وتجددت سنن رسول الله ﷺ ، وعمرت مساجد الله سبحانه وتعالى وكثر شاكروه وذاكروه سبحانه . أقامك الله فى عمل يشهد فيه العامل آثار قدرة القادر وآيات حكمة الحكيم ، تقوم ياأخى فتشق الأرض فيصب الله الماء صبا إما من السماء أو من الأنهار أو من العيون ، ثم تتوجه إلى بيتك وقد وضعت حبة من الجماد ميتة فى أرض ميتة ولاقدرة لك على غير ذلك ، فتصبح ياأخى فترى الأرض قد اهتزت وربت واكتست بحلة

سندسية ونما نباتها وأزهر، تشهد ذلك صباح مساء، وتشاهد من غرائب صنع ربك سبحانه وآثار رحمته مالا يشهده غيرك من بنى الإنسان. ثم تدعى ياأخى أنك زرعت وتعبت وعملت وعملت، ثم تبخل بحقوق الله وتدعى أن ذلك ملكك جهلا منك بالواجب عليك لربك المنعم، ونسيانا بوصايا نبيك ﷺ الرءوف الرحيم عليك. ينتج من ذلك ماتراه بعينك، ترى الحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة فكأن ربك فى الواحدة بسبعمائة، ولكن البركة نزعت من العمل فكأنك أيها الفلاح مع شهودك تلك البركات والخيرات لم تعمل شيئاً، وذلك لأنك تسهر الليل والنهار فى العمل الشاق ولا تعود لأهلك إلا بالخشن من اللباس والردىء من الطعام.

لِمَ ذلك أيها الفلاح وأنت تَفتَح كنوز الأرض وتستخرج خباياها؟ أنبهك إلى سبب ذلك لعلك تتنبه فتعود لك البركة وتفاض عليك الخيرات: ذلك لأنك تشهد آثار قدرة ربك وبديع صنعه وغريب آياته لتتذكر فتذكر وتشكر، فتنسى وتغفل وتجعل العمل إمالك أو للحاكم الذى أعانك بالماء أو بالجسور. تنبه ياأخى: هل الحاكم أجرى لك الأنهار وأنزل لك الأمطار وأوجد لك الأرض خصبة سهلة؟ تضيع الوقت فى شكر الحاكم وذكره، فاحذر ياأخى أن ينتج نسيانك ربك إمساك السماء ماءها والأرض نباتها، وتنتشر جنود ربك فى المزروعات فتفسدها وفى الأنهار فتغيرها، فإن الله غيور أن يهب نعمته لعبد يشكر غيره أو يمن على عبد يذكر غيره. أيها الفلاح تضر زراعة جارك لتنفع زراعتك، وتضيق أرضه لتوسع أرضك، وتحرم الورثة من الميراث لتكثر أطيانك، وتظن أنه يبارك لك فى مالك أو بدنك أو أهلك أو زراعتك، وجهلت طريق البركة وسبيل النعمة، أتغضب ربك و يبارك لك؟ أو تسخطه و يعينك؟ وتحزن الناس بسلب أموالهم وظلمهم وتظن أنك تفرح فى الدنيا أو الآخرة؟ لذاك ترى الفلاح الذى يعمل هذه الأعمال شقى الجسم والفكر فى الدنيا، فإن تاب وأقلع وأصلح عملا تاب الله عليه وسعد فى الدنيا والآخرة. وإن دام على ذلك فلا يعلم عاقبة أمره فى الآخرة إلا الله تعالى. فتنبه أيها الفلاح الذى جعله الله مصدراً للخيرات و يدأ عاملة لجلب المسرات ودفع المضرات إلى مقامك فى الوجود، ومنزلتك بين إخوانك، واشكر ربك على ما أولاك يبارك لك و يتولاك، والله لايضيع أجر من أحسن عملا.

خامسا : الواجب للوالدين

لست فى مقام تقرير حقيقة خفية ولكنها ثابتة شرعا وعقلا ، وجلية تؤثر على القلوب والحواس تأثيرا يؤدى إلى الانفعال النفسانى والجسمانى بالعواطف والاعتقاد والانقياد وبالغيرة والحمية . مالى وللتكلم فى واجب فطرت على مراعاته النفوس الكريمة !! وجبلت على القيام به العقول السليمة ، حتى صار من المقرر عقلا وعادة أن الولد إذا لم يقم لوالديه فيما من شأنه أن يقوم به أهل العواطف ظلم أمه . وسمعت أن بعض أولياء الله المتوسمين جلس فى مجلس فرأى رجلا يؤذى والده فذم الناس أم العاق ، فقال الولى : الولد من ظهر أبيه إلا أن أباه كثير الحلف بالطلاق . فيظهر من هذا أن المرأة إذا حفظت فرجها وحفظ الرجل لسانه من يمين الفسق وبطنه من الحرام رزقه الله بأولاد بررة يكونون له كعينيه ويديه ورجليه .

وبعيشك أيها الأخ هل تتصور أن إنسانا عاقلا يتوهم أن اليد اليمنى تضر اليسرى أو تضر الرأس أو العين وهى جزء من الجسد ؟ لاأشك أنك تقول لا ! لا أتصور ذلك ، إذاً فكيف تتصور أن خلاصة الجسد وصورته الحقيقية بل وثمرة شجرته تؤذى الأصل ؟ إلا أن تكون من أصل آخر لايجمعها عليه أصول دانية ولا عالية . فالولد العاق إما أن يكون من حرام عملا أو غذاء أو قولا ، لأن الولد زهرة الشجرة التى هى الوالد والوالدة . والوالد والوالدة هما مظهر الشفقة والرحمة والحنان والبر والإمداد والإيجاد الإلهى ، ولذلك فقد أوجب الله الشكر لهما ، وجعل رسول الله ﷺ الجنة تحت أقدام الأمهات وجعل الوالد على باب الجنة . قال سبحانه وتعالى : (وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا)(١) وقال الله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا)(٢) وقال سبحانه وتعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا)(٣) وقال سبحانه وتعالى : (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ)(٤) وقال ﷺ فى الحديث الصحيح

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٥١ .

(٣) سورة الإسراء آية ٢٣ .

(٤) سورة لقمان آية ١٤ .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قال رجل : يارسول اللهِ مَنْ أَحَقُّ بحُسن صحابتى ـ أو صُحبتى ؟ـ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك) (١) وقال ﷺ : (رَغِمَ أنْفهُ ، رَغِمَ أنفه ، رغم أنفه ، قيل : مَنْ يارسولَ الله ؟ قال : من أدرك والديه عنده الكبر أحدهما أوكليهما ثم لم يدخل الجنة)(٢) وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أنها قالت : قدِمت علىَّ أمِّى وهى مشركة فى عهد قريش فقلت : يارسول الله إن أمى قدِمت علىّ وهى راغبة أفأصِلُها ؟ قال : (نعم ، صليها)(٣) . وفى الحديث الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : (رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد)(٤) وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : (الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فحافظ على الباب أو ضيِّع)(٥). هذه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة قد بينت لنا حقوق الوالدين وشرحت لنا مقدار السعادة التى تنالها ببرهما والشقاء الذى يناله العاق .

من كمال البر للوالدين :

ومن كمال البر أن تبذل مالك وتحفظ مالهما ، وتأكل بعد أكلهما ، وتنام بعد نومهما ، وتلبس بعد لبسهما ، وتجتهد أن تعمل ما يسرهما ولو كانا كافرين ، حتى لو طلبا منك أن تسقيهما الخمر فاسقهما ، وعليك أن لاتخالفهما إلا إن جاهداك على أن تشرك بالله ماليس لك به علم فالواجب عليك أن لا تطيعهما كما قال : (وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)(٦) وإياك أن يدفعك الطمع فتوفر مالك وتنفق من مالهما أو تأخذ من مالهما شيئا تدخره لنفسك أو لأولادك ، أو تجمل امرأتك بشىء لم تجمل به والدتك ، فإن ذلك عقوق تعذب به يوم القيامة وتعاقب به فى الدنيا بعقوق أولادك لك . وكن على يقين أن برك لوالديك سعادة لك فى الدنيا بالعافية فى بدنك والنسيئة فى عمرك

---

(١) أخرجه الشيخان وزاد مسلم فقال : « نعم وأبيك لتنبأن » تيسير الوصول للزبيدى ٤٦/١ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر، وأحمد فى المسند ٢٩/٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الجزية والأدب ، ومسلم فى الزكاة ، وأبوداود فى الزكاة ، وأحمد فى المسند ٣٤٤/٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥.

(٤) أخرجه الترمذى فى كتاب البر.

(٥) أخرجه الترمذى فى البر ، وابن ماجه فى كتاب الطلاق والأدب ، وأحمد فى المسند ١٩٦/٥ ، ٤٤٥/٦ .

(٦) سورة لقمان آية ١٥ .

والوسعة فى رزقك ونجابة أولادك وسرورك بهم ، ولو تحققت ذلك ياأخى لبذلت النفس والنفيس فى إدخال السرور على والديك ، فإنك لا تدرى متى يفارقاك . لو تصورت ياأخى كيف كانا يفرحان بك صغيرا ، و يبذلان نفائس أموالهما لسرورك ، وكيف تحملت والدتك فى حملك ورضاعك وفى تمريضك ، وماتحمّله والدك فى تربيتك لبذلت وسعك لتسرهما وتكرمهما ليموتا راضيين عنك ، داعيين لك ، وتعيش بعدهما مطمئن القلب بأنك ستنال الخير ببركة دعائهما ، والذرية الصالحة ببركة رضاهما ، مع مايحصل لك من البهجة والسرور عند ما تتذكر أنك أحسنت إلى والديك وأن الله سبحانه وتعالى سيدخلك الجنة مع الأ برار البارين . تلك البهجة ياأخى خير من الدنيا وما فيها .

وأظنك تقول : أبنائى وزوجتى ، أنت يامسكين لا تدرى أهم أبناؤك حقا أم التصقوا بك ، ولا تعلم أرزقت بهم ليكونوا لك خيرا فى الدنيا والآخرة أو شقاء لوالديهما فى الدنيا والآخرة ، فكيف ياأخى تترك الأمر الجلىّ خيره ، البينة سعادته ، وهو بر والديك الذين أحسنا إليك وأوجب الله عليك أن تقوم لهما بالإحسان ، وتجتهد فى الأمر المشكوك فيه الذى لا تعلم عاقبته وهو أن تدخر لأ بنائك وتهمل الحقوق الواجبة عليك لوالديك ؟ أعاذنى الله وإياك ياأخى مما يوجب المقت والسخط . ولوأنك ادخرت لأ بنائك نفسا عالية ترفعهم عن سفاسف الأمور ، وعقلا ذكيا يعقلهم عن مهاوى المقت ، وخلقا جميلا حسنا تحسن به معاشرتهم لأ رحامهم وأقاربهم ، وكنزا من الدين يمنحهم الله به السعادة فى الدنيا والأخرة ، لكان خيرا من نفائس الأموال وكنوز الذهب والفضة . والله تعالى ياأخى يجعلنى وإياك من الأ برار البارين لوالديهم إنه مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ومن بر الوالدين بعد موتهما الاستغفار لهما والصلاة عليهما ، وصلة الأ رحام التى توصل بهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وإكرام صديقهما ، ومن إكرامهما فى حياتهما أن تبر يمينهما.فترى الفاسق الغوى إذا مات والداه أو أحدهما دعاه الطمع الأشعبى والغرور بالدنيا ونسيان يوم الحساب أن يقوم فيحارب إخوته وأخواته ، و يعتقد أنه لاعدو له فى الأ رض إلا أبناء والديه ، ما ذلك إلا لأن الجهل أنزل المال عنده منزلة الإله المعبود الذى يأمره فيطيعه . ومن الضلال من يسلط الناس على إخوته الأشقاء أو أبناء العلات ليستريح من منافستهم له فى هذا العرض الزائل . ولعمرى أن هذا العمل لايعمله رجل من أهل الجنة ولا من ذاق

حلاوة الإيمان . كن ياأخى على يقين أنك إن بررت والديك بعد موتهما بصلة أرحامهما ، أن الله تعالى يبارك لك بركة تدوم لك حتى تكون فى الفردوس الأعلى ، ومن اغتر بمال يفنى وملك يزول ورياسة تتحول ورياش يبلى واستعان بأهل الزور والبهتان فقطع أرحامه ليكثر ماله فرحا بالمال والسيادة والرياسة ، كان كمن عرض نفسه لشقاء الدنيا ، فإن قطيعة الرحم تعجل عقوبتها فى الدنيا ، خصوصا وأن قطيعة الرحم عقوق للوالدين ، وعقوق الوالدين موجب لسوء الخاتمة نعوذ بالله .

الواجب الثانى للوالدين :

أحق ما يجب للوالدين بعد موتهما دوام الصلاة عليهما والاستغفار لهما خصوصا عقب الصلوات الخمس وعقب مجالس الذكر والعلم ، و يلى هذا الواجب واجب مقدس أوجبه الشرع وفطرت عليه النفوس الفاضلة وهو صلة أرحامهما ، والأرحام فى الأصل كل من لك به قرابة توصلها بك أمك نسبة للرحم ، ولكن العرف الشرعى أطلق اللفظ وجعلها عامة لكل من لك به قرابة تدلى إلى أمك أو أبيك ، وجعل قرابة الأم أولى بحسن العاطفة وإن كان للعصبة تأثير على النعرة بالنسب والحمية للقرابة ، فابدأ أيها الأخ أيدك الله بالتوفيق بصلة أرحامك معتقدا أن ذلك سعادة لك فى الدنيا والآخرة ، وليكن ذلك بقدر استطاعتك . وابدأ بنفسك ثم بمن تعول . ومن يدفعه الأمل إلى الطمع فيقصِّر فى حقوق الصلة ويحتال فى سلب ما فى أيديهم فيكون قد ارتكب جريمتين ، جريمة التلصص وجريمة قطيعة الرحم . واللص الذى يتلصص على الأجنبى أقل وزراً منه . كيف يكون سرورك أيها الأخ إذا أنت أكرمت إخوتك وأقاربك وتحققت أن الله تعالى يكرمك فى الدنيا بأن يجعل فى قلوب أبنائك الرحمة والعاطفة لبعضهم وشهدت ذلك فى حياتك ، وانتقلت إلى الدار الآخرة شاكرا ربك على ما وهبهم من التعاطف والتواصل والتآلف والمساعدة والمسارعة إلى جلب الخير لبعضهم ودفع الضر عن بعضهم ، وانتقلت إلى البرزخ فوجدت قبرك روضة من رياض الجنة فكمل سرورك وتمت بهجتك ، ولم يكن ذلك كله ياأخى إلا لقيامك بالواجب لوالديك وأقاربك بما تفضل الله به عليك من حسن العناية والتوفيق لما يحب .

حالة العاق لوالديه :

ثم انظر ياأخي للعاق لوالديه القاطع لرحمه كيف تصب عليه البلايا فى الدنيا صبا بكثرة القضايا والخصومات ، ثم يجعل الله له أبناء فجرة يبددون ما جمع فى حياته ، و ينغصون عيشه بما يقع بينهم من الخصومات والعداوات ، وما يناله منهم من قبيح أعمالهم مع الناس حتى يتمنى أنه لم يكن تزوج ، بل وأنه لم يوجد فى الدنيا،فيعيش طول عمره فى شقاء وكبائر حتى يفارق الدنيا فينتقل من آلام بدنية فكرية إلى حفرة من حفر النار ، نعوذ بالله من قطيعة الأرحام . ولايصبر أبناؤه حتى يواروه فى التراب ، بل تقع بينهم المنازعات والمخاصمات ، وربما تلاكموا وتضاربوا بالعصى وتزاحموا على تفتيش الحجرة التى هو فيها ، وربما وطئوه بالنعال وهو ملقى بينهم وهم الذين كان يسهر ليجمع لهم ويخاصم أقاربه ليجدد لهم . انظر ياأخي بعينك عاقبة هذا الأمل ونتائج هذا الطمع . صِلْ رَحِمَكَ ياأخي ليرحمك الرحمن ، وأكرم أقاربك ليقرِّبك القريب ، و برَّ والديك ليبرك البر الودود ، قال الله تعالى : (وَبِـٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ)(١) وقالَ سبحانه وتعالى : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ)(٢) وقال رسول الله ﷺ : (من أحب أن يُبْسَطَ له فى رزقه و ينسأَ له فى أثره ، فليصل رحمه)(٣) . وقال ﷺ : (خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوى الرحمن فقال : مه ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت : بلى يا ربى ، قال : فذاك)(٤) وقال ﷺ : (لايدخل الجنة قاطع الرحم)(٥) (أحاديث صحيحة) . وفى الحديث الحسن يقول ﷺ : (لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم)(٦) . وقال ﷺ : (ما من ذنب أَحْرَى أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبةَ فى الدنيا مع ما يدَّخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم)(٧).

---

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢) سورة محمد آية ٢٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب والبيوع ، ومسلم فى البر ، وأبوداود فى الزكاة .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، ومسلم فى البر، وأحمد فى المسند ٢/٣٣٠ ، ٣٨٣ .

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب البر، وأحمد فى المسند ٢/٤٨٤ ، ٣/١٤ ، ٨٣ ، ٤ / ٣٩٩ .

(٦) وعند الطبرانى عن عبدالله بن أبى أوفى أن النبى ﷺ قال : « إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم » مجمع الزوائد ٨/١٥١ .

(٧) أخرجه أحمد فى المسند ٥ / ٣٦ ، ٣٨ .

الواجب الثالث للوالدين :

يجب عليك ياأخى أن تبر أَهْلَ وُدِّ أبيك ممن كان يودهم ويحبهم ، ولا تتشبه ياأخى بمن أبعدهم الله عن أعمال الخير الذين إذا تمكنوا أساءوا إلى أهل ود والديهم ، وأضرب لك مثلا : قد يكون للرجل ولد سيىء الأدب و يكون لوالده إخوان صدق فيشددون على الولد ، و يأمرون والده بالتشديد عليه ليتحسن مستقبله ، فيظن الجاهل أن ذلك الرجل العاقل صديق أبيه يعين أباه على مضرته ، فإذا توفى أبوه قام فحارب صديق أبيه وآذاه . وقد يكون الرجل متزوجا امرأة غير أمه وتكون محظية عند والده محبوبة لديه ولم ترزق من أبيه بأولاد ، فإذا مات أبوه قام فجعلها أعدى أعدائه وأشر أَلِدَّائه ولم يراع حقوق والده . وقد يكون للوالد عامل مخلص فى عمله له محافظ على أمواله ، و يكون الولد مسرفا فيشدد عليه العامل وهو صادق أمين ، فإذا تمكن المسرف من المال أو الميراث حارب العامل الصدوق الأمين وطرده من عمله ولم يراع حقوق والده . وقد ورد عن سيدنا عبدالله بن عمر رضى الله عنهما وأرضاهما أنه كان راكبا على جمل فمرّ به أعرابى فنزل عن الجمل فقابله وحياه ، ثم أخذ بزمام الجمل وأعطاه إياه وانصرف ، فقيل له : ماهذا ؟ قال : هذا الرجل كان يضحك والدى إذا رآه فأحببت أن أبر والدى باكرام من كان يضحك لرؤيته . وهكذا فليكن البر ومن هذا الإمام يؤخذ . فقم ياأخى بإكرام أهل ود أبيك لتكن بارا . ومن كمال البر وفاء عهودهما بأن تفى لهما بما عاهدا عليه بعد موتهما ، وكن على يقين أنك تفوز بالمسرات فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، والله تعالى يمنحنى وإياك التوفيق لما يحب و يرضى إنه مجيب الدعاء .

نصيحــة للأ بناء :

يابنىّ ، لاتجهل من أنت ولامايجب عليك ولا مايجب لك ، لعلك يابنى تظن أنك بما تجده من عواطف أمك وأبيك ومن حرصهما على سرورك وخيرك ومن بذل نفائس أموالهما فيما فيه راحة بدنك وزيادة صحتك أن ذلك واجب عليهما أو حق لازم عليهما لك ، فتجهل قدرك وتنسى قدر النعمة عليك من ربك ، فتقوم مطالبا بحقوق توهمتها لم يوجبها الشرع ولم يستحسنها العقل ، فتكلف والدتك بخدمتك أو تغضب عليها إن تهاونت

بشأنك ، أو تأبى أن تلبس أو تأكل ما قدم لك ، أو تستقل ما أكرماك به ، فتكون كالذباب الذى يطوف حول النار لايرضى بضوئها وحرارتها حتى يسقط فى لهبها ، فإنك يابنى إن توهمت ذلك وقادتك رحمتهما وحنانتهما وعواطفهما لارتكاب شيء من ذلك ، أسرع بأن تعلم منزلتك وأنب إلى ربك تائبا وإلى والديك متذللا متملقا . لَمْ يبذلا لك ما بذلا من المال والنفس لواجب عليهما ، بل لأنك زهرة شجرتهما ومرآة حقيقتهما ، فإن نظرت إليهما بنظر الابنِ للوالدين نظر تعظيم وإطاعة لأمرهما وحب لهما ورغبة فى نوال رضاهما ، منَّ الله عليك بأن جعل عاطفتهما عليك فى مزيد ، وجعلك لهما ظهيراً ونصيراً بعد كبرك ، فتكون لهما والداً شفوقا و يكونان لك كولدين رحيمين . وتكون قد قمت بالواجب عليك لله ولرسوله وللوالدين .

يابنى ، إن والديك لهما عليك بعد الله تعالى المنة ، وقد اكتسبا من التجارب علوما تجهلها ، فإياك يابنى أن تجتمع على أمثالك الصغار فيحسِّنون لك ما يقبِّحه والداك مما قد تراه حسنا فى سنك ، فإن ذلك ينتج احتقارك لوالديك ومخالفتك لأمرهما والكذب عليهما والمضرة لمن اتصف بهذا . يابنى إنك فى صغر سنك تستحسن أشياء هى فى الحقيقة قبيحة ، وتستقبح أشياء هى فى الحقيقة حسنة ، فجاهد يابنى نفسك أن تتروى قبل العمل ، وأن تستشير والديك قبل الإقدام ، وتعلَّم يابنى الملاحظة وتباعد عن كل عمل يضطرك أن تكذب على والديك ، بل اترك كل عمل يلجئك أن تستحى منه إذا رآك غيرك . ثم اعمل بعد ذلك ما شئت . فإن أعمالك يابنى إن صدرت عن تقليدك لوالديك الحكيمين أو عن رو ية وملاحظة ولو كان العمل خطأ فإنك لا ترى نفسك ذليلا عند تأديبك عليه ، بل تقبل اللوم والتأديب بسرور لأنك تحب الحسن من كل شيء ، وتكره القبيح من كل شيء . يابنى لا تضيع أوقات شبابك وفراغك من هموم الدنيا مادام والداك قائمين بما لابد لك منه ، أجهد نفسك يابنى فى هذا الزمن لتتحصل على ما به تكون من أهل الشرف والمجد من العلوم الدينية ، ومن الأغنياء عن شرار الخلق بالصناعات والفنون ، ومن المحترمين المعظمين عند الناس بالأخلاق والآداب ، قبل أن تضطر لشغل قلبك وتعب بدنك فى جلب مالا بد لك منه من قوت ولباس ومسكن وزوجة وخادم . يا بنى ، من شب على شيء شاب عليه . تجنب صحبة الأشرار والعمل الموجب للعار ، واجعل لعبك فيما ينفع فى منزل والديك من خدمتهما عند فراغك من التعليم ، وتنظيم منزلك ونظافة ثيابك ومكانك ، لتكون عونا لوالديك من

طفوليتك . وإذا منّ الله عليك بأن جعلك غنيا عن أشرار خلقه عالما فكن رجلا خارج المنزل ، فإذا دخلت على والديك فكن طفلا كما كنت أولا ، عبداً كما كنت سابقا تُملك ولا تَملك ، واجعلهما يدبران لك شأن داخليتك وإن أخطآ ، وحسّن شأن خارجيتك فإنك لا تدرى متى يأتيهما الموت .

لعلك يابنى إذا تزوجت صارت زوجتك أحب إليك من أبيك وأمك وإخوتك ، وهى إنما رضيت بك لأنك قوى سوىّ غنى ، ولو ذهبت صفة من تلك الصفات ذهبت معها وكانت حربا على زوجها ، فاصحب زوجتك حذرا منها ، واعلم أن حظك منها كحظ الحمار من الأتان وكن عبدًا لله مطيعا لوالديك . يابنى بعض الضالين الذين حرموا الكمالات الإنسانية يتهاون بشأن والديه و يعتنى بشأن زوجته ، أعوذ بالله أن أكون منهم أو تكون منهم ، فإنهم عبيد لشهواتهم ، وعباد الدارهم والدنانير أقرب منهم للإنسانية . انظر إلى والديك تراك غصن شجرتهما وصورة حقيقتهما وخلاصة حياتهما ، فلا تعبد يابنى شهوتك وتكفر بربك سبحانه وتعق والديك ، واجعل والديك فى أعلى المراتب من قلبك ، واجعل زوجتك كالمرحاض تأتيها عند الحاجة ، وأكرمها بقدر تلك الحاجة ، وقم لها بما فرض الله تعالى وما سنه رسول الله ﷺ ، ولا تنس الفضل بينك و بينها ، ولا تجعلها سببا فى عقوق والديك وقطيعة رحمك ، فإن الإنسان لايدرى لعله يجمع المال ويحرم منه أرحامه ثم تحوزه الزوجة وتنفقه على زوج أجنبى . أحب يابنى زوجة أبيك وإن كانت كدراً لوالدتك برًّا بوالدك ، إلا أن توفيت والدتك فاجعلها فى منزلتها وأحبب إخوتك منها كحبك لإخوتك ، واجعلهم لك أنصارا وأعوانا وكنوزاً وجمالا لتكون كثيرا بهم . اجتهد يابنى إن كان ورّثك والدك مجداً وشرفا أن تحافظ على ميراث والدك ، وأن تجتهد فى أن تزيده وتنميه ليحيى والدك ، وإن ورثك مالا وعقاراً فاجتهد أن تحفظ ميراث أبيك وأن تأكل من عرق جبينك ، وتهتم أن يكون لك مالا وعقارا اكتسبته بنفسك لتورثه لأولادك كما ورثك أبوك ، وعليك أن تجعل أهل بلدك يعلمون أن هذا العقار والمال ميراث أبيك لك ليحيى ذكر أبيك ، وأن هذا المال والعقار هو ما اكتسبته بنفسك لتحيى ذكرك . واجتهد أن تورث أبناءك هذا المبدأ الشريف ليدوم عقار المسلمين ومالهم فى خزائن المسلمين . واعلم يابنى أن بعض أهل الغواية الأنذال المفسدين الذين هم مرض فى جسم العائلات يتمنى الخبيث منهم أن يموت والده ليرث ماله ، فإذا مات والده قام فبذل المال فى شهواته وحظوظه حتى إذا لم يبق

فى يده ما يستعين به ندم ولات حين مندم ، فتمنى آن والده عاش له بعد ان احوجته الضرورة إلى خدمة من كان خادما عنده ، أو ارتكب ما به يحشر إلى السجون أعاذنى الله وإياك يابنى من أعمال الأشرار وفعل الخبثاء إنه مجيب الدعاء . وإلى هنا أقول لك أيها الولد البار : اجتهد فى صحبة العلماء العاملين ، وداوم على مجالسة الأتقياء الصالحين وتعلم منهم وتشبه بهم ، والله يتولانى وإياك إنه ولى المؤمنين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سادسا : بيان الحقوق الواجبة على المسلم لإخوانه :

سبق الكلام فى الواجب عليك لنفسك ولربك سبحانه وتعالى ولرسول الله ﷺ ولأولى الأمر منا ولوالديك ولأرحامك ، ولم نتكلم على الحقوق الواجبة على الزوج للزوجة والحقوق الواجبة على الزوجة للزوج والواجب على الوالد لأبنائه لأنه سبق شرح تلك المعانى فى كتاب : (أصول الوصول) وكتاب : (معارج المقربين) وغيرهما(١) فى مواضعها الخاصة بها ، والمراد بعون الله تعالى بيان الحقوق الواجبة على المسلم لإخوانه . وقد ثبتت تلك الحقوق شرعا بنص قوله تعالى : (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا)(٢) وقوله تعالى : (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ)(٣) وقوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)(٤) وقال ﷺ : (ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إن اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(٥) وقال ﷺ : (المؤمنون كرجُلٍ واحد ، إن اشتكى عينُهُ اشتكى كلُّه ، وإن اشتكى رأسُه اشتكى كلُّه)(٦) وعن أبى موسى عن النبى ﷺ أنه قال : (*المؤمنُ للمؤمن كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضا* ، ثم شبَّك بين أصابعه)(٧) وعنه عن النبى ﷺ أنه كان

---

(١) تطلب مؤلفات الأمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم من مكتبة دار المدينة المنورة ١١٠ ش مجلس الشعب ــ القاهرة .
(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣ .
(٣) سورة المائدة آية ٢ .
(٤) سورة الحجرات آية ١٠ .
(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، ومسلم فى البر ، وأحمد فى المسند ٤/ ٢٧٠ .
(٦) أخرجه مسلم فى كتاب البر ، وأحمد فى المسند ٤/ ٢٧١ ، ٢٧٦ .
(٧) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب .

إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال : (اشفعوا فلتُؤجَروا ، و يقضى الله على لسان رسوله ماشاء)(١) وقال ﷺ : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل : يارسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه)(٢). وقال : (المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه كربةَ من كربات الآخرة ، ومن ستر مسلما ستره اللهُ يوم القيامة) (٣) وقال ﷺ : (المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره التقوى هـٰهنا و يشير إلى صدره ثلاث مرات . بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كلُّ المسلم على المسلم حرام دمُه ومالُه وعرضُه) وقال ﷺ : (أهل الجنة أربعة ، ذو سلطان مقسط ومتصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لازبر له(٤) الذين هم فيكم تبع لايبغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذى لايخفى له طمع وإن دق إلَّا خان ، ورجل لايصبح ولايمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك)وذكر البخل والكذب والشنظير الفحاش . وقال ﷺ : (والذى نفسى بيده لايؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (٥) وقال : (والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لايأمن جارُه بوائقَه) (٦) وقال ﷺ : (لايدخل الجنة من لايأمن جارُه بوائقه) وقال : (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) (٧) وقال ﷺ : (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه) (٨) وعن تميم الدارى أن النبى ﷺ قال : (الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قلنا : يارسول الله لمن ؟ قال : لله

---

(١) أخرجه النسائى فى الزكاة بلفظ : « اشفعوا تؤجروا أو فتؤجروا » .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المظالم ، والإكراه ، والترمذى فى الفتن ، وأبوداود فى الرق ، وأحمد فى المسند ٣/٩٩ ، ٢٠١ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب المظالم ، وأحمد فى المسند ٢/٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، ٣/٤٩١ ، ٤/٦٦ ، ٦٩ ، ٥/٢٤ ، ٢٥ ومسلم والترمذى فى كتاب البر .

(٤) الذى لا قوة له .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان ، والترمذى فى كتاب القيامة ، والنسائى فى الإيمان ، وابن ماجه فى المقدمة ، والدارمى فى كتاب الرق ، وأحمد فى المسند ٣/١٧٦ ، ١٧٧ ، ٤/٢٣٣ ، ٢٣٦ .

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، ومسلم فى الإيمان ، وأحمد فى المسند ١/٣٨٧ ، ١/٢٨٨ ، ٣٣٦ ، ٣/١٥٤ ، ١٩٨ ، ٤/٣١ ، ٦/٣٨٥ .

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، ومسلم فى البر ، وأبوداود وابن ماجه فى الأدب ، وأحمد فى المسند ٢/٨٥ ، ١٦٠ ، ٥/٣٢ ، ٣٦٥ ، ٦/٥٢ ، ٩١ .

(٨) أخرجه البخارى فى الاستئذان ، ومسلم فى السلام ، والترمذى فى الأدب ، وابن ماجه فى الطهارة والأدب ، والدارمى فى الاستئذان ، ومالك فى كتاب الكلام ، وأحمد فى المسند ١/٤٣١ ، ٤٦٠ ، ٢/٩ ، ٣٢ .

ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمين ولعامَّتِهم) (١) وعن جرير قال : (بايعتُ رسولَ اللهِ ﷺ على إقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ والنصحِ لكلِّ مسلمٍ) (٢).هذه أحاديث صحيحة على شرط الشيخين رضي الله عنهما .

وفى الحديث الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ يقول : (لا تُنزع الرحمةُ إلا من شقى)(٣) وقال رسول الله ﷺ : (الراحمون يرحمهم الرحمنُ ، ارحموا من فى الأرضِ يرحمكم مَن فى السماء)(٤) وقال رسول الله ﷺ : (ليس منا مَن لم يرحم صغيرنا ، و يوقر كبيرَنا ، و يأمر بالمعروفِ و ينه عن المنكرِ)(٥).

سعادة الدنيا والآخرة بالعمل بأحكام الله ورسوله ﷺ :

هذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية تبين للمؤمن سبل الخير وتوضح له مناهج السعادة ، وما من حكم من أحكام الشريعة المطهرة إلا وهو خير للمسلمين فى الدنيا والآخرة . أوجب الله سبحانه وتعالى علينا أن نجعل كل فرد من أفراد المؤمنين أخاً لنا ، وأوجب علينا أن نقوم بحقوق المسلمين بالتعاون والائتلاف والمحبة ، و بيّن لنا رسول الله ﷺ ذلك بيانا جليا حتى صار كالمحسوس ، وإليك ما نناله من الخير فى الدنيا والآخرة باتباع سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، تعلم أيدك الله أن الناس محتاج بعضهم إلى بعض ، وأن كل واحد من الناس لاينال كماله بل ولايحصل على ضروريّه إلا بمعاونة الآخرين له ، لأن الناس مطبوعون على النقصان ومضطرون إلى زوال هذا النقصان بالتمام ، ولاسبيل لكل واحد أن ينال كماله بنفسه ، فالضرورة داعية إلى التعاون والائتلاف والحاجة صادقة فى ذلك و باعثة على حال تؤلف بين أشتات المسلمين ليصيروا بالائتلاف والاتحاد جسدا

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان ، ومواقيت الصلاة والزكاة ، والبيوع ، والشروط ، والأحكام ، ومسلم فى الإيمان ، والترمذى فى البر ، والنسائى فى البيعة ، والدارمى فى البيوع ، وأحمد فى المسند ٣٥٨/٤ ، ٣٦١ .

(٣) أخرجه أبوداود فى الأدب ، والترمذى فى البر ، وأحمد فى المسند ٣٠١/٢ ، ٤٤٢ .

(٤) أخرجه أبوداود فى الأدب والترمذى فى البر .

(٥) أخرجه الترمذى فى البر ، وأبوداود فى الأدب ، وأحمد فى المسند ٢٥٧/١ ، ١٨٥/٢ ، ٢٠٧ ، ٣٢٨/٥ .

واحدا ، حتى يقوم كل عضو من أعضائه بمفرده وبمعاونة الأعضاء على الفعل الواحد النافع ولا تنال العيشة الطيبة فى الدنيا ولا السعادة الأ بدية فى الآخرة إلا بالاتحاد والتعاون . وإذا سعى كل فرد من المسلمين فى الخير لجماعة المسلمين حصلت المودة فالمحبة فالصداقة ، وللمحبة أنواع ، فمنها ما ينعقد سريعا و ينحل سريعا وهى المحبة للذة لأن اللذة سريعة التغيير. ومنها ما ينعقد سريعا و ينحل بطيئا وهى المحبة التى سببها الخير. ومنها ما ينعقد بطيئا و ينحل سريعا وهى المحبة التى سببها المنافع . ومنها ما ينعقد بطيئا و ينحل بطيئا وهى التى تتركب مما تقدم إذا كان فيها الخير. ولا تكون الصداقة صداقة إلا إذا كانت بين الأخيار لأن محبتهم لأجل الخير الحقيقى المقصود للأ رواح . ولما كان الخير الحقيقى المقصود بالذات لا تتغير ذاته ، صارت محبة الأخيار لا تتغير أبدا بل وتنمو فى كل نفس . متى بلغت المحبة لدرجة الصداقة كان المجتمع الإسلامى بأجمعه يمثل الجناب المحمدى ، لأن الخيرات الحقيقية تقسمت عليه وصارت مقاصدهم الخير المطلق الحقيقى . ماالذى ينتج عن ذلك يا أخى ؟ ينتج عن ذلك عز المسلمين وقوة سلطانهم ورغد عيشتهم ،وتقسيم السعادة بين كل فرد منهم حتى يكون كل فرد قد حاز قسطا عظيما من السعادة ، وإذا حصل ذلك دان لهم الخلق أجمعون ، وفتحت لهم كنوز السموات والأ رض ، وتوالت عليهم الغنائم وصارت كلمة الله هى العليا ، وتجددت شعائر الإسلام ، وعمرت مساجد الله ، وانتشر العدل بين العالم . ولايعلم قدر ما ينال كل فرد من النعيم الأ بدى والسعادة الحقيقية يوم القيامة إلا الله تعالى . إذا تدبرت هذا علمت أن أحكام الله سبحانه وأحكام رسوله ﷺ بالعمل بها سعادة الدنيا والآخرة . ومعلوم أن الإنسان فى هذه الدار الدنيا إما أن يكون وحده وقد تقدم الكلام على ما يجب على الشخص لنفسه ، و بينا تدبير النفس فى : (معارج المقربين) وطرق تزكيتها .أو يكون مع خواصه من والدين وأرحام وأهل و ولد وجار وأتباع ، وتقدم الكلام على حقوق الوالدين والأ رحام والأهل والولد فى كتابنا هذا ، وتقدم الكلام على حقوق الجار والأ تباع فى كتاب : (أساس الطريق) عند ذكر الإنسان ، أو يكون مع عموم الخلق وهذا الأمر الثالث هو المراد بيانه .

سابعا : الواجب لعموم الخلق :

نبتدىء بأقل الواجبات . أقل واجبات حسن الصحبة كف الأذى عن جميع المسلمين لقوله ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده)(١) وفوق ذلك أن تنفعهم وتحسن إليهم وأن تحب لهم ما تحب لنفسك ، وأن تتواضع لكل مسلم ولا تفتخر عليه ، وإن تكبّر عليه أحد من المسلمين فعليه أن يتواضع له لقوله تعالى : (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ)(٢) وعليه أن يوقِّر المشايخ و يرحم الصبيان ، وأن يكون مع كل مسلم مستبشراً طلق الوجه ليدخل عليه السرور ، وأن يصلح ذات البين ولو بالمبالغة فى الكلام . وعلى كل مسلم أن لايسمع بلاغات بعض الناس على بعض لأن النفوس جبلت على حب الانتقام ، وأن لايهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام فإن ذلك ليس من خلق المؤمنين . وأن تحسن إلى كل أحد بقطع النظر عن كونه أهلا أولا ، وأن تخالق الناس على قدر عقولهم ولا تنتظر من الجاهل ما تنتظره من العالم ، وأن تُنْزِلَ الناس منازلهم فتكرم أهل المكانة والجاه ولو فى الدنيا . ومن أعظمها ستر عورات المسلمين وأن تتقى مواضع التهم حفظا لقلوب المسلمين من سوء الظن وألسنتهم عن الغيبة ، وأن تسعى لقضاء حوائج المسلمين ولو بشفاعة . ومنها المبادرة بالسلام على كل مسلم ومصافحته ليكون لك فضل البداية ، وأن تنصر أخاك فى غيبته بالرد عن عرضه وماله . ومنها مداراة أهل الشر لتسلم من شرهم . ومنها التردد على مجالس المساكين والتباعد عن مجالسة الأغنياء فإنهم موتى القلوب . ومنها عيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم وزيارة قبورهم والدعاء لهم فى الغيبة وتشميت عاطسهم وإنصاف الناس من نفسه . هذه بعض الحقوق الواجبة على المسلم لإخوانه آثرنا ذكرها لتنبيه إخوتى المؤمنينَ إليها ومراعاتها لتقوى المحبة وتجدد الصداقة وترضى الله ورسوله ﷺ ، والله سبحانه أسأل أن يعيد للمسلمين مجدهم ، و ينظر إلينا جميعا نظر إحسان وود إنه مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان ، والرق ، ومسلم فى الإيمان ، والجهاد والترمذى فى القيامة ، والإيمان ، والنسائى فى الإيمان . والدارمى فى الرق ، وأحمد فى المسند ١٦٠/٢ ، ١٦٣ ، ١٥٤/٣ ، ٣٧٢ ، ٢١٥/٤ ، ٢٢٤ ، ٢١/٦ ، ٢٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

هذه هى الحقوق التى وردت بها الأحاديث النبوية الصحيحة وحث عليها القرآن المجيد ، وهى حقوق تجب مراعاتها على كل مسلم لكل مسلم حتى يكون مسلما حقيقيا ، وبحسن مراعاتها تكمل الأخلاق ويسهل على المسلم حسن معاملة إخوانه المسلمين ، وبذلك يكون مسلما كاملا وعضوا عاملا لخير المسلمين ، ومن ذاق حلاوة قوله تعالى : (وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)(١) وإن كان سببها خاصا فحكمها عام ، عَلِمَ ـ حقيقة العلم ـ أن الواجب على كل مسلم لكل مسلم أمور وجدانية يمكن للمسلم أن يدركها من سر قوله ﷺ : (أَحِبَّ لأخيك ما تُحِبُّ لنفسك) والذى تحبه لنفسك لا يخفى عليك من الجاه والمنزلة والأمن والعافية وحسن السمعة ورغد العيش وغير ذلك مما لا يخفى على إنسان ، وهذا هو الميزان الحقيقى الذى به يكون المسلم مسلما بمعناه ، ومن أحب أن يكون إماما للمتقين فالسبيل إلى نوال ذلك أن يتعلم أخلاق رسول الله ﷺ ، وقد كتبنا نبذا من أخلاقه ﷺ الظاهرة فى كتاب : (أصول الوصول) وكتاب : (معارج المقربين) فاجتهد يا أخى أن تطلع على تلك الأسرار فى مواضعها ، لتتجمل بتلك الجمالات لتكون من المحسنين ، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعاملنا بإحسانه ، ويعيننا على حسن معاملة إخواننا إنه مجيب الدعاء آمين .

ثامنا : الواجب لمعلم الخير:

قال رسول الله ﷺ من حديث طويل : (إن الله وملائكته وأهل السمٰوات والأرض ـ حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ـ ليصلون على معلم الناس الخير)(٢) . قبل أن نتكلم على الواجب فى هذا الموضوع نبين الخير ومن هو معلمه الذى نقصد أن نشرح الواجب له فى مختصرنا هذا .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم .

بيان الخير المقصود ومن هو معلمه الحقيقى :

معلوم أن الخير هو المقصود للكل وكل ما سواه وسائل له ، فكأنه المقصود لكل النفوس على السواء ، والمقصود أولا وبالذات وهو الحق تقدست ذاته وتنزهت صفاته تتأله لجنابه العَلىِّ النفوس الطاهرة ، وتحن إليه الأرواح الملكية ، فهو المقصد الحقيقى لأولى العزم من الرسل ولعالين من الروحانيين ، ولكل الأفراد الوارثين ، ولأهل الخصوصية من أولياء الله المقربينْ ، وما سواه من المقاصد وإن علا ومن المطالب وإن سما فهو بالنسبة للمقصود الأول وسائل توصل إليه ، ومعارج تقرب إليه ، وآيات مشرقات دالات عليه ، وإنما تشتاق تلك النفوس الطاهرة إلى الفردوس الأعلى لا للفردوس وما فيها ، أو تتمنى الرضوان الأكبر لا لنيل الرضوان وإدراكه ، إنما ذلك كله لحظوة تؤدى إلى جلوة ، وقرب ينبىء بحب . والوسائل كلها إلى هذا المقصود الأعظم هى كالمقاصد لعظمتها . ولما كان معلم الخير يطلق و يراد منه كل من دل على خير دينى أو بدنى أو دنيوى أو أخروى ، كان هذا اللفظ عاما يشمل معلمى الصناعة النافعة العامة ومعلمى الأخلاق والتهذيب ، لأن من الصناعات ماهو ضرورى للعمران لايستقيم حاله إلا بها كعلوم الطب وفنون الزراعات والتجارات وفن تنظيم المدن ومالابد للمجتمع منه من فنون العمارات ، وما يتصل بذلك من فنون النسيج والخياطة والبناء وغيرها ، فإن ذلك لابد للمجتمع الإنسانى منه ، و بدونها لايكون المجتمع فاضلا . ومعلموا الفنون أو الصناعات يُعَدُّون من معلمى الخير و يتصل بذلك علوم الأحكام والقضاء وإقامة الحدود وسياسة المدن . وقد قام العلماء فشرحوا فضل هؤلاء المعلمين وما لهم من الأجر عند الله تعالى .

ولكنى فى مختصرى هذا أتكلم على معلم الخير الحقيقى ، وأُلمِعُ إلى فضل معلمى الخير الذى هو وسائل للخير الحقيقى ، فإن الزراع والتجار قاموا للمجتمع بعمل به اتسع الوقت وحصلت الراحة للقلوب والأبدان ، فلو أن الزراع والتجار والصناع لاحظوا فى أعمالهم حسن النية وقصدوا بذلك النفع العام بالمجتمع الإسلامى لكانوا كالمجاهدين فى سبيل الله أو كالصائمين القائمين ، فإن المزارع يتعب نفسه الليل والنهار ليريح بقية إخوانه ، والتاجر يتعب نفسه و يبذل ماله و يشغل فكره ليأخذ مازاد عن لوازم أمته و يرسله إلى البلاد المحتاجة له ويجلب لأمته ما هم فى حاجة إليه من البلاد الأخرى ، فهو فى جهاد لو حسنت

نيته وصدقت عزيمته وهو الأمين على المسلمين وعلى قلب نبى مالم يخن أو يغش المسلمين. والصانع مسكين يتعب جميع جوارحه ليعمل عملا به سرور إخوانه وراحتهم، فلو حسنت نيته ولاحظ جانب ربه فى عمله كان كالمجاهد فى سبيل الله. وأحل الأرزاق أرزاق الزراع والتجار والصناع إذا صدقوا، ومعلموا الصناعات أو التجارات أو الزراعات معلمون للخير المقصود، لا بالذات ولكن للوسائل التى بها نيل الخير الذى لابد منه للتوجه إلى هذا المقصد الأعظم الذى هو الخير الحقيقى. وقد أثنى الله تعالى فى القرآن على العاملين، المخلصين فى المعاملة، أما معلم الخير الحقيقى فهو المقصود بالذات دون غيره، إذ به سعادة الأبد والنعيم الحقيقى فى الدنيا والآخرة، فإن معلم الخير الحقيقىّ هو الشمس المضيئة التى تبين سبل السعادة فى الدنيا والآخرة، وتوضح الطريق المستقيم الذى يكون به الناهج عليه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهو النجاة الحقيقية للعالم كله، والسعادة الحقيقية لبنى الإنسان، ورحمة الله الحقيقية لمن اقتدى به وقبِلَ وصاياه، يُعِز اللهُ به بعد الذل، ويغنى به بعد الفقر، ويقوى به بعد الضعف، سر قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١) وقال ﷺ: (قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: إنى عليم أحب كل عليم) وعن أبى أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد، فقال ﷺ: (فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا)(٢).

معلم الخير الأول هو سيدنا رسول الله ﷺ:

ومعلم الخير الأول هو سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وقد سبق لك فى الواجب عليك أن طاعته ﷺ هى طاعة الله، وأن مخالفته ﷺ معصية لله، ولسنا الآن بصدد شرح تلك المعانى بالنسبة لجنابه ﷺ لأننا قدمنا نبذاً فى الواجب لجنابه ﷺ فى كتابنا هذا.

الوارث هو معلم الخير بعد رسول الله ﷺ:

والمراد الآن أن نبين الواجب لوارث رسول الله ﷺ الذى هو معلم الخير بعد رسول الله ﷺ الذى هو حجة الله على خلقه، ونور تستبين به السنن وتتضح به السبل كما قال الله تعالى:

(١) سورة الأعراف آية ٩٦.

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم، وابن ماجه والدارمى فى المقدمة.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)(١) وقوله سبحانه وتعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ)(٢)وقوله سبحانه وتعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(٣) وقوله سبحانه : (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)(٤) وقوله سبحانه وتعالى : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)(٥) وقوله تعالى : (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)(٦) وسر قوله ﷺ : (طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ)(٧) وقوله ﷺ : (خيار أمتى علماؤُها ، وخيارُ علمائِها فقهاؤُها)(٨) وقوله ﷺ : (يحملُ هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين)(٩) وقوله ﷺ : (عليَّ بخلفائى ، قالوا : ومن خلفاؤك يارسول الله ؟ قال : الذين يحيون سنتى يعلّمونها عبادَ اللهِ) وقوله ﷺ : (ماعُبِدَ اللهُ بشيء أفضل من فقه فى الدين ، ولَفَقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ)(١٠) ولكل شيء عمادٌ وعماد الدينِ الفقه . وقال ﷺ : (إن الحكمةَ تزيد الشريفَ شرفاً وترفعُ العبدَ المملوكَ حتى تُجْلِسَهُ مجالسَ الملوكِ) . وقوله ﷺ : (تعلّموا العلمَ قبلَ أن يُرفعَ ، ورفعه ذهاب أهله ، فإن أحدَكم لايدرى متى يحتاج إليه أو متى يحتاج إلى ماعنده ، وليحذر أن يطلبَه لمراءٍ أو رياءٍ ، فإن الممارى به مهجورٌ لا ينتفع ، والمرائى به محقورٌ لا يرتفع) (١١) والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة فى الحث على العلم والثناء من الله سبحانه ورسوله ﷺ على العلماء المعلمين للخير لا تحصى ولا تعد .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٧ .

(٢) سورة النساء آية ٨٣ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

(٥) سورة الزمر آية ٩ .

(٦) سورة التوبة آية ١٢٢ .

(٧) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة .

(٨) وعن علىّ كرم الله وجه قال : قال ﷺ : « نعم الرجل الفقيه فى الدين إن احتيج إليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه » أخرجه رزين كما فى تيسير الوصول للزبيدى ١٧١/٣ .

(٩) أخرجه أبو عمرو وغيره . القرطبى جـ١ ص ٣٦ .

(١٠) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم عن ابن عباس بلفظه تيسير الوصول ١٧١/٣ . كما أخرجه ابن ماجه فى المقدمة .

(١١) أخرجه الدارمى فى المقدمة بلفظ : « تعلموا العلم قبل أن يقبض » .

الواجب لمعلم الخير فى مقام البداية :

أول واجب عليك لمعلم الخير أيها الأخ المسترشد بعد أن تتحقق أنه معلم للخير وأنه دال على الحق وأنه على الصراط المستقيم ، يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ويخالق الناس على قدر عقولهم ، أن تفرغ قلبك و بدنك من الشواغل بقدر استطاعتك ، وأن تتلقى منه العلم بقبول وإقبال بدون التفات أو شعور من نفسك بأنك تعلمت شيئا فى حال بدايتك ، فإن ذلك ربما أدى إلى إظهار مبادىء العلم الذى تعلمته من العالم الربانى أمام الجهلاء أدعياء العلم فينكرون عليك فى بدايتك ، وأنت لاقدرة لك على إقامة الحجة و بيان المحجة ، فيكون ذلك منتجا لشكك فى معلم الخير أو فى اشتغالك بالخلق عنه ، وأن تكون أمامه كمريض يستشفى ، يشعر بآلام الجهل كما يشعر المريض بآلام المرض و يتمنى عَوْدَ العافية عليه كما يتمنى المريض ، وتتحقق أن هذا العالم الربانى هو الطبيب الذى يزيل أمراضك بما تتعلم منه . هذا فى مقام البداية .

الواجب على من ذاق حلاوة العلم الربانى :

فإذا ذقت حلاوة العلم الربانى يجب عليك أن تكون كالميت بين يديه الذى يتحقق أن هذا المعلم يحييه من هذا الموت بما يجمله به من علوم الحكمة وأسرار المعرفة سر قوله تعالى : (ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)(١) والاستجابة لمعلم الخير استجابة لله ولرسوله ﷺ ، فإن أمراض القلوب وآلام النفوس أعظم وأشد فى الحال والمآل من أمراض الأبدان وآلام الجوارح ، فإن أمراض الأبدان وآلام الجوارح تفضى بالإنسان إلى الموت الذى لابد منه ، وأما أمراض القلوب وآلام النفوس فإنها تفضى بالإنسان إلى جحيم الغضب وسَقَرِ المقت وجهنم الحجاب عن حضرة الله سبحانه وتعالى . ومن الواجب عليك أيها الأخ أن تتقرب إليه بما يحب لتشرح صدره ، فإنك إن شرحت صدره بالتقرب إليه بما يحب أباح لك بغرائب العلوم وأسرار الفهوم وكاشفك بالمكنون ، وتملق له ياأخى فإن التملق ليس من خلق المؤمن إلا فى طلب العلم ، كما قال ﷺ : (ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم) . ويجب عليك ياأخى أن يكون تعلمك من العالم الربانى بعمله أكمل من تعلمك بقوله فإنه يعمل بالعزائم ، وقد يقول بالرخص لمقتضيات ، وتعلمك من سكوته أكمل من

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤

تعلمك بكلامه فإن سكوته علم وكلامه علم ، وكن حاضر القلب والجسم معه إن استطعت ، فإن غاب عنك ياأخى لاتحدث نفسك بأن تقوم لتعلم الناس ما تعلمته منه ، فإن ذلك وقفة لك فى طريق التعليم والتفات عن معلم الخير، ولكن كن راو ية لعلومه ومحدثا عنه إن استطعت أن تميز بين مراتب النفوس وما يليق لكل نفس ، فإن جهلت مراتب النفوس وما يليق لكل نفس فجاهد نفسك أن تعمل بما علمته منه ، ليعلمك الله علم مالم تعلم خشية من أن تَزِلَّ فَيَزِلَّ العالِم بزلّتك ، و يتركك الناس و يذمون معلم الخير فتكون زلتك بذم معلم الخير وتنفير المسلمين منه شرا على الناس . إذا بلغ حُبُّكَ لمعلم الخير مبلغا لا تستطيع أن تكتمه فجاهد نفسك أن تكون بواعث الحب مُعِينَةً لك على الاقتداء والعمل بوصاياه ، وإياك أيها الأخ أن تقوى عليك عوامل المحبة فتقوم معلنا أسراره ومبينا أحواله ظنا منك أن الناس يحبونه كما أحببته ، و ينتفعون به كما انتفعت به ، فتخطىء السبيل وتفسد على العالم أحوالهم ، فإنه لم يكاشفك بما كوشفت به من الأسرار إلا بعد تزكية نفسك وعلمه منك الأهلية واعتقاده أنك على الصراط المستقيم .

وإياك أيها الأخ أن تدعوك المحبة إلى تنقيص العلماء ومجادلة الناس ، فإن ذلك ليس من آداب المريدين الصادقين ، ويجب عليك أيها الأخ المخلص أن لا تقلده فيما لم يستبن لك منه وجه التأو يل إلا إذا أمرك .

صفات معلم الخير الحقيقى :

ومعلم الخير الحقيقى لايخفى على ذى عقل ولكنى أشرح لك بعض صفات العلماء .

من أكمل صفاتهم الخشية لله والتواضع لله تعالى ، والتباعد عن مجالسة الأمراء والحكام ، ودوام الميل إلى الفقراء والمساكين ، والعمل بما علموا ، فمعلم الخير هو العالم الربانى الذى وصفه الله تعالى فى كتابه وأثنى عليه ، وقد وصفه سيدنا على بن أبى طالب وفضَّله على الخلائق فقال فى وصفه : (القلوب أوعية وخيرها أوعاها ، والناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بالعلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكيه العمل والمال تنقصه النفقة ، محبة العلم دين يدان به . يكسبه الطاعة فى حياته

وجميل الأحدوثة بعد موته . العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومنفعة المال تزول بزواله . مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر . ثم تنفس الصعداء فقال : هاه . إن هاهنا علما جمًّا لو أجدله حَمَلَةً ، بلى أجد لقنا غير مأمون يستعمل الدين فى طلب الدنيا . و يستطيل بنعم الله تعالى على أوليائه ، و يستظهر بحججه على خلقه ، أو منقادا لأهل الحق ينزرع الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لابصيرة له . وليسوا من رعاة الدين فى شىء لا ذا ولا ذاك . فمنهوم باللذة سلس القياد فى طلب الشهوات ، أو مُغْرًى بجمع الأموال والادخار منقاد لهواه أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة . اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه . بل لاتخلى الأرض من قائم لله تعالى بحجة إما ظاهرا مكشوفا وإما خافيا مقهورا لئلا تبطل حجج الله تعالى و بيناته ، وأين أولئك ؟ هم الأقلون عددا الأعظمون قدرا ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها نظراءهم و يزرعوها فى قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون . صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك أولياء الله من خلقه وعماله فى أرضه والدعاة إلى دينه ، ثم بكى وقال : واشوقاه إلى رؤيتهم) فهذه كلها أوصاف علماء الآخرة ، وهذه نعوت علماء الباطن وعلماء القلوب لاعلماء الألسنة .

وكذلك وصفهم سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه ــ فى وصف العلم بالله تعالى ــ فقال : « تعلموا العلم فإن تعلمه خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لايعلمه صدقة ، و بذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء والزين عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة يرفع الله تعالى به أقواما فيجعلهم الله فى الخير قادة وهداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتفى آثارهم ، وترمق أعمالهم ، و يقتدى بفعالهم ، و ينتهى إلى رأيهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم و بأجنحتها تمسحهم ، حتى كل رطب و يابس لهم مستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر ونعامه والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظُّلَم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكُّر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله تعالى و به يعبد و به يوحّد و به يتورع و به توصل الأرحام ، العلم إمام والعمل تابعه ، تُلْهَمُهُ السعداء وَتُحْرَمُهُ الأشقياء » . فهذه أوصاف علماء الآخرة ونعت العلم الباطن .

هذا ما أحببت أن أبين به صفات معلم الخير من كلام أئمة الصحابة رضوان الله عنهم ليتبين للمريد الصادق الأوصاف التى جمل الله بها عبدا من عباده كان ولاشك معلما للخير. وقد سبق لى وصف العلماء الربانيين وشرح علاماتهم الظاهرة والباطنة فى كتاب (أصول الوصول) عند ذكر علماء الآخرة وفى كتاب (معارج المقربين) عند ذكر العلم والإيمان. وفى (مذكرة المرشد والمسترشد)(١) عند ذكر المرشد ونوابه. فمن أراد المزيد فليراجع تلك الكتب، إلا أنى أرى من الواجب علىّ أن أشرح بعض مشاهد العلماء العارفين بإيجاز خصوصا فيما يتعلق بعلم المعرفة والإيمان واليقين.

العلم والإيمان:

اعلم ياأخى وفقك الله تعالى أن تلك العلوم العالية من أخص علامات العالم الربانى لأنها مواهب من الله تعالى يتفضل بها سبحانه فضلا منه وكرما، وأما علم الإيمان والتوحيد وعلم المعرفة واليقين فهو مع كل مؤمن موقن حسن الإسلام، وهو مقامه من الله وحاله بين يدى الله، ونصيبه منه فى درجات الجنة به يكون من المقربين عنده والعلم بالله تعالى والإيمان به قرينان لايفترقان، فالعلم بالله تعالى هو ميزان الإيمان به يستبين المزيد من النقصان، لأن العلم ظاهر الإيمان يكشفه و يظهره، والإيمان باطن العلم يهيجه و يشعله، فالإيمان مدد العلم و بصره، والعلم قوة الإيمان ولسانه، وضعف الإيمان وقوته ومزيده ونقصه بمزيد العلم بالله عزوجل ونقصه وقوته وضعفه. وفى وصية لقمان الحكيم لابنه: (يابنى كما لايصلح الزرع إلابالماء والتراب كذلك لايصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل) ومثل المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان كمثل النشاء من الدقيق من الحنطة، والحنطة تجمع ذلك كله. كذلك الإيمان أصل ذلك والمشاهدة أعلى فروعه، كالحنطة أصل هذه المعانى والنشاء أعلى فروعها. فهذه المقامات موجودة فى أنوار الإيمان يمدّها علم اليقين.

---

(١) تطلب هذه الكتب وغيرها من مؤلفات الإمام أبى العزائم من مكتبة دار المدينة المنورة ١١٠ شارع مجلس الشعب ــ القاهرة.

مقامات المعرفة والمشاهدة :

ثم إن المعرفة على مقامين : معرفة سمع ومعرفة عيان . فمعرفة السمع فى الإسلام وهو أنهم سمعوا به فعرفوه وهذا هو التصديق من الإيمان ، ومعرفة العيان فى المشاهدة وهو عين اليقين . والمشاهدة أيضا على مقامين : مشاهدة الاستدلال ومشاهدة الدليل عنها . فمشاهدة الاستدلال قبل المعرفة وهذه معرفة الخبر وهو فى السمع ، لسانها القول ، والواجد بها واجد يعلم علم اليقين من قوله تعالى : (مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدتُّ)(١) فهذا العلم قبل الوجد وهو علم السمع وقد يكون سببه التعليم . ومنه قوله ﷺ : (تعلموا اليقين) أى جالسوا الموقنين واسمعوا منهم على اليقين لأنهم علماؤه . وأما مشاهدة الدليل فهى بعد المعرفة التى هى العيان ، وهو اليقين لسانه الوجد والواجد بها واجد قرب . و بعد هذا الوجد علم من عين اليقين وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته ، ومنه قوله ﷺ : (فوجدت بردها فعلمت) فهذا التعليم بعد الوجد من عين اليقين باليقين وهذا من أعمال القلوب . وهؤلاء علماء الآخرة وأهل الملكوت وأرباب القلوب وهم المقربون من أصحاب اليمين . وعلم الظاهر من علم الْمُلْكِ وهو من أعمال اللسان والعلماء به موصوفون بالدنيا وصالحوهم أصحاب اليمين .

فضل اليقين :

جاء رجل إلى معاذ بن جبل فقال : أخبرنى عن رجلين أحدهما مجتهد فى العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتريه الشك فى أموره ، فقال معاذ : لَيُحْبِطَنَّ شكُّه أعمالَه . قال : فأخبرنى عن رجل قليل العمل إلا أنه قوىّ اليقين وهو فى ذلك كثير الذنوب ، فسكت معاذ ، فقال الرجل : والله لئن أحبط شكُّ الأول أعمالَ برّه ليُحبطن يقينُ هذا ذنوبَه كلَّها ، قال : فأخذ معاذ بيده وقام قائما ثم قال : ما رأيت الذى هو أفقه من هذا . وقد روينا معناه مسندا قيل : يارسول الله رجل حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين . فقال : (ما من آدمى إلا وله ذنوب ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضرّه الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر

---

(١) سورة النمل آية ٢٢ ـــ ٢٣ .

ذنوبه لو يبقى له فضل يدخل به الجنة) . وروينا فى حديث أبى أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (وَمِنْ أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعْطِيَ حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار) وفى وصية لقمان لابنه : يابنى لايستطاع العمل إلا باليقين، ولايعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولايقصر عامل حتى يقصر يقينه، وقد يعمل العمل الضعيف إذا كان متيقنا أفضل من العمل القوى الضعيف فى يقينه . ومن يضعف يقينه تغلبه المحقرات من الإثم . وقد كان يحيى بن معاذ يقول : إن للتوحيد نوراً وللشِّرك ناراً وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحِّدين من نار الشِّرك لحسنات المشركين .

مقامات اليقين :

واليقين على ثلاثة مقامات : يقين معاينة وهذا لايختلف خبره فالعالم به خبير وهو للصديقين والشهداء . و يقين تصديق واستسلام وهذا فى الخبر، والعالم به مخبرٌ مسلّم، وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ؛ كقوله تعالى جده : (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيمًا)(١) . وقد يضعف هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد و يقوون بوجودها وجريان العادة، ويحجبون بنظرهم إلى الأواسط و يكاشفون بها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخلق، و يكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم، و يكون من هؤلاء الاختلاف و يتلوّنون بالخلاف لتلوين الأشياء وتغيرها عليهم .

الأعمال القلبية الخاصة لمعلم الخير:

من الواجب عليك أيها المريد الصادق أن تعتقد أن له أعمالا قلبية خاصة به وأن ذرة صغيرة منها خير من أمثال الجبال الرواسى من أعمال الأبدان، فلا تتشبه به فى أعماله البدنية فإنه قد يقتصر على الفرض والسنة أمامك، فتظن بجهلك بأعمال القلوب أنه أقل عملا منك، أو تقلده فتترك الرغائب والمستحبات من الأعمال . كما حصل لبعض الأئمة رضى الله عنهم وقد نزل ضيفا على تلميذ له وكان التلميذ يقوم الليل أجمعه، فأحضر له الوضوء وانصرف عنه بعد نومه، وحضر إليه وقت الفجر فوجد العالم جالسا ووجد الماء

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٢ .

الذى أعده له كما هو، وكأنَّ العالم نام بعد أن صلى العشاء الأخيرة، فتعجب التلميذ من وجود الماء كما هو. وبعد أن توضأ الأستاذ وصلى الصبح أمره أن يحضر دواة وورقا وأملى عليه أحكامًا شرعية استنبطها من آيات القرآن، وشرح له عدة آيات فهمها من كتاب الله تعالى فى ليلته هذه. فصغرت أعمال التلميذ فى عينه وتحقق أن العلماء لهم أعمال قلبية خاصة بهم، وأن المريد الصادق يجب عليه أن يجاهد نفسه بالأعمال البدنية حتى يُمْنَح الفقه فى القلب ولديها يكون عاملا بقلبه وبدنه. وقد جهل كثير من المريدين أعمال القلوب عند أهل القلوب، وشهدوا من العلماء الاقتصار على الفرائض والمسنونات، ورأوا بعض العباد يصومون الدهر ويقومون الليل فتعجبوا لخفاء السبب. اجعل معلم الخير كحقيقة جميلة أمامك، وكن له كمرآة تنطبع فيها أخلاقه المحمدية وآدابه وعلومه وورعه ورحمته على إخوانه المسلمين، حتى تتكمل بكل معانيه وتكون له دالة على فضله وحجة له قائمة على علمه بأخلاقك الفاضلة وورعك عن الشبهات ومخالقتك للناس. واعلم حق العلم أنك إذا تهاونت فى شىء من ذلك كنت كساع فى ضرر نفسك وغيرك.

فضل العالم ومنزلته:

وإليك ياأخى ما ورد عن رسول الله ﷺ من الأحاديث الصحيحة: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ دلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجر فاعِلِهِ)(١) وقال ﷺ: (مَنْ سنَّ فى الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء)(٢) وقال ﷺ: (مَنْ يُرِدِ الله به خيرا يفقِّهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى، ولا تزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك)(٣) وقال ﷺ: (مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبَةَ من كُرَبِ الدنيا نفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسَّر اللهُ عليه فى الدنيا والآخرة، ومن

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة، وأبوداود فى الأدب، والترمذى فى العلم، وأحمد فى المسند ٤/١٢٠، ٥/٢٧٤، ٣٥٧.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب العلم، والزكاة، والنسائى فى الزكاة، وأحمد فى المسند ٤/٣٥٧، ٣٥٩.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب العلم، والخمس، والاعتصام، ومسلم فى كتاب الإمارة، والزكاة، والترمذى فى العلم، وابن ماجه والدارمى فى المقدمة، والموطأ فى القدر، وأحمد فى المسند ١/٣٠٦، ٢/٢٣٤، ٤/٩٢، ٩٣.

ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى مسجد من مساجد الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفت بهم الملائكة ، وذكَرهم الله فيمن عنده ، ومن بَطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه)(١) وقال ﷺ : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السّمٰوات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارا ولادرهما ، وإنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(٢) « حديث حسن ». وقال أبوأمامة الباهلى رضى الله عنه : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم ، قال رسول الله ﷺ : (فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلى على أدناكم) ثم قال رسول الله ﷺ (إن اللهَ وملائكتَه وأهلُ السمٰوات والأرض ــ حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ــ ليُصَلُّون على معلمِ الناسِ الخيرَ)(٣) وقال رسول الله ﷺ : (طلبُ العلمِ فريضةٌ على كُلِّ مسلمٍ) وقال ﷺ : (فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ)(٤) وقال ﷺ : (مَن خرج فى طلبِ العلمِ فهو فى سبيلِ اللهِ حتى يرجعَ)(٥).

هذه الأحاديث تبين لنا فضل العالم ومنزلته التى يجب أن ننزله فيها ، وهى شراب طهور للصادقين من المريدين يتناولون منها أسرار الواجب لمعلم الخير والآداب الواجبة له ، فإن رسول الله ﷺ حصر الخير كله فى العلم ولاعلم إلا بمعلم ، فكان الخير جميعه لاينال إلا بمعلم .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المظالم ، ومسلم فى البر والذكر ، وأبو داود فى الأدب ، والترمذى فى الحدود ، والبر ، وابن ماجه فى المقدمة ، وأحمد فى المسند ٢ / ٩١ ، ٢٥٢ .

(٢) أخرجه أبوداود والترمذى ، والبخارى فى كتاب العلم ، وأحمد فى المسند ٤٥٢/٥ ، والنسائى فى النكاح .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم ، وابن ماجه والدارمى فى المقدمة .

(٤) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم ، وابن ماجه فى المقدمة .

(٥) أخرجه الترمذى فى العلم ، وابن ماجه فى الجهاد .

الواجب فى صحبة العالم الربانى الوارث لرسول الله ﷺ :

يجب عليك ياأخى أن تنتهز فرص انشراح صدر معلم الخير وتسأله بآداب متعلم وسلوك متفهم عما لابد لك منه ، وأن تلازم مجلسه ، وأن تنافس فى القرب منه ، فإن كنت جيد الفهم والحفظ فاحفظ ما يلقيه عليك من العلوم النافعة ، أو اجتهد أن تكتب ذلك إن لم تكن جيد الحفظ ، ولكن احذر أن تطلع عليه غير أهله إن كان من أسرار الحكمة أو من المكنون حتى تضعه فى صدور أهله ، وإن كان من الأحكام أو من الإنذار أو من التبشير مما ينفع إعلامه ولايضر ، يجب عليك ياأخى أن تذكّر به إخوانك المؤمنين . ويجب عليك أن تعين معلم الخير بنفسك وبمالك و بجاهك حرصا على دوام صفاء قلبه ، لأن عناءه فى طلب الرزق أو من الخوف من الخلق يشغل قلبه و يضيّع وقته فيضيع العلم ، واجعل صحبتك له خالصة لله سبحانه ولرسوله ﷺ ، وجاهد نفسك حتى تذوق حلاوة أنك بصحبة العالم الربانى كأنك فى معية رسول الله ﷺ . لأن العالم الربانى وارث رسول الله ﷺ ، والوارث ينفق من مال مورثه ، وميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام العلم والحكمة . وتحقق أيها المريد المخلص أن العالم الربانى أنزله رسول الله ﷺ منزلة الأخ لجنابه ﷺ كما ورد بسند الإمام مالك فى الحديث الطويل قوله ﷺ : (واشوقاه لإخوانى الذين لمّا يأتوا بعد ، إلى قوله ﷺ : يحيون سنتى بعد مواتها)(١) وسر ذلك ياأخى والله أعلم أن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ خاتم النبيين فلا نبى بعده ﷺ ، ومن إكرام الله تعالى لأمة حبيبه ﷺ أن جعل العلماء الربانيين ورثة لرسوله ﷺ ، يقيمون حجج الله سبحانه ويجددون سنن رسول الله ﷺ . ومن الواجب عليك ياأخى لمعلم الخير أن تنشر محاسنه بين إخوتك المؤمنين بحالة متوسطة لا تنفر القلوب منه بالمبالغة ، ولا تفسد القلوب بأن تذكر ما أكرمه الله به من الكرامات وتنسى ما منّ الله به عليه من العلم والأخلاق والورع والتواضع والإخلاص .

واعلم ياأخى أنك كما لايمكنك أن تتعلم الأحكام الظاهرة إلا بمعلم عالم بها حق ، فكذلك ياأخى لايمكنك أن تتعلم علوم اليقين وأسرار أهل التمكين وتذوق حلاوة التوحيد

---

(١) عند الترمذى فى العلم ، وابن ماجه فى المقدمة بلفظ : (من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى فقد أحبنى) ومن طريق رزين على ما فى تيسير الوصول بلفظ : « من أحيا سنة من سنتى أميتت بعدى فقد أحبنى ومن أحبنى كان معى ») تيسير الوصول ٣ / ١٧١ -

وتشهد أنوار التنزيه والتفريد وتتجرد من أحوال الإطلاق والتقييد إلا بالعالم الح
الربانى ، الذى يشرح لك أسرار العلوم و يبين لك غوامض الفهوم ، فلا تك ممن حجبه
المعاصرة فحرم إمداد الحىّ القيوم ، واحتقر أهل زمانه واستصغر أهل عصره ، فإن فضل الل
لايقيد بزمان ومكان . ما يضرك يا أخى لو أنك سلّمت للعالم فسَلِمْت من عقوبة الإنكار
أو أقبلت عليه فواجهك الله بالأنوار ؟ وأهم واجب عليك لمعلم الخير يا أخى أن يكون حبك
له وحضورك عنده وإقبالك عليه و بذلك له خالصا لوجه الله الكريم وابتغاء فضله ورضوان
سبحانه وتعالى ، ورغبة الانتشال من أوحال التوحيد والسلامة والعافية من أمراض الجهل
وآلام الغفلة ، عاكفا بقلبك وجسمك عليه بإخلاص النية وصدق الطوية ، لأن من صحب
العارف لغرض من أغراض الدنيا أو حظ من حظوظ نفسه عجل الله له ما يريد وحرمه أجر يو
القيامة سر قوله ﷺ : (من تعلم علما مما يُبْتغى به وجه الله لايتعلمه إلا ليصيب به غرضا
من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة « يعنى ريحها ») . واحذر يا أخى أن تصحب العالم الربانى
وتتلقى العلم منه لمجادلة العلماء ومعارضة السفهاء وقهرهم لتعظم فى أعين الناس وترفع
درجتك عندهم ، فإن ذلك ربما أدى إلى سوء الخاتمة . قال ﷺ : (من طلب العلم ليجادل
به العلماء أو ليمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار) .

فإذا منّ الله عليك يا أخى بالعلم فأخلص لله سريرتك عاملا به بصدق وعلمه لإخوتك
المؤمنين ابتغاء وجه ربك العظيم ، زاهدا ما فى أيديهم غير ملتفت إلى ثنائهم عليك
وإقبالهم ، ولا ذمّهم لك أو إدبارهم عنك . واسمع يا أخى هذا الحديث الصحيح ، قال ﷺ :
(إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتي به الله فعرّفه نعمه
فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ،
ولكنك قاتلت لأن يقال رجل جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى
النار . ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت
فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت
العلم وعلمته ليقال هو عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب
على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به
فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها

إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار)(١) .

واحذر أيها المريد الصادق أن تجعل نعم الله عليك سببا فى العذاب يوم القيامة باستعمالها فى غير ما أحب الله تعالى أن تستعمل فيه ، فإن من المريدين من إذا أحب العالم الربانى دعاه حبه لجهله إلى المبالغة فيه وانتقاد من سواه والاعتراض على غيره فيكون قد فتح باب فتنة ، والمريد الصادق يتأدب بآداب القرآن فإنه إذا جلس يذكر محاسن المرشد يجب عليه أن يحافظ على كرامة العلماء ، فإذا ذكر أمامه عالم من السابقين أو المعاصرين أثنى عليه بما يعلمه اقتداء بالقرآن المجيد سر قوله تعالى : (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(٢) ليرضى الله سبحانه ورسوله ﷺ ، ويحصن قلوب إخوانه من دسائس الشيطان الرجيم . فإنه إن لم يعمل ذلك تمكن الشيطان منه ومن إخوته المؤمنين وجعلهم أعداء لمعلم الخير، وقد بينت مراتب الرجال والواجب على المريد للمرشد والواجب على نواب المرشد فى كتاب (مذكرة المرشدين والمسترشدين) بما أغنى عن الإطالة فى هذا المختصر، على أنى يسرنى أن يكون كل فرد من أفراد المسلمين ﷺ لكل العلماء والمرشدين معينا لهم فرحا بهم ، ليتلقى عنهم الخير و يترك أعمالهم التى تخالف الشرع الشريف لأن الدعاة إلى الخير ليسوا معصومين . وما أضرنا ـ جماعة المسلمين ـ إلا التفرقة والاختلاف والإنكار والجدل ، ورُبَّ رجل مسكين تنكر عليه وتعارضه وهو عند الله عظيم ، وماذا يضرنا لو أننا تلقينا العلم من كل عالم ونتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ ، فإن العلم كله فى العالَم كله وقد قال الله تعالى : (وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)(٣) والله سبحانه وتعالى يوفقنا جميعا للعمل بما يحب و يرضى و يفهّمنا أسرار كتابه ، ويجملنا بالعمل بسنة رسوله ﷺ ، إنه على كل شىء قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وورثته والتابعين .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة ، والنسائى فى الجهاد ، وأحمد ٣٢٢/٢ .
(٢) سورة الحشر آية ١٠ .
(٣) سورة طه آية ١١٤ .

الباب الرابع

الجهــاد والمجــاهدة

الجهاد :

الجهاد بذل ما فى الوسع فى سبيل الله تعالى ، وهو مقول على معنيين الأول إعلاء كلمة الله تعالى . الثانى الرباط لحفظ ثغور المسلمين ودفع العدوّ عند هجومه على جماعة المسلمين ، قال الله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)(١) وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من آمن بالله و برسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها ، قالوا : أفلا نبشر الناس)(٢) وقال ﷺ : (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة)(٣) وقال : (انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لايخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة) وقال : (والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل) وقال : (رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها)(٤) عن أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : جاء رجل بناقة مخطومة فقال : هذه فى سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : (لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة)(٥) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة الصف آية ١٠ ــ ١٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، والتوحيد ، وأحمد فى المسند ٢/٣٣٥ ، ٣٣٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، والترمذى فى الجنة .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان ، والنسائى فى الجهاد والإيمان ، وأحمد فى المسند ٢/٣٢١ ، ٣٨٤ .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الوصايا ، والجهاد ، وأبوداود فى المناسك ، والنسائى فى الأجناس والدارمى فى الوصايا .

(عينان لاتمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله)(١) وعن معاذ عن رسول الله ﷺ قال: (الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة و ياسر الشريك واجتنب الفساد فإن نومه ونبهه أجر كله، وأما من غزا فخرا ورياء وسمعة وعصى الإمام وأفسد فى الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف)(٢). عن عبدالله بن عمرو أنه قال: يارسول الله أخبرنى عن الجهاد، فقال: (إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مُرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا، ياعبدالله بن عمرو على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تيك الحال).

كل مسلم مطالب بالجهاد:

والجهاد تعتريه أحكام شرعية: فقد يكون فرض عين وقد يكون فرض كفاية وقد يكون سنة مؤكدة. تفصيل ذلك مبين فى كتب الفقه، وما من مسلم إلا وهو مطالب بالجهاد بقدره، إما بإعداد المعدات أو بها و بنفسه. فعلى العالم المتفنن أن يجتهد فى اختراع ما به قوة سلطان المسلمين، وعلى التاجر أن يجتهد فى جلب ما به قوة المسلمين، وعلى المزارع أن يعد ما به مساعدة المجاهدين. فكل مسلم فى كل نَفَسٍ يجب أن يكون مجاهدا فى سبيل الله، وليس الجهاد قاصرا على مجاهدة العدو فإن من جهز غازيا كأنه جاهد فى سبيل الله. وعلى معلم الصبيان أن يبث فيهم روح الغيرة على الدين والمدافعة عنه وعن أهله. والجهاد هو العبادة التى تنبىء بكمال الإخلاص لله تعالى والتصديق لما بشر الله به. وقد كان النساء يجاهدن فى سبيل الله بما استطعن إما بالْغَزْلِ أو بالنسيج أو بتجهيز الأغذية أو بضماد الجروح أو بنقل الماء حتى كانت المرأة تقص شعرها ليكون قيدًا لدابة يجاهد عليها مسلم فى سبيل الله لتكون جاهدت، حتى كان كل مسلم وكل مسلمة فى كل نفس يرى نفسه مجاهدا بأى معنى من معانى الجهاد، حتى الأعمى فإنه كان يتوجه إلى بيوت إخوانه المجاهدين ليقضى لهم حاجتهم ليُكْتَب عند الله مجاهدا. والجهاد يُنْتِج نتيجتين حقيقيتين: الأولى: علو الكلمة وعز أهلها والغنيمة. الثانية: الحياة الطيبة فى فردوس الله الأعلى والفوز برضوانه الأكبر. ولم تر عينى ولم تسمع أذنى بتجارة تربح هذا الربح أبدا إلا الجهاد فى سبيل

---

(١) أخرجه الترمذى فى الفضائل، والجهاد.
(٢) أخرجه أبوداود فى الجهاد، والنسائى فى البيعة، والجهاد، والدارمى فى الجهاد، وأحمد فى المسند ٥/٢٣٤.

الله ، وإنى على يقين أن أصغر مسلم يعلم أن كلمة الله لا تعلو إلّا به ، وأن العز الحقيقى لايكون إلا بالجهاد ، ولاشرف ولامجد أعلى من هذا ، أسأل الله تعالى أن يكشف لقلوبنا حقيقة الجمال الربانى الذى به نتجذب بكليتنا إلى الرضوان الأكبر .

المجاهدة :

قال الله تعالى : (وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)(١) وقال تعالى : (ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)(٢) وعنه ﷺ أنه قال : (جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قيل : يارسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد المرء هواه) وقال : ﷺ : (ليس الشديد بالصُّرَعَة ، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب)(٣) والمجاهدة بذل الوسع فى فعل ما يرضى الله تعالى وترك ما يسخط ، وبالمجاهدة تحصل رياضة النفس . ومن زين ظاهره بالمجاهدة زين الله باطنه بالمشاهدة ، ومن لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من عَرْفِ الطريقة شمَّةً . وقال سهل بن عبدالله : ما عُبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى ، ومن جعل زمامه فى يد الشرع قاده إلى النور ، ومن جعل زمامه إلى الهوى قاده إلى الظلمة . وكذلك قال الله تعالى : (ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ ...)(٤) الآية . وورد فى الحديث أن المعاصى إذا كثرت يختم لصاحبها بالكفر والعياذ بالله تعالى .

وممن أقيم فى المجاهدة من الصحابة رضوان الله عليهم عبدة بن هلال ، وكان قد أقسم على نفسه أن لايشهد عليه ليل بنوم ولاشمس بظل أبدا فأقسم عليه عمر أن لاينهك نفسه و يرفق بها . وقال إبراهيم بن أدهم : لاينال الرجل رتبة الصالحين حتى يجوز ست عقبات ، الأولى : يغلق باب النعمة و يفتح باب الشدة . الثانية : يغلق باب الراحة و يفتح باب التعب . الثالثة : يغلق باب العز و يفتح باب الذل . الرابعة : يغلق باب النوم و يفتح باب

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى البر ، والموطأ فى حسن الخلق ، وأحمد فى المسند ٢/٢٣٦ ، ٢٦٨ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

السهر. الخامسة : يغلق باب الغنى و يفتح باب الفقر. السادسة : يغلق باب الأمل و يفتح باب الاستعداد للموت. والمجاهد لنفسه فى رضاء الله تعالى تعترضه المحن والشدائد و يتعاهد بالبلايا حكمة من الله تعالى لصلاح العبد ولطفا به فى آخرته، ليعوِّضه بذلك بالملك العظيم وسعادة الأبد إن صبر ورضى. وفسر العلماء بالله تعالى المحن بستة أشياء، الأول : الأمر والنهى مع غيبوبة الثواب والعقاب. الثانى : تركب الهوى. الثالث : تطيع الشهوات. الرابع : تسليط الشيطان. الخامس : خلق المشتهيات. السادس : تحببه للكسل والراحة.

الحكمة فى الإبتلاء والإمتحان :

والحكمة فى الابتلاء والامتحان شيئان : أحدهما : التمييز بين المطيع والعاصى بالفعل ليظهر فى الدنيا من المطيع طاعته ومن العاصى عصيانه، قال الله تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ)(١) أى حتى : نعلم ذلك منكم واقعا لأن الموجود قبل الابتلاء إنما هو العلم بأنه سيوجد من العبد طاعة أو عصيان، وعند الابتلاء يحصل العلم بوجود الطاعة أو المعصية من فاعلهما. والثانى : ليستوجب من صبر الثواب ومن جزع العقاب. وقال بعض أهل المعرفة : البلوى أدب للظالم، وسياسة ورياضة للتائب، وتفقد وتطهير للأولياء، وعبادة للأنبياء، وشدد الله البلاء على الأنبياء والخواص من أتباعهم ليكونوا دائما فى التضرع إليه والمناجاة معه، ولأن الله تعالى يبغض الدنيا فامتحن أولياءه فيها لئلا يميلوا إلى مبغوضه. ومن المحن أن يجعل الله الطاعة ثقيلة والمعصية خفيفة، قال ﷺ : (حُفَّتْ الجنةُ بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات) والحكمة فى ذلك كما قال سيدنا على رضى الله عنه : (لئلا يأتى بابه كل سفلة) وقال بعضهم : ماالذى يقطع العبد عن الله تعالى بعد وصوله إليه ؟ فقال : الواصل على ثلاثة أقسام : واصل إلى الآخرة يقطعه الميل إلى الدنيا، و واصل إلى الدرجات والأحوال يقطعه حب الشهوات فى الآخرة، و واصل إلى الله ولامطمع للقطع فيه لقوله تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)(٢) وفى الخبر عن بعض الأكابر : (ما رجع من رجع إلا من الطريق ولو وصلوا مارجعوا).

---

(١) سورة محمد آية ٣١.

(٢) سورة النحل آية ٩٩.

واعلم أن هذا الزمان لايصل أحد فيه إلى شيء من الحقيقة إلا بذبح نفسه بالصبر، وقتلها بالجوع والفقر والذل، وتقريبها بالذكر والعلم، وهدم الدنيا باليقين والزهد، وعمارتها بالمعرفة والطاعة، ومجاهدة الأعداء واستئصالهم وهم الهوى والشهوات والشيطان.

واعلم أنك مطبوع على أمور منها حسنة ومنها سيئة، فأعدى أعدائك سيئات طباعك وأولى أوليائك حسناتها، فقابل السيىء من طباعك بالحسن منها، واطلب من الله تعالى المعونة والصبر والنصر فقد بليت فى حربها ومكايدها وجهادها بحرب لاحرب أنفع منه لك، فإن رزقت الظفر وإلا فأنقص ما عليك الهزيمة منها فقد كان النبى ﷺ يأمر أصحابه بالجد والجهاد فى العبادة وكان يداويهم بالدواء البالغ النافع، فمن رآه قد أنهك نفسه فى العبادة أمره بالرفق بنفسه فقال لحنظلة بن الراهب لما قد أنهك بالعبادة: (ياحنظلة ساعة وساعة) وقال لغيره: (جدوا واجتهدوا). والمجاهدة سفينة النجاة تنتهى بصاحبها إلى بر السلامة، ومجاهدة الصديقين مع الخطرات، ومجاهدة الأبدال مع الفكرات، ومجاهدة الزهاد مع الشهوات ومجاهدة التائبين مع الزلات.

المسارعة لنيل السعادة:

اعلم أن السعادة التى تجاهد لنيلها والشقاوة التى تجاهد لنفسك على النجاة منها لانهاية لهما ولا انقضاء ولا آخر، بل ذلك أبد الآباد، لايتصرم بتصرم الأحقاب والآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة من الدخن من مشرقها إلى مغربها، وقدرنا طائرا مختطفا فى كل خمسمائة ألف سنة حبة واحدة من ذلك الدخن، لفنى الدخن ولم ينقض ذلك الشقاء ولا ذلك النعيم، لأن الأبد لاينقضى. وهذه الشقاوة الدائمة فيها من أنواع البلايا والآلام والعقوبات والحسرات ما قد شرحه الله تعالى فى كتابه وأخبر به نبيه ﷺ مجملا ومفصلا، وأما السعادة فهى لذة وسرور بلا كدورة، وغنى بلا فقر، وكمال بلا نقصان، وعزٌ بلا ذل، وراحة بلا تعب، وبالجملة فهى كما أخبر الله تعالى فى كتابه وقال تعالى: (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ)(١) وقال تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ)(٢) وكما قال ﷺ: (إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن

(١) سورة الزخرف آية ٧١.
(٢) سورة السجدة آية ١٧.

سمعت ولاخطر على قلب بشر)(١) . فمثل هذا لايحتاج إلى الإحثاث فى طلبه و يقبح الفتور عنه . إذ كل عاقل مسارع إلى أقل منه لايصرفه عنه كون الطريق إليه متوعرا ، ويحوج إلى ترك لذات الدنيا واحتمال أنواع من التعب ، فإن مدة الدنيا واحتمال التعب فيها بالمجاهدة والعبادة قصيرة والغاية من اللذات والشهوات فيها قليل ، تنقضى وتنصرم عن قريب ، فإن مدة عمر الإنسان فى الدنيا قصيرة بل ما يبقى من عمر الإنسان فى الدنيا بالإضافة إلى ما مضى منها قليل جدا . وقال ﷺ : (بعثت والشمس فى أطراف النخيل)(٢) والعاقل يترك القليل العاجل لأجل تحصيل أضعافه فى الآجل . ولذلك ترى الخلق فى التجارات والحرف يتحملون التعب والنصب فى الحال طمعا فى حصول منفعة وراحة فى المستقبل تزيد على ما يفوتهم فى العاجل زيادة محدودة ، فكيف لايسمحون بترك لذة عاجلة للتوصل إلى نعيم الأ بد وسعادة السرمد ؟ ولكن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة إنما هو لضعف إيمانهم باليوم الآخر ، وضعف إيمانهم سببه الغفلة عن الفكر فى المعاد وعن شهود الوعد والوعيد ، وتلك الغفلة مستمرة مستغرقة لأ وقاتهم ، لاينتبهون منها مادامت متوالية وهى كذلك . وليس لهم واعظ مخلص ولا مذكِّر زكى القلب لأن البلاد قد خلت من مثل هذا ، ولو فرض و وجد عالم زكى القلب يذكر الناس و يعظهم لم يلتفت إليه ، وإذا التفت إليه وأذعنت النفس للقبول منه والعزم على التوبة هجم عليها عقيب ذلك عوارض الشهوات ومحبة الراحة والكسل ونيل اللذات وقضاء الأ وطار ، فعارضت تلك الشهوات ذلك الباعث الضعيف على التوبة فمحته وأزالت أثره وأعادت حجاب الغفلة ، و يكون ذلك دأب باعث المعاصى مع باعث التوبة والطاعة أبدا مادام الإنسان حيا ، لايزال هذا دأبه إلى الموت وعند ذلك لايبقى له إلا التحسر بعد الفوت ، ولا يغنى عنه التحسر شيئا . وكان النبى ﷺ كثيرا ما ينذر قومه وعشيرته و يوقظهم من نوم الغفلة و ينذرهم بنذير الله و يقول : (يامعشر قريش — أو نحو ذلك — اشتروا نفوسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، ياعباس بن عبدالمطلب لاأغنى عنك من الله شيئا ، يافاطمة بنت محمد لاأغنى عنك من الله شيئا) وعنه ﷺ : (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم ، وما من أحد إلا وله شيطان وإن الله أعاننى على شيطانى حتى ملكته) .

---

(١) أخرجه الدارمى فى كتاب الرق وأحمد فى المسند ٣١٣/٢ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ .

(٢) وعند البخارى فى كتاب الرق ، والطلاق ، والتفسير، والجمعة ، ومسلم فى الجمعة والفقه ، وابن ماجه فى المقدمة ، والفقه ، والدارمى فى الرق ، وأحمد ٣٠٩/٤ ، ٩٢/٥ بلفظ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» .

التميز بين دعوة العقل ودعوة الهوى :

اعلم أنه يلتبس على بعض الناس دعوة العقل بدعوة الهوى ، فيظن أنه منقاد للعقل متبع دواعي الشرع وهو فى الحقيقة شيطان مريد لأنه ما تبع إلا هواه ، وما انقاد إلا لشهواته .. وهو يتعلل لأغراضه لأنها من الدين ، وأن طلبه لها من الدين ، حتى أن جماعة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والقضاء والفتيا وتدريس العلوم والخطابة وأنواع الرياسة وهم فيه متبعون للهوى ، و يزعمون أن باعثهم الدين ويحركهم لهذه الأمور طلب الثواب ومناقشتهم فيها من جهة الشرع . وهم فى ذلك مغرورون . و يكشف لهم عن زلتهم وغرورهم أن الواحد منهم إن كان يفعل لله تعالى وقصده دعوة الخلق إلى الله تعالى وإرشادهم ونصحهم ، فلايغتم ولايسوءه إذا جاء مكانه واعظ غيره أو قاض غيره أو متصد غيره ممن هو أحسن سيرة منه وأكثر منه علماً وأنصح للناس وتضاعف إقبال الناس عليه ليفرح به و يسر بوجوده ، و يشكر الله تعالى على سقوط هذا الفرض عنه بغيره ومن هو أولى منه به فإن كان كذلك فهو صادق وهيهات أن يكون كذلك . فإن قلت : فإذا كان لايأمن مثل هذا التلبيس والانخداع ببروز الشيطان وغروره كما حكيت عن هؤلاء المغرورين فبم نميز بين دعوة العقل ودعوة الهوى ؟ قلنا الذى ينبغى أن يرجع إليه عند هذا التحير أن يعلم أن العقل فى أكثر الأمور يشير بالأصلح للعواقب وإن كان فيه ثقل أو مشقة فى الحال ، والهوى يشير بطلب الراحة وترك التكلف ، فمهما عرض لك أمران ولم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكره لا بما تهواه ، فأكثر الخير فيما يكرهه الإنسان ، قال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(١) وقال ﷺ : (حُفَّتَ الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات)(٢) .

و بالجملة فكل ما سعت إليه نفسك مما فيه لذة ووطر وراحة ورفاهية وحط الكلف فى الحال فاتهم نفسك فيه فإن حبك الشىء يعمى و يصم ، وما يترجح فى قلبك من الإقبال على العبادة والاحتراز عن خطر الآخرة واجتناب مخالفة الله تعالى فى أمره ونهيه فهو من إشارة العقل فخذ به والزمه .

---

(١) سورة النساء آية ١٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة ، وأبوداود فى السنة ، والترمذى فى الجنة ، والنسائى فى الإيمان ، والدارمى فى الرق ، وأحمد فى المسند ٢/٢٦٠ ، ٣٣٣ ، ٣/١٥٣ ، ٢٥٤ .

المجاهدة لا تتم إلا بالتثبت ولا تتحقق إلا بالصبر:

كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على غاية ما يمكن من المجاهدة لأنفسهم مع أنهم مقطوع لهم بالفوز والدرجات العالية يأمرون أممهم وأتباعهم بالمجاهدة لأنفسهم ، وكان فى التابعين المجاهدون الصابرون ، وبلغ من أمر جماعة من الصحابة فى المجاهدة مبلغا عجز عنه من جاء بعدهم من الخلق . هذا ولا تتم المجاهدة إلا بالتثبت ولا تتحقق إلا بالصبر، فإذا عرض للمريد عارض الهوى والشهوة احتاج إلى التثبت والصبر. أما وجه احتياجه إلى الثبات فلأن الثبات حاجز بين العبد وبين المعصية ، ويقوى عند الثبات الخوف بالوعيد والرجاء والحياء من الله تعالى لعظمته وجلاله ونعمه وإحسانه . وحقيقة التثبت هو التوقف والتأنى قبل الفعل ليتبين للفاعل غوائل الفعل وقبح عاقبته . وأقوى المتثبتين وأشدهم رعاية لحقوق الله تعالى ومراقبة لعظمته وجلاله من راعى أحكام الله تعالى المتعلقة بأفعاله عند وقوع الخواطر الداعية إلى العزم والأفعال ، ولم تعمه الشهوة ولم تستهوه اللذة . وحديث النفس معفوٌ عنه شرعا لقوله ﷺ : (عُفِىَ عن أمتى ما حدَّثت به نفوسَها) . والذى يعصى المكلف به هو ترك التثبت فى الفعل المحرم عند وقوع العزم عليه ، وكذلك يعصى بترك التثبت فى الفعل الذى يجهل حكمه ، ويعصى بعدم التثبت عند الشروع فى الفعل والأخذ منه والاسترسال فيه بطريق الأَوْلى . وأما وجه احتياج المجاهد إلى الصبر فظاهر لأن الله تعالى خلق الإنسان مطبوعا على الشهوات والميل للذّات والنفرة عن كل مؤلم ومشق ، فيحتاج المجاهد لتثبته إلى الصبر كما يحتاج إلى التثبت قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ)(١).

مجاهدة النفس بالرفق والتدريج :

واعلم أنه يجب أن تكون المجاهدة والرياضة بالتنقل والتدريج والرفق بالنفس شيئا فشيئا ، ولا يهجم عليها بما يشق عليها من الأعمال فتنفر منه نفورا شديدا يخشى منه الترك والخروج بالكلية ، فيجب الرفق بها إلى أن تتعود ذلك . وهذا هو الذى نبه عليه عليه الصلاة والسلام بقوله : (إن المُنْبَتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) فإذا أراد المجاهدة نقل نفسه عن

---

(١) سورة النازعات آية ٤٠ ـ ٤١ .

عوائدها المذمومة إلى المحمودة ، فليمنعها من الفعل المذموم ، وليذكرها ما ورد فيه من الوعيد على فعل المذموم والوعد على فعل المحمود ، فإن ثقل عليه ذلك قطع عنها لذاتها الناجزة وداوى نفسه بترك الشهوات العاجلة ، ومن عزم على تحصيل مقام السخاء مثلا فطريقه إلزام نفسه القيام بإخراج الواجب من الزكاة والنذور والكفارات ونفقة الأب والأولاد الصغار والزوجة وغيرهم من العيال ، فإذا قام بذلك بسهولة عوّد نفسه الإنفاق فى المندوب . وإذا وصل إلى ذلك آثر على نفسه ذوى الحاجات ، ثم ينتقل إلى الزهد فى حظوظ نفسه فى الترفُّهِ والراحات . فهذه طريق المجاهدة والرياضة يُدَرِّج العبد نفسه فى سلوك الطريق إلى مولاه مع الرفق بنفسه . والانقطاع إلى الأعمال دفعة وإخراج ما فى اليد دفعة واحدة منهيٌّ عنه ، فإن قيل إن الصدّيق رضى الله عنه أتى بجميع ماله إلى النبى ﷺ ليخرجه فى سبيل الله ، قلنا : ذلك لأن الحاجة كانت إليه متأكدة إذ كان ذلك وقت فاقة وضرورة و بالمسلمين حاجة إليه ، وأيضا فإن الصدّيق كان عنده من الوثوق والصبر واليقين بالله تعالى ما ليس عند غيره . ولابأس أيضا بأن يرقّع المجاهدة لنفسه بالعبادة بشىء من المباحات لِيَقْوَى بذلك على الطاعات ، و ينتفى عنه الملل و يزول عنه السأم . قال علىّ رضى الله عنه : (روّحوا النفوس فإنها إذا كرهت عميت) والشريعة جاءت بمداواة النفوس المريضة و تطبيب القلوب المعلولة .

مجاهدة الخواص :

لما كانت المجاهدات إنما قررها الشرع الشريف لمداواة النفوس وسياستها حتى تنطبع على الجميل الشرعى ، وتتقلل من الدنيا فراغا للقلب من الاشتغال بغير ما خلق الإنسان له ، كان ولا بد من السير مع النفس برفق حتى لا تملّ ولا تنقطع ولا تتعاصى على المريد ، فإذا صفت النفس وطهرت من لقسها وأشرقت عليها أنوار ملكوت الله الأعلى تميزت لها المراتب وظهر الفانى والباقى وما ينفع فى الآجل وما يضر ، انجذبت بالكلية إلى الخير بحسب مقامها الذى وصلت إليه . فقد يكون الخير المقصود لها الجنة فتزهد فى الدنيا وما فيها إلا ما يوصل للمقصود ، وقد يكون المقصود مقعد صدق فتقبل بالكلية إلى نيل الكمالات الروحانية بالعلم والمعرفة ، وقد يكون المقصود الرضوان الأكبر فتنصب بكليتها على الذكر الأكبر . وفى كل مقام من المقامات تتخلى عن مألوفاتها مما لايسع هذا المختصر شرحه ، وقد يكون المقصود النظر إلى الوجه المقدس فيصغر فى عينها كل شىء . ومراتب المجاهدات تكليف فتعريف

فمجاهدة فقربات فتلذذ بالشدائد والمتاعب ، وقد ألمعنا إلى نموذج من هذا فى كتاب (شراب الأرواح) وفى كتاب (مذكرة المرشد والمسترشد) عندما شرحنا أحوال المسلم والمؤمن والمحسن والموقن . وفى كتاب (أصول الوصول) عند مقام التوكل والرضا والتفويض . فإذا انتقل المريد من مقام التكليف إلى التعريف بذل النفس والنفيس فى طلب الرجل ليتلقى عنه أسرار المعرفة ، فإذا ظفر بالرجل أبدل صفاته الأولى بصفات أخرى . فأبدل العز بالذل للرجل ، والأمن بالخوف ، والعلم بالجهل والتكبر بالتواضع حتى إذا رآه معارفه أنكروا عليه وشنعوا عليه . وربما خرج الرجل من ماله وجاهه لمن يعرّفه ربه متلذذا فرحا . ولكن لايحسن هذا إلا لمن انتقل من التكليف إلى التعريف واستعدت نفسه لتلقى أسرار الحكمة وغوامض أسرار الغيوب . ويكون النظر فى وجه الرجل خير له من عبادة سبعين سنة . فكيف لايكون خيرا من ماله ؟ .

ولايكون ذلك حقا إلا إذا كان الرجل رجلا حقيقيا وارثا لرسول الله ﷺ علما وعملا وحالا وخلقا ، حتى تكون الصحبة صحبة لرسول الله ﷺ ، والمواجهة مواجهة لرسول الله ، والسير على صراط الله ، والعمل على سنة رسول الله ، والحال من روحانية رسول الله ﷺ . عند ذلك يحلو التفضّح ويجمل خرق العادة من مألوفاته وأحواله ، ويطيب تحمل الشدائد بلذة واستقبال المصائب بسرور ، والإعراض عن الجاهلين ومخالفة النصحاء الذين لايعلمون حاله ولم يذوقوا مذاقه . والأجمل عندى بهذا المريد الصادق أن يستر نفسه من الخلق ويجتهد فى مداراتهم فراغا لقلبه من الاشتغال بهم ، وسترا له عن أعين عمياء عن شهوده ، وقلوب غلف عن استحضار أحواله ، وآذان صماء عن سماع الحكمة . وإلا كان ذلك شغلا لقلبه وضررا لغيره . ولالوم على رجل نظر بعينى رأسه هوة أمامه تسكنها الأفاعى وتأوى إليها الحشرات المضرة ففر منها إلى مارآه أمنا وسلامة ، وحارب من جذبه إليها ولام عليه على الفرار منها ، وليس من شهد بعيون بصيرته كمن شهد بعيون بصره ، وتلك الأحوال العالية والأسرار الغالية لاتكون إلا على يدى الوارث الكامل ، ومن الأفراد المؤهلين للوراثة المحمدية . وليست دعوى وتقليدا ولا تكلفا وشهرة . ومن ادعاها أو تكلفها لايلبث إلا ريثما يرجع إلى ما كان عليه . وما انقطع من انقطع بعد الوصال وإنما انقطع من الطريق . وإذا وقعت العين على العين وزال البين من البين ، وشهدت عين القلب مشاهد عليين النورانية ، وأعلى عليين سر تنزلات الجمال الإلهى ، وظلمات أسفل سافلين هاوية السخط والقطيعة والعذاب الأليم ، كيف يرجع بعد وصله ؟ أو كيف يرتد بعد قربه ؟ وقد بشرهم

الله بقوله سبحانه وتعالى : (أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)(١) وشنع على قوم ارتدوا بعد إسلامهم لأنهم لم يصلوا بقوله سبحانه : (لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ)(٢).

أئمة أهل المجاهدة :

أقمار أهل الصُّفَّة الذين كان الرجل منهم رضى الله عنهم ينصرع وهو فى الصلاة من الجوع مع أنه يمكنه أن يعمل عملا يكفيه و يكفى مائة معه ، ولكنه شهد من مشاهد القرب وسمع من أسرار الحكمة القدسية ما أفناه عن كل لذة زائلة و بهجة فانية ، ولكن الله تعالى حفظهم بالأنوار المحمدية الإلهية من لمة الشيطان ووسوسة الخناس حتى زمان التابعين الذين شهدوا أنوار مواجهات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصحابة ، واستمدوا من الفيض المحمدى المفاض على النفوس التى زكاها بنفسه ﷺ ، ثم قام الأفراد المطلوبون للقرب فكانت قلوبهم عامرة بالحب ، ولكن شوب تلك الأنوار ببعض الحظوظ والأهواء جعل للشيطان لمة بالقلوب ، فكانوا رضى الله عنهم وأرضاهم يقهرون النفوس على الأعمال الشاقة لتنفطر على الجميل من كل شيء ، فكنت ترى الرجل منهم يترك العمل للدنيا و يتسوّل على الناس لتذل نفسه وتنقاد له ، أو يعمل الأعمال المهينة ليحتقر فى عين نفسه أو يلقى بنفسه فى يمّ المصاعب والمتاعب بأن يهجر العمران و يسكن الغابات والصحارى فراغا لقلبه مما يشغله . أو يقيد نفسه ويحبسها فى خربة . أو يعرض نفسه لأذية الناس وسبهم ، كل ذلك جهاداً لنفسه ورياضةً لها وقهرا لها لتعينه على نيل السعادة الحقيقية والفوز بالرضوان الأكبر لأنه شهد بنفسه . فإذا انطبعت على الكمال وفطرت على حب الخير ولانت على الطاعة رجع إنسانا كاملا . وكم من سيد من سادات أهل الصُّفَّةِ ممن كان الرجل منهم يتصرعه الجوع تولى الولايات العظيمة وأصبح له خدم وحشم ، ولو أن الدنيا بما فيها عرضت إليه فى حال مجاهدته لفر منها كما يفر من النار .

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢ .

(٢) سورة المائدة آية ٤١ .

قهر النفس بأمر المرشد الكامل الوارث :

كل تلك الكمالات لاينبغى لمريد سالك أن يتكلفها ولايقهر نفسه عليها إلا بأمر المرشد الكامل الوارث ، لأن للنفوس نزوع إلى المهاوى المهلكة تهوى فيها على صورة مجاهدة للنفس على مدارج المجاهدة . كما ترى بعض الناس يحبس نفسه و يصوم النهار ليكون له تصريف ينفع و يضر ، و بعضهم يطيل أظافره و يلبس المرقعات و يطأطىء رأسه و يبغض الأكل الطيب والفراش الطيب و ينفر من الناس لتكون له الشهرة والسمعة . و بعضهم يترك الأسباب و يدّعى وليستريح من عناء طلب الرزق ويجىء له كل شىء ، و بعضهم يعمل أعمال الصديقين و يظن لجهله أن أسرار الروحانيات الملكوتية عن عمل أوفاق استخدام عفريت ، أو إرسال هاتف أو علم بما وراء الجدران أو بما ضاع من الناس ، حتى وضعوا كتبا سموها علم الروحانى وجعلوها قواعد لعمل السحر . كل ذلك لم يكن إلا لقهر النفس على عمل لم يأذن به المرشد ولم يكن على يد وارث . ولا تشك أيها الأخ البار أن النفس إذا صفت من الهموم الكثيرة والاشتغال بها يجلى لها بقدر همة المريد ونيته ، فإن كان همته الدنيا كان ذلك منفردا بنفسه أو على يد جاهل بطريق الله ، لأن المرشد الحقيقى يعرج بالناس من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة لحضرة القدس ولا يهوى بهم .

التسليم للمرشد الكامل :

أعظك أيها الأخ الصالح أن تجتهد فى طلب الرجل المرشد الحقيقى ، وأنبِّه فكرك أن تجعل ميزان الرجال أعمال أئمة الهدى من المقتدى بهم ، لأن المرشد غير المريد . فالمريد ليس إماما والمرشد إمام يقتدى به . **فإذا تحققت أنه على الصراط المستقيم عالم بالطريق والنفوس وطرق تزكيتها عارف بالله كن له كالميت بين يديه فإنه عناية الله لايخرجك إلا مخرج صدق ،** ولا يدخلك إلا مدخل صدق ، ولا ينزلك إلا منزلا مباركا . فاخرج له مما أمرك أن تخرج منه ، وادخل معه فيما أمرك أن تدخل فيه ، وانزل معه فى كل منزل نزل فيه أو أمرك بالنزول فيه ، معتقدا أنك على الحق ، مبتهلا إلى الله تعالى أن يمنحك المزيد و يعيذك من السلب . ومهما كانت رياضة النفس ومجاهدتها لا تبلغ بالمريد حدّاً تخرجه عن سنة رسول الله ، أو توقعه فى المساخط والملاعن ومعصية الله ، فإن ترك الأسباب الفانية والتعلق بالأسباب الموصلة ليس من المعصية . وقهر النفس على الأعمال التى تحقرها فى عين المريد

كخدمة نعال الإخوان وكترك الزينة والبهجة وكترك المألوف المعتاد وهجران إخوان السوء وترك الوظائف العالية والرضا بالقليل من الدنيا بأن كان عالما فترك وظيفة العلم وعمل سقاء، وكترك التكسب بعمل الرياسة والتكسب بخدمة حمل الأثقال، أوخدمة العامة فى الأسواق أو الاتجار، أو ترك مجالسة الأمراء والوزراء ومجالسة الفقراء والمرضى، أو الخروج من ماله ابتغاء مرضات الله تعالى، كل ذلك من المجاهدات الموافقة للسنة. واللوم عليه فيها لا يضره ولا يضر من عارضه لأنه على سنة وهم على سنة. فكأنه بعمله أحيا سُنَنًا خفية وأعان الناس على إحياء سنن جلية. وليس من خرج عن حصون الشريعة وظن أنه يزكى نفسه بمريد لأنه أضر نفسه وأضر غيره، أمّا أضر نفسه فلأنه عمل مالا يؤمر به شرعا ولا يكلَّف به من الأستاذ فكان مخالفا للشرع مخالفا للمرشد، وأما ضرره لغيره فإن من الناس من يقلده ومنهم من يشنع على المرشد الكامل فيكون أضر نفسه وشنع الناس على المرشد بسببه. وأكمل مريد من جعل مجاهدته لنفسه وخروجه عن الاعتدال أمام من لايعرفه، أو يخرج عن الاعتدال بقهرها على ما يحبه الله ورسوله ليكون قدوة لإخوانه ونجما مشرقا فى سبيل الهداية، وأخا معينا للمرشد على عمله. ومن دعته نفسه إلى غير ماقررت فالواجب عليه المسارعة إلى التوبة والرجوع إلى ماقررت وانتظار إشارة المرشد بصدق عزيمة وطهارة طوية وإخلاص نية، مفارقا نفسه وكل مخالف له. فإن المرشد الكامل أعلم بنفسك وبخلاصها منك، وأعلم بما تتحمله من الأعمال وما تستطيعه من الأحوال. والله سبحانه أسأل أن يمنّ علىّ وعلى إخوانى جميعا بالتوفيق لما يحب من الأقوال والأعمال والأحوال إنه مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المتحابُّون فى الله :

بسند الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (إن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابُّون لجلالى، اليومَ أُظِلُّهم فى ظِلّى يوم لاظِلَّ إلا ظلى)(١) وقال رسول الله ﷺ :(سبعة يُظِلُّهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله عزوجل، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته

(١) أخرجه مسلم فى البر، والترمذى فى الزهد، والدارمى فى الرق، ومالك فى كتاب الشعر وأحمد فى المسند ٢/٢٣٧، ٢٢٨، ٣/٨٧، ٤/١٢٨، ٣٨٦.

ذات حسب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) (١) وعنه أنه قال : (إذا أحب الله العبد قال لجبريل : قد أحببتُ فلانا فأحبَّه ، فيحبُّه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله قد أحبَّ فلانا فأحِبُّوه ، فيحبُّه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض . وإذا أبغض الله العبد ..) قال مالك : لا أحسبه إلا أنه قال فى البغض مثل ذلك)(٢) انتهى ما أورده الإمام مالك رضى الله عنه .

من الأحاديث الصحاح :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف)(٣) وقال : (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : إنى أحب فلانا فأحبه،قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض . وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض)(٤) وقال : (إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابّون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى)(٥) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : (إن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته ملكا قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخًا لى فى هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)(٦) عن أبى مسعود أنه قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم ؟ فقال (المرء مع من أحب)(٧). عن أنس أن رجلا قال : (يارسول الله متى الساعة ؟ قال : و يلك ، وما

(١) أخرجه البخارى فى الأذان ، والزكاة ، والرق ، والحدود ، ومسلم فى الزكاة ، والترمذى فى الزهد ، والنسائى فى القضاء ، والموطأ فى الشعر ، وأحمد فى المسند ٤٣٩/٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، والأدب والتوحيد ومسلم فى البر ، والترمذى فى التفسير ، والموطأ فى الشعر ، وأحمد فى المسند ٢٦٧/٢ ، ٣٤١ ، ٢٠٩/٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى البر وأبوداود فى الأدب ، وأحمد فى المسند ٢٩٥/٢ ، والبخارى فى الأنبياء ، انظر البخارى بشرح الكرمانى ٢٣٠/١٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، والموطأ فى الشعر .

(٥) أخرجه مسلم فى البر ، والترمذى فى الزهد ، والدارمى فى الرق ، والموطأ فى الشعر ، وأحمد فى المسند ٢٣٧/٢ ، ٨٧/٣ ، ١٢٨/٤ ، ٣٨٦ .

(٦) أخرجه أحمد فى المسند ٢٩٢/٢ ، ٤٠٨ .

(٧) أخرجه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى البر .

أعددت لها ، قال : ما أعددت لها إلا أنى أحب الله ورسوله ، قال : (أنت مع من أحببت)(١) وقال رسول الله ﷺ : (مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وأما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة) (٢).

من الأحاديث الحسان :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله تعالى : وجبت محبتى للمتحابّين فىّ ، والمتجالسين فىّ ، والمتزاورين فىّ ، والمتباذلين فىّ)(٣) وفى رواية قال : يقول الله تعالى : (المتحابّون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء)(٤) عن أبى مالك الأشعرى أنه قال : كنت عند النبىّ ﷺ إذ قال : (إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة ، فقال أعرابى : يارسول الله من هم ؟ فقال : هم عباد من عباد الله ، من بلدان شتى وقبائل شتى ، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ، ولا دنيا يتباذلون بها ، يتحابون بروح الله ، يجعل الله وجوههم نورا ، وتجعل لهم منابر من نور قدّام عرش الرحمن ، يفزع الناس ولايفزعون ، ويخاف الناس ولايخافون)(٥). عن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذرّ : (ياأبا ذر أى عرى الإيمان أوثق ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : الموالاة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله)(٦) وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله عزّ وجل طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا)(٧) عن المقدام بن معد يكرب عن النبى ﷺ أنه قال : (إذا أحبّ الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه)(٨). عن أنس أنه قال : (مرّ رجل بالنبى ﷺ وعنده ناس فقال رجل ممن عنده :

---

(١) أخرجه البخارى فى الأحكام ، وفضائل الصحابة ، والأدب ، ومسلم فى البر ، والترمذى فى الزهد ، والدارمى فى الرق ، وأحمد فى المسند ١٠٤/٣ ، ١١٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح ، والبيوع ، ومسلم فى البر ، وأبوداود فى الأدب ، وأحمد فى المسند ٤٠٤/٤ ، ٤٠٥ .

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ فى كتاب الشعر ، وأحمد فى المسند ٢٢٩/٥ ، ٢٣٢ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد ، وأحمد بن حنبل فى المسند ٢٣٦/٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ .

(٥) أخرجه الترمذى فى الجنة ، والزهد ، والنسائى فى القضاء ، وابن ماجه فى الزهد ، وأحمد فى المسند ١٦٠/٢ ، ٢٢٩/٥ ، ٢٣٧ .

(٦) وعند البخارى فى كتاب الإيمان . وأبوداود فى السنة ، وأحمد فى المسند بلفظ : « الحب لله والبغض فى الله من الإيمان » .

(٧) أخرجه الترمذى فى البر ، وابن ماجه فى الجنائز ، وأحمد فى المسند ٣٢٦/٢ ، ٣٤٤ .

(٨) أخرجه أبوداود فى الأدب ، وأحمد فى المسند ١٣٠/٤ والترمذى فى الزهد بلفظ : « إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه » .

إنى لأحب هذا لله ، فقال النبىّ : (أعلمته؟ قال : لا ، قال : قم إليه فأعلمه ، فقام إليه فأعْلمَهُ فقال : أحبَّكَ الذى أحببتنى له ، قال : ثم رجع فسأله النبى فأخبره بما قال ، فقال النبى : أنت مع من أحببت ولك ما احتسبت) وفى رواية : (المرء مع من أحب وله ما اكتسب)(١) عن أبى سعيد أنه سمع النبى ﷺ يقول : (لا تصاحب إلاّ مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى)(٢). وعن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل) (٣). عن يزيد بن نعامة أنه قال : قال رسول الله ﷺ: (إذا آخى الرجل الرجل فليسائله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإنه أوصل للمودّة) (٤) قال ﷺ : (نظرة فى وجه أخ فى الله على شوق إليه ، خير من أجر من اعتكف فى مسجدى هذا أربعين سنة) .

هذه الأحاديث النبوية وردت فى الحث على اتخاذ الإخوان والإكثار منهم ، وقد تقدم لنا فى كتاب : (معارج المقربين) تفصيلا وافيا فى هذا الموضوع ، بيّنا فيه طريق انتقاء الإخوان ومعرفتهم والمحافظة عليهم ، إنما أريد أن أشرح هنا بعض ما يخفى على الإخوان .

خير الإخوان :

معلوم أن الأخ الكامل آخر هو أنت والأخ غير الكامل عضو متمم لك ، ولما كان الإنسان فى نفسه قد تعتريه بعض أمراض فى عضو من الأعضاء أو فى كل جسمه فكذلك قد تعترى الأخ غير الكامل أمراض وقد يعترى الأخ الكامل فتور فالواجب على الأخ أن يبذل ما فى وسعه لحصول الصفاء بينه و بين أخيه ، كما يبذل وسعه فى معالجة العضو إذا مرض ليدوم له الصفاء وللأخ كما تدوم له الراحة والعافية ، وإن من الناس من يبذل وسعه فى اتخاذ الإخوان ثم يتساهل فى المحافظة عليهم فتحصل الجفوة بينهم وربما انقلب الصاحب عدوًّا بسبب عدم المحافظة على روابط الإخاء ، فإن للأخ كلما تقادم عهد الإخاء حقوقا على أخيه توجبها الصداقة الخالصة ، وتخلل المحبة فى جميع أجزاء الجسم حتى يرى كل أخ أن أخاه كنزه وذخره ونفسه التى بين جنبيه فتكثر طلباته وترتفع الكلفة بينه و بينه ، وتكون الهفوة الصغيرة .

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة ، والأدب والدارمى فى الرق ، وأحمد فى المسند ٥/١٥٦ ، ١٦٦ .
(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب والترمذى فى الزهد
(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب ، والترمذى فى الزهد ، وأحمد فى المسند ٢/٣٠٣ ، ٣٣٤ .
(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد .

من الأخ الصادق كأكبر أذية من غيره ، فعلى الأخ أن يبدى لأخيه البشاشة وخصوصا عندما يطلب منه حاجة . وأن يكون صادقا معه يقوم له بما يجب عليه ولا يطالبه بالواجب لنفسه . وخير الإخوان من واساك ومن إذا أطعت ربك أعانك وإذا نسيت ذِكْره ذكَّرك ، وإذا هممت بمعصية ردك . وليس بأخ من حسدك على النعمة ونهاك عن الطاعة وأنساك ذكر الله وأعانك على المعصية ، ولكنه عدو مبين وشيطان لعين . وأخوك حقا من أحبك لمعان عالية للعلم أو العمل به أو للفضائل النفسانية والأعمال الصالحة ومعرفة الله تعالى والرغبة فيما عند الله تعالى وخوف مقامه سبحانه وتعالى والمسارعة إلى مغفرة الله ونيل رضوانه . من أحبك لتلك المعانى أو لبعضها فهو الأخ حقًّا والصديق صدقا ، ومن أحبك لمال أو لجاه أو لوظيفة أو لقوة جسمانية أو لينال بك حاجته فليس بأخ لك ولكنه أخ لما أحبَّ ، فاحتفظ منه على نفسك ولا تغتر به ولا بأمثاله فإنهم كثيرون والمضار التى تحصل للرجال أكثرها من هؤلاء ، وأحب أن تعامل الله فى كل إخوانك معاملة ترضيه سبحانه وترضى رسوله ﷺ ، وأحب أن تكون باذلاً وسعك فى منفعة إخوانك وأن تكف أذيتك عنهم ومتاعبك ليكون الله فى عونك . والله تعالى أسأل أن يعيننا على القيام بالواجب إنه مجيب الدعاء ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الخاتمــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم الوهاب الفتاح العليم الذى علّم من شاء الحكمة وفصل الخطاب ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله . اللهم إنى أسألك ستر عيوبى وغفران ذنوبى ، وأبرأ اللهم إليك من شر نفسى ومن كل قول قلته أو فهم فهمته أو مبهم بينته أو مجمل فصلته لم أهتد فيه للصواب لتسرعى وغفلتى ونسيانى ، وأسألك يامجيب المضطر إذا دعاه ياقابل التوب وغافر الذنب أن تجعل ما ألهمتنى إياه وأعنتنى على بيانه وشرحت صدرى لتدوينه من الحق والخير الحقيقى والنفع خالصا لوجهك الكريم ،تنفعنى به وتنفع به إخوانى المسلمين . اللهم كان حقا مما وفقت وأعنت على وضعه فاجعله خالصا لوجهك الكريم ووسعةً لى فى قبرى ونوراً لى يوم لقائك ، وترفعنى فضلا منك ياإلهى به الدرجات العلا . وما وقع منى مما أنا أهله من العجلة والنسيان والخطأ فاستره ياإلهى بغفرانك واجعله ياإلهى محمولا على جانب عفوك ، وعمِّم ياإلهى فضلك العظيم لى ولأهلى وأولادى وإخوانى ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وفاتح أبواب الخير العظيم وآله وسلم .

الخويدم المسكين

عبد الله

محمد ماضى أبو العزائم

الفهرس

الموضوع — **رقم الصفحة**

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

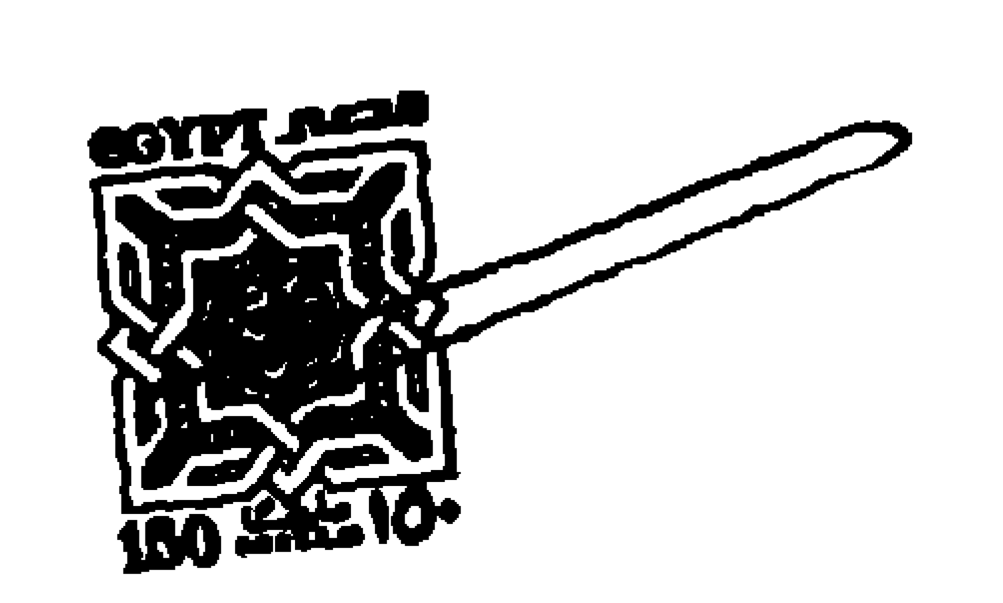
الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجمع البحوث الإسلامية

إدارة البحوث والنشر

السيد الأستاذ المستشار

عز الدين أحمد ماضى أبو العزائم

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته وبعد

فبمقتضى الطلب المقدم من سيادتكم لفحص بروفات كتاب :

(النور المبين لحلوم اليقين ونيل السعادتين) الذى ألفه جدكم فضيله الأستاذ الشيخ محمد ماضى أبو العزائم نفيد بأنه قد تم فحص الكتاب المذكور وتبين أنه يستهدف تعميق ايمان قارئه بالدليل الوثيق المقنع ويزوده بمنهج مثالى للتربيه الاسلاميه الحقه من شأنه تكوين الضمير الحى اليقظ وتشكيل المسلم الصالح فى المجتمع الاسلامى الناجح وفى الأمه الاسلاميه القويه الفائزه •

ونحن اذ نخطركم بأنه لامانع من طبعه ونشره وتداوله ندعو الله لكم بالتوفيق والسداد •

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته

تحريرا فى : الخامس عشر من رمضان سنه ١٤٠٣ هـ
الخامس والعشرون من يونيو سنه ١٩٨٣م

مدير عام

اداره البحوث والنشر

سعد السيد عمر

الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم

نسبه : سليل آل البيت الطاهرين ، حسنى من جهة والدته ، حسينى من جهة والده .

مولده : ولد يوم الإثنين ٢٧ رجب ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩/١١/٢ بمسجد سيدى زغلول برشيد .

وظائفه : عمل بالتدريس ثم تدرج فى سلك الوظائف حتى صار أستاذا للشريعة الإسلامية بكلية غردون جامعة الخرطوم حاليا .

اقالته من وظيفته : كان يرى أن أهم وظائف الرجل الدينى الإرشاد ، والنصيحة للحاكمين بل لعامة الناس ، والتحذير من الوقوع فى حبائل الإستعمار ، فأقصاه الحاكم العام الإنجليزى من وظيفته فى ١٩ رمضان سنة ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٥/٨/١م .

مطالبته بعودة الخلافة : بعد أن قررت الجمعية الوطنية بأنقرة فى ١٩٢٤/٣/٢ الغاء الخلافة الإسلامية دعا الإمام لتأسيس جماعات للخلافة الإسلامية بجميع أنحاء العالم الإسلامى وانتخب رئيسا لجمعية الخلافة الإسلامية بمصر فى ١٩٢٤/٣/٢٠ وناب عن شعب مصر فى حضور مؤتمر الخلافة الإسلامية الذى انعقد بمكة المكرمة فى شهر ذى الحجة ١٣٤٤هـ الموافق سنة ١٩٢٦م .

دعوته : أسس جماعة آل العزائم سنة ١٣١١هـ والطريقة العزمية سنة ١٣٥٣هـ ومقرهما ١١٠ شارع مجلس الشعب بالقاهرة .

مؤلفاته : تذخر المكتبة الإسلامية بمئات الكتب من مؤلفاته فى التفسير والفقه وعلم الكلام والتصوف والفتاوى والسيرة والمواجيد .

انتقاله : انتقل رضى الله عنه الى الرفيق الأعلى يوم ٢٧ رجب سنة ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩٣٧/١٠/٣م ودفن بمسجده بشارع مجلس الشعب بالقاهرة .

خليفته الاول : إبنه الأكبر الإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبو العزائم ، شكل عمراً جديداً لدعوة الإمام ونشر تراثه العلمى وانتقل رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى يوم ٢٠ ربيع أول سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ١٩٧٠/٥/٢٦م ودفن بمسجد والده الإمام بشارع مجلس الشعب .

خليفته القائم : السيد عز الدين ماضى أبو العزائم المحامى بالنقض حفيد الإمام والابن الأكبر للخليفة الأول وهو شيخ الطريقة العزمية وإمام جماعة آل العزائم حاليا .

هــذا الكتــــاب

يحدثنا الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم عن أن مجد الإسلام لا يعود إلا بالعمل بأحكام الكتاب والسنة حتى ننال السعادتين فى الدنيا والآخرة ، وبذلك يجب على كل مسلم أن يؤدى واجبه نحو الله بالمعرفة والشكر ، ونحو رسوله صلى الله عليه وسلم بتصديقه وطاعته واتباعه ومحبته والصلاة عليه وتعظيم عترته ومودتهم .

كما بين رضى الله عنه النظام السياسى فى الإسلام الذى يقوم عليه سائر التنظيمات الاخرى ، الإجتماعية والمالية والاقتصادية والعسكرية ، وذلك لأن جميع أشكال النظم تعتمد أولاً على الحكم ، وعليه فمن هو الحاكم فى نظر الإسلام ؟ وصفته وطريقة اختياره ، والواجب عليه نحو أفراد الأمة ، والواجب له على كل فرد من أفراد المسلمين ؟ ثم ما هو الواجب بالنسبة للعلماء والتجار والصناع نحو المجتمع الإسلامى ؟ والواجب على المسلم لإخوانه ولعموم الخلق ؟

ثم يختم الإمام رضى الله عنه كتابه بحديثه عن الجهاد وأنه ليس المراد به القتال فقط . لأن قصر الجهاد على القتال قصور فى فهم الفكر الإسلامى فالجهاد له معنى أوسع من معنى الحرب . وبذلك يرد رضى الله عنه على أصحاب الإمتداد التاريخى لفكر الخوارج الذين يقصرون الجهاد على القتال والصراع المسلح .

ودار المدينة المنورة أذ تقدم هذا الكتاب فى هذه الآونة التى تجتازها الأمة الإسلامية لترجو من الله العلى القدير أن يجنب شبابنا المسلم فتنة ائمة خوارج هذا الزمان لشبابنا المسلم النور المبين ، فيستقيموا على طريق ربّ العالمين ، لينالوا سعادة الدا

دار المدينة

١١٤ ش مجلس الش

الثمن ٠



